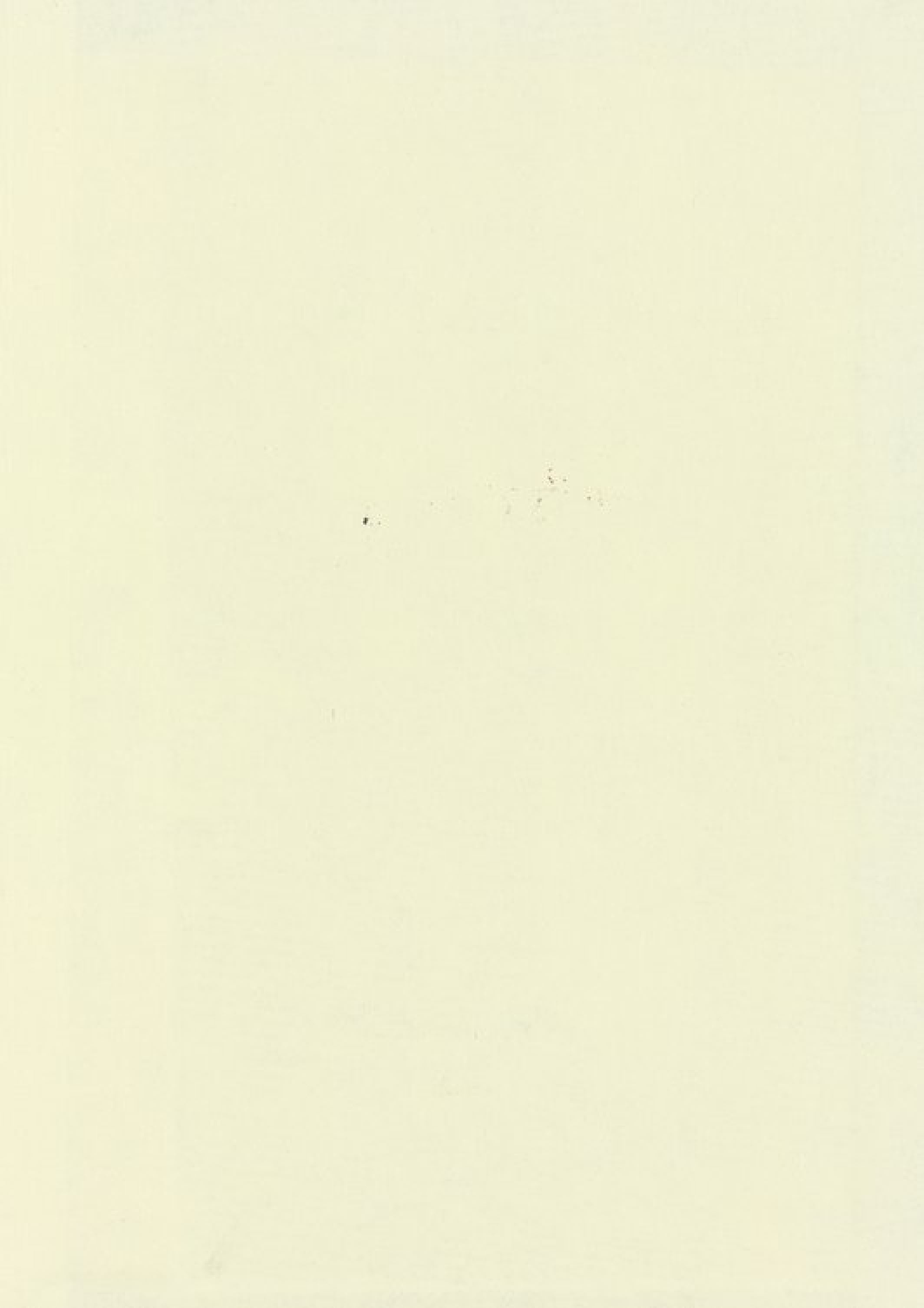


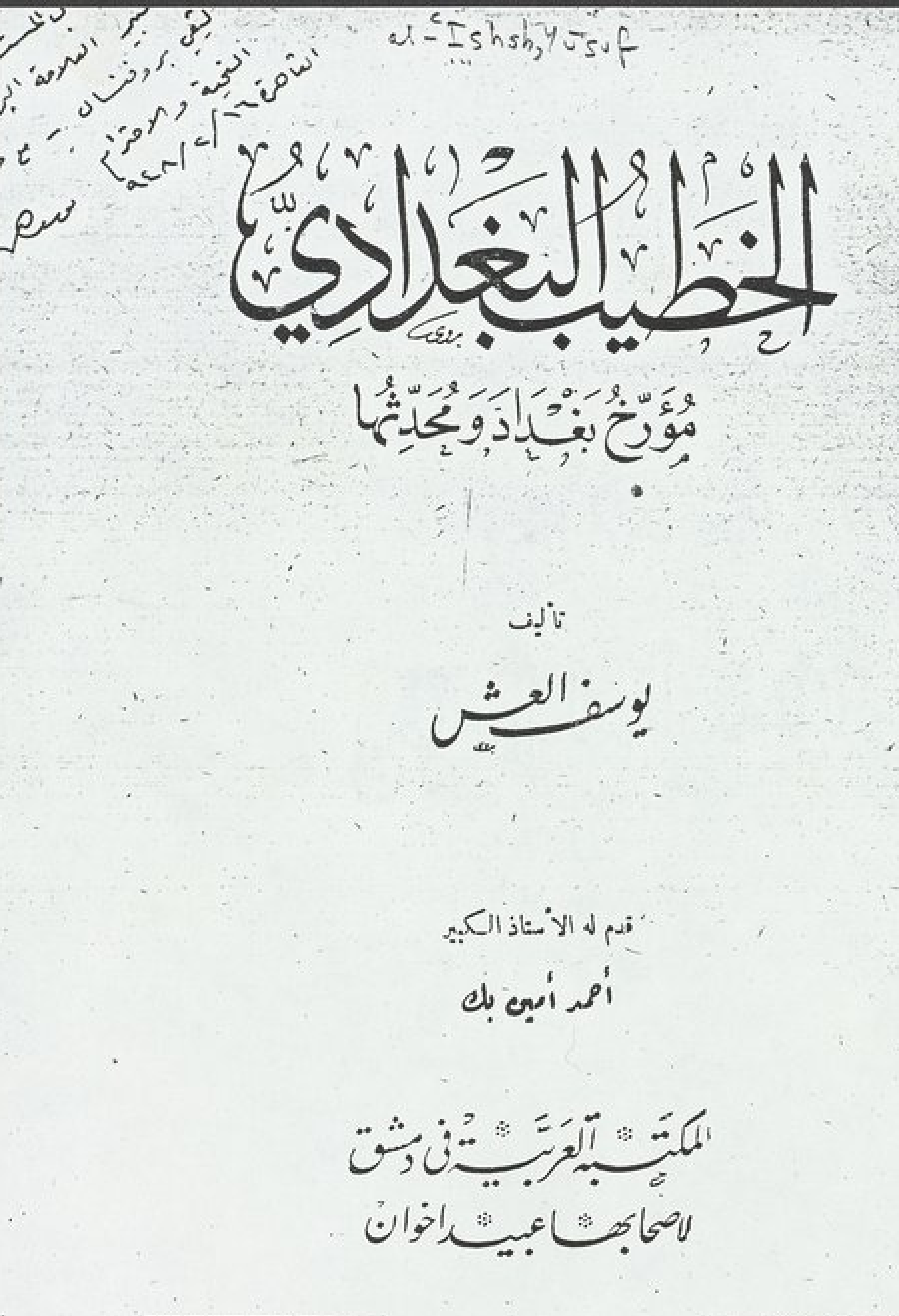



a32101 076370186









# الخطيب البغدادي

## مؤرخ بغداد ومحدثها

تأليف

يوسف العش

قدم له الأستاذ الكبير

أحمد أمين بك

المكتبة العربية في دمشق
لأصحابها عبيد اخوان



مطبعة الترقي بدمشق
١/٤/١٣٦٤ هـ

إذا ارتاب مرتابٌ في وحدة العرب ،
فما أكثر الشواهد التي تزيل الريب .
وهذا الكتاب واحدٌ من هذه الشواهد
وضعه مؤلفٌ من شباب بلاد الشام
وقدّم له أستاذ كبير من رجالات مصر
وتناول البحثُ فيه علماً من أعلام العراق
فما أحراه بأن يهدى

# إلى الوحدة العربية

إنه بهذا الإهداء لفخور

# المقدمة

## للأستاذ الكبير أحمد أمين بك

عرفتُ الأستاذ يوسف العش شاباً ممتلئاً نشاطاً ، مخلصاً للعلم ، جاداً في البحث وراء الحق ، لم تمنعه ثقافته الغربية أن يصرف أطول زمنه نابشاً في الكتب الشرقية ، مسلطاً ضوء المنهج الذي اكتسبه من الغرب على التراث العظيم الذي خلفه لنا الشرق .

ولما التقيت به في مهرجان أبي العلاء المعري في دمشق أطلعني على مسودةٍ لكتابٍ وضعه في مؤرخ بغداد « أبي بكر الخطيب » — ومع أن وقتنا كان مزدحماً لا نفرغ فيه لأنفسنا إلا حين عودتنا لننام في منتصف الليل اجتهدتُ أن أختلس وقتاً للاطلاع على هذا الكتاب ، وتصفحه عامة ، وقراءة فصول بأكملها خاصة .

أعجبني فيما قرأتُ دقة البحث ، وصبر المؤلف على الدرس ، ورجوعه إلى مظانّ كثيرة ، بين مخطوطة ومطبوعة ، والاستفادة

منها ، والتأليف بين أشتاتها ، ليخرج لنا صورة واضحة للخطيب البغدادي في حياته وأخلاقه وثقافته ونزعاته ومقدار الثقة به ، وما أسداه إلى العلم من خدمات ، وسرّ عظمته الخ ..

والكتاب قيم من نواح شتى ، فهو يطلعنا على مؤرخ عظيم كان صورة صادقة للمؤرخين والمحدثين في عصور الإسلام الأولى — وهو يعرضه عرضاً عصرياً جذاباً ، ويستخدم المادة الأولى القديمة فيزينها برواء جديد أخاذ — وهو يقدم لنا مثلاً لتراثنا القديم كيف نستغله في الإعجاب بقدمائنا ، والاستحثاث للسير على منهجهم في حب العلم والصبر عليه والتبتل فيه .

وهو فوق ذلك طليعة تدل على ما بعدها من أن المؤلف إذا صدر منه هذا الكتاب وهو في ربيع حياته ، فسيكون منه مؤلف قدير ناضج يغني — هو وأمثاله — المكتبة العربية بخير التآليف وأحسن الإنتاج . وفقه الله للخير .

احمد امين



# الاستهلال

مد الله في عمرك ، وحباك بالعلم بعد المعرفة ، وبالحكمة بعد العقل ، وبالنشاط بعد القوة .

ألم تر ما للأدباء من الشهرة في حياتهم وبعد وفاتهم ، لا ينفك الناس عن التنويه بشأنهم ، والعناية بأقوالهم ، والتتبع لآثارهم ، طلباً للمتعة ، وحرصاً على الفكاهة ، وسعياً للاكتساب السهل للمعرفة الطريفة .

ألم تشهد ما لأدباء العرب من المكان الجليل في نشأة الفكر منذ عصر النهضة الحديثة : أقبل العلماء المعاصرون على البحث عنهم ، وتتابعت الكتب في ذكر أثرهم ، ووصف أخلاقهم ، وبسط حياتهم ، حتى خيل لبعض المتعلمين أن الفكر العربي إنما هو أثر من آثار الشعراء والكتاب ، أمدوه بما أبدعه ، وقواه ، وأكمله ، وأننا ، إن تعدينا حلقة أدباء العربية ، ألفينا كتباً صفراً ، شحنت بما يرهق العقل ، ويثقل السمع ، ويغشي البصر : طال عليها العهد حتى هرمت .

لعمرك إنهم أخطأوا الفهم . فالأدب العربي مدين للأدباء ، كما هو مدين لغيرهم ، أما الفكر العربي فهو وليد العلم قبل الأدب ؛ ولئن كان للبحث في الأدب طرافة ترهف الحس ، وتغذي الخيال ، وتثير العاطفة ، فلعلماء العرب والإسلام شأن يسمو بالنفس ، ويعلو بالفكر ، ويوحي القوة ؛ وما هو إلا أن ينفض غبار الكتب الصفر ، ويرفع منها تكرار الروايات وتداخل الآراء ، حتى يتجلى لابن العصر جميل أثرها ، ويسفر للنظر حسن معناها .

هل ترى أن يطغى حظ الأدباء أكثر ، وأن يمنى غيرهم بزيادة الهجران ؟ ألست متشوقاً الى النصيب الأوفر من المعرفة والقسط الأكبر من رياضة العقل ، تود لو اطلعت على آفاق حجبت عنك ، وتوارت دونك . إذا بلغت بك الهمة هذا ، فتعال معي نطوف بعالم نستعرض فيه أكثر ما عمل المسلمون له ألا فاسمع :

لم يعن المسلمون بشيء عنايتهم بجمع الحديث النبوي وضبطه . ولئن كان لعملهم هذا غاية دينية خالصة ، فقد تأثرت علومهم بالحديث ، بل إن كثيراً منها وضع لإسعاف الحديث وإتقان البحث فيه . ثم نشأت طائفة منهم استقلت بالحديث وبالعلوم المسعفة له ، فعظم جدها ، وكثر سعيها ؛ وبلغ من أمرها أن من أهلها من كان يرحل من العراق

منها ، والتأليف بين أشتاتها ، ليخرج لنا صورة واضحة للخطيب البغدادي في حياته وأخلاقه وثقافته ونزعاته ومقدار الثقة به ، وما أسداه إلى العلم من خدمات ، وسر عظمته الخ ..

والكتاب قيم من نواح شتى ، فهو يطلعنا على مؤرخ عظيم كان صورة صادقة للمؤرخين والمحدثين في عصور الإسلام الأولى — وهو يعرضه عرضاً عصرياً جذاباً ، ويستخدم المادة الأولى القديمة فيزينها بزواء جديد أخاذ — وهو يقدم لنا مثلاً لتراثنا القديم كيف نستغله في الإعجاب بقدمائنا ، والاستحثاث للسير على منهجهم في حب العلم والصبر عليه والتبتل فيه .

وهو فوق ذلك طليعة تدل على ما بعدها من أن المؤلف إذا صدر منه هذا الكتاب وهو في ربيع حياته ، فسيكون منه مؤلف قدير ناضج يغني — هو وأمثاله — المكتبة العربية بخير التآليف وأحسن الإنتاج . وفقه الله للخير

احمد امين

# المقدمة

## للأستاذ الكبير أحمد أمين بك

عرفتُ الأستاذ يوسف العش شاباً ممتلئاً نشاطاً ، مخلصاً للعلم ، جاداً في البحث وراء الحق ، لم تمنعه ثقافته الغربية أن يصرف أطول زمنه نابشاً في الكتب الشرقية ، مسلطاً ضوء المنهج الذي اكتسبه من الغرب على التراث العظيم الذي خلفه لنا الشرق .

ولما التقيت به في مهرجان أبي العلاء المعري في دمشق أطلعني على مسودةٍ لكتابٍ وضعه في مؤرخ بغداد « أبي بكر الخطيب » — ومع أن وقتنا كان مزدحماً لا نفرغ فيه لأنفسنا إلا حين عودتنا لننام في منتصف الليل اجتهدتُ أن أختلس وقتاً للاطلاع على هذا الكتاب ، وتصفحه عامة ، وقراءة فصول بأكملها خاصة .

أعجبني فيما قرأتُ دقة البحث ، وصبر المؤلف على الدرس ورجوعه إلى مظانّ كثيرة ، بين مخطوطة ومطبوعة ، والاستفادة



# الاستهلال

مدّ الله في عمرك، وحباك بالعلم بعد المعرفة، وبالحكمة بعد العقل، وبالنشاط بعد القوة.

ألم تر ما للأدباء من الشهرة في حياتهم وبعد وفاتهم، لا ينفك الناس عن التنويه بشأنهم، والعناية بأقوالهم، والتتبع لآثارهم، طلباً للمتعة، وحرصاً على الفكاهة، وسعياً للاكتساب السهل للمعرفة الطريفة.

ألم تشهد ما لأدباء العرب من المكان الجليل في نشأة الفكر منذ عصر النهضة الحديثة: أقبل العلماء المعاصرون على البحث عنهم، وتتابعت الكتب في ذكر أثرهم، ووصف أخلاقهم، وبسط حياتهم، حتى خيل لبعض المتعلمين أن الفكر العربي إنما هو أثر من آثار الشعراء والكتاب، أمدوه بما أبدعه، وقواه، وأكمله، وأننا، إن تعدينا حلقة أدباء العربية، ألفينا كتباً صفراً، شحنت بما يرهق العقل، ويثقل السمع، ويغشي البصر: طال عليها العهد حتى هرمت.

لعمرك إنهم أخطأوا الفهم . فالأدب العربي مدين للأدباء ، كما هو مدين لغيرهم ، أما الفكر العربي فهو وليد العلم قبل الأدب ؛ ولئن كان للبحث في الأدب طرافة ترهف الحس ، وتغذي الخيال ، وتثير العاطفة ، فلعلماء العرب والإسلام شأن يسمو بالنفس ، ويعلو بالفكر ، ويوحي القوة ؛ وما هو إلا أن ينفض غبار الكتب الصفر ، ويرفع منها تكرار الروايات وتداخل الآراء ، حتى يتجلى لابن العصر جميل أثرها ، ويسفر للنظر حسن معناها .

هل ترى أن يطغى حظ الأدباء أكثر ، وأن يمنى غيرهم بزيادة الهجران ؟ ألست متشوقاً الى النصيب الأوفر من المعرفة والقسط الأكبر من رياضة العقل ، تود لو اطلعت على آفاق حجبت عنك ، وتوارت دونك . إذا بلغت بك الهمة هذا ، فتعال معي نطوف بعالم نستعرض فيه أكثر ما عمل المسلمون له ألا فاسمع :

لم يعن المسلمون بشيء عنايتهم بجمع الحديث النبوي وضبطه . ولئن كان لعملهم هذا غاية دينية خالصة ، فقد تأثرت علومهم بالحديث ، بل إن كثيراً منها وضع لإسعاف الحديث وإتقان البحث فيه . ثم نشأت طائفة منهم استقلت بالحديث وبالعلوم المسعفة له ، فعظم جدها ، وكثر سعيها ؛ وبلغ من أمرها أن من أهلها من كان يرحل من العراق

إلى مصر تتبعاً لحديث واحد أو تصحيحاً له[1] . وهي في كل ذلك مؤمنة أنها تخدم الإسلام ، بل تحمل رايته . لم تقنع بأن تعد صاحبة علم عظيم من علوم الإسلام ، بل طمحت إلى أن يصبح المرجع في شؤون الدين إليها ، فتكون حامية الإسلام وبطلة العقيدة وسيدة الفتوى . اختطت لنفسها سبيلاً قصدت أن يكون خالصاً من التمويه ، بعيداً عن الزيغ ، واضح المرمى . أخذت على نفسها بأن يحيا أهلها حياة دينية خلقية نقية ، فيكونوا حقيقين بالاحترام ، جديرين بالثقة ، حريين بالرئاسة . لم تقصد في ذلك الدنيا ، بل كان هدفها يوم الله الآخر ، حتى إذا زهدوا في الدنيا لم يتصوفوا ويتقشفوا ، بل جمعوا بين الكسب للخيرات ، والازدراء للشهوات . ونظروا إلى الناس نظرة الناقد الفاحص ، فهاجموا فسادهم ، وأثقلوا الكيل عليهم . ظنوا الكمال في الدين واجباً ، والمتساهل فيه ظالماً ، فكثر نقدهم ، وتضاعفت حملاتهم ، حتى عدهم بعض الناس خيولاً جامحة لا تدري أين تسير ، وأيان تستقر .

أرأيت أنهم قمينون بالانتباه ، جديرون بالعناية . ألا فتتبع صفحات هذا الكتاب تجد صوراً منهم تزيد في معرفتك بشأنهم ،

---

(١) انظر أخبار ذلك في كتاب الرحلة في طلب الحديث ظاهرية مجموع ٧٤ ، ١٥٠ – ١٥٥

وتطلعك على شيء من رأيهم وطرف من سعيهم ، فيكون لك ساعات اتصال بأناس يختلفون عمن عرفت اختلافاً بيناً .

لكن أتراك تؤثر البحث المجمل المنطقي الذي يعرض صوراً عامة مطلقة موحدة ، أم تفضل أن تتبع حياة كاملة مفصلة ، كأنك تعايش معها ، وتمر أمامك . ألست تميل إلى الصور الحية الصادقة ، تجد فيها رمزاً واضحاً إلى غيرها من المشاهد ، وتقيس بها سواها من الأشكال ، أما إنك تجد في البحث عن عالم ما مثالاً قريباً لغيره ؛ وخير لك أن تشعر بشعور واحد من جماعة ، وتعيش معه ، وتتحدث إليه ، من أن تصادف جماعة ، فلا تدري أمرهم إلا بالجمع ، ورأيهم إلا بالتلخيص لا سيما إذا اعتمدت على استثارة عاطفتك بجميل الأخبار ، ومحاسن الأقوال ، وطرائف الآراء .

لن يبعد لك سبيل الاتصال بالجماعة ، فالرجل الذي ستقرأ سيرته ليس نادرة لا مثال لها ، أو عظيماً لا نظير له ، أو عبقرياً اختص بمزايا لا تتم لغيره . إنما هو واحد من عدة ، ومثل من أمثال ، وعالم من علماء . استن بهدي من سبقه ، وسار على خطى من قبله ، لا يدعي العظمة ، ولا يتصف بالعنجهية . إذا عرفته عرفت طائفته ، وكنت على جلية من أمرها .

ستشهد في هذا السفر صورة موجزة عن عصر متوسط من عصور

الإسلام ، وترى فيه حياة محدث قد حفل بالعلم ، وانكب عليه ، وأخلص له ، فسعد بسببه ، وعرف به ، وقدر لأجله ، وستقرأ صورته بطبعه السمح ، ونفسه الطيبة ، وقدرته على الإتقان ، وتنتقل من ذلك الى وصفه في ثقافته وعلمه ، وهما يتكونان ثم يتوسعان ثم ينتجان ويبدو لك بعد ذلك أدب براق ، وشعر لطيف ، فتتشوق الى معرفة رأي الرجل ، فتراه متحمساً يعتقد وجوب الأخذ بشيء من التفكير والعقل ، والوقوف عند نصوص الشرع . حتى إذا شاهد من لا يوافقه على رأيه ، لم يخش من الكيل له بما يراه يستحقه ، يخاصمه مستتراً بأقوال غيره فيه : يورد أشدها وأقواها دون أن يبدي رأيه فيه ، أو يرفع صوته في استنكار أعماله . ولكن خصومه لا يقفون حيارى ، بل يتناولونه بألسنتهم الحداد ، ويتهمونه بما يرونه مستحقاً له . ويضطرب رأيك فيه بعد الذي تسمع في نقده ، وتود لو سمعت قول المنصفين ليتبين لك الحق ، فترى أئمة المؤرخين معجبين به ، مجلين له ، معتقدين كماله وإتقانه . وتستخلص من ذلك صورة تختم بها رأيك فيه ، فتعده من خيار الناس الذين يكونون مجد الأمم ، ويخدمون تراث العلم .

لن يحاول المؤلف الضغط على شعورك وكبت ميولك ، ليدعك تمسك عليك نفسك آخذاً ببعد العالم عن التأثر بالعاطفة ، يذرك غير مبال بمن تقرأ سيرته . بل سيحاول أن يظهر لك الجمال حيث

يجب أن يبدو ، ويثير العاطفة حيث يجب أن تثار . فهو قد أدرك بعد البحث والاستقصاء أن من تقرأ سيرته صاحب خير ورب تقى . وانك لا تضر بالتحزب له ، والعطف عليه ، والتماس العذر له فيما لعله أخطأ به دون قصد ، بل تفيد من التحمس للحق ، ففي ذلك إثارة لعظيم الهمة ، وجميل الخير ، مع أنه ليس فيه أذى للعلم ، وضرر بالحقيقة ، فالعلم لم يحل يوماً دون حث الناس على الخير ، وإن في الحقيقة كلَّ جمال ومحبة .

وإياك أن تتوهم أن العطف عليه ، والدفاع عنه ، والشعور بحسن نفسه تعني الحط من خصومه ، والازدراء لأقوالهم ، والدفع لآرائهم . فالمؤلف لم يرم إلى شيء من ذلك ، بل يرى أن لكلٍّ حقه في الرأي ، ونصيبه من الصواب ، وأن الحق عند إنسان لا يعني أن الباطل عند خصمه . وشدّ ما فرقت المبادئ بين المحسنين ، وبعدت المذاهب بين المصيبين . وإذا كان للحق ألا يتضارب ، فله أن يعم ، وله الا يحرم منه المتخاصمون ، إن قصدوا جميعاً إياه ، وما طلبوا سواه . وما قصد المؤلف إلا التسامح عن الهفوات ، إن صدرت عن صادق نية ، وأن الإنسان قد يحسن دون أن يكون كاملاً ، وقد يتخذ طريقاً غير طريق الآخرين ، فيحسبونه مخطئاً ، ولو عرفوا غايته ، ونفذوا إلى خبايا نفسه لأقروه ، ولم ينفروا منه .

والمؤلف يرغب إليك ألا تعتقد أنه يحبذ أمر أهل الحديث ، ويدعو إلى طريقتهم ، ويستحسن كل أمرهم . إنما يرجو منك أن تعتقد أنه مؤمن بأنهم كانوا مخلصين لعلمهم الذي حملوه ، متحمسين له ، عارفين نهج الدفاع عنه ، وأنهم أبطال حريون بأن يعرف لهم فضلهم ويقدر لهم خيرهم .



# عصر الرجل

## الاعتدال بعد الطفرة

تمتع العلم العربي الاسلامي بأبهى مظاهره ، وارتدت الحضارة أجمل أثوابها ، وتجلى الفن بأنضر زينته ، فرأيت خضماً من الأنوار تتناثر ، فيلمع بهـا الإسلام ، ويضيء بهجة ، ويسمو نضوجاً ؛ تلك الأيام كانت تتتابع في حلقة المائة الرابعة ، حتى إذا ختمت الحلقة ، لم يخبُ النور ، وإنما اعتدل بريقه ، ولم تقف الحضارة ، وإنما هدأت نزعتها . وعصر الرجل هو هذا الاعتدال في البريق والاستواء في النزعات .

## تسوية الحدود

لقد كثرت المذاهب ، وتعددت النحل ، وزاد الكيل في كل شيء ، وأخذ الناسَ نشوة الحضارة ، فطفقوا يميلون يميناً وشمالاً ، تستفزهم الآراء ، وتدفع بهم النزعات ، يظنون أن الإسلام معرض يرتاده كل قاصد ، يعرض به بضاعته حرًّا طليقاً ، حتى أفاقوا في أوائل المائة الخامسة ، وإذا بالمعرض بيت يضيق عن التشعيث ، ويأبى التراكم . وإذا بأهله يحاولون تقاسمه وتحديده

وتخطيطه . وعصر الرجل عصر تسوية الحدود ، وتشعب الأجزاء ، وانزواء كل طائفة بعيداً عن غيرها بما تحصل عليه .

## الصراع في سبيل ذلك

غير أن الصراع حتم على من يبغي الاستقلال ، ولن تسوى الحدود إلا ببعض القوة ، ولا بد من ظهور الأطماع ، وازدياد الرغبات ، وانبعاث الظنون بأن الحق في جانب من يكثر الطلب .

وعصر الرجل يشهد ذلك الصراع ، ويمد فيه ، ويتصف به . وهو بالجملة عهد الاعتدال في السير بعد الإسراع ، والصراع في طريق استقلال النزعات بعضها عن بعض ، وانكماشها ثم تبلورها .

يظهر ذلك واضحاً في حوادث الجيل بالسياسة ، والنزعات المذهبية وتطور العلم والأدب [1] ، ويبدو ذلك أوضح مايكون في العراق حيث نشأ الرجل وأقام وأفاد .

## بنو بويه والخلافة

كان الحكم في العراق لبني بويه ، ولكنه مضطرب غير قويم . وملوكهم منذ أوائل القرن الخامس يتتابعون في بغداد ، فلا يقدرون على ضبط المملكة . هذا شرف الدولة بن بهاء الدولة (٤١١ — ٤١٦)

---

(١) سنغفل ذكر المصادر التي يرجع إليها لمعرفة هذه الحوادث ، فالتواريخ التي نضبطها بها كافية للاحالة الى كتب التاريخ على السنين . وكل هذه الكتب تشير اليها ، ومنها مايوسع البحث فيها ، فلتراجع .

وجلال الدولة أخوه ( ٤١٨ — ٤٣٥ ) وأبو كاليجار ( ٤٣٦ — ٤٤٠ ) والملك الرحيم ( ٤٤٠ — ٤٤٧ ) منهمكون في تسوية القلاقل الواقعة ، ومنع الاضطراب ، لايفرغون لتنظيم ، ولا يقوون على إصلاح . لم يبلغوا إلا شيئاً واحداً ، هو تقايص ظل الخلافة ، ومنعها من السيطرة . وسلطة الخليفة شكلية ظاهرة ، لا أصيلة مكينة . فلا القادر المتوفى سنة ٤٢٢ ولا القائم الذي تلاه ، وامتدت خلافته حتى عام ٤٦٧ بقادرين على السير بمصالح المسلمين إلى ما يجب ، وأكثر ما استطاعا إليه سبيلاً إيقاف ملوك بني بويه عن توسيع سيطرة الشيعة في بغداد ، وتمكينها من الغلبة على أهل السنة ؛ فهذا القادر يرفض تسليم قضاء القضاة إلى شيعي ، وينجح .

الشيعة وأهل السنة

على أن الخلاف مستحكم بين الشيعة والسنة ، لايبرح يشتد . ويخاف كل فريق منهما على نفسه ، فيبنيان سورين بينهما سنة ٤٤١ ، حتى إذا حلت سنة ٤٤٢ بلغت الأزمة أشدها ، فحرق قبر موسى ابن جعفر العلوي . وعجز الحكم ظاهر للعيان ، فأهل السنة أكثر من الشيعة عدداً ، وأقوى منهم يداً . والشيعة أقوى ببني بويه . والخليفة يعمل على ألا يبتلي أهل السنة بما يبدد أمرهم . ويزداد

الاضطراب ، وتخف سطوة الحكم حتى يظهر العيارون سنة ٤٣٦ برابعة النهار ، فيصيب الناس منهم شر عظيم .

الفاطميون

أدرك الفاطميون بمصر تضعضع الحال في العراق ، وتضارب السلطان ، واختلاف الناس ، فراحوا يبثون دعوتهم ، عساهم أن يأخذوا البلاد لقمة سائغة ؛ ويصيبون بعض النجاح ، فيخطب للحاكم سنة ٤٠١ بالكوفة والموصل . ولكن ذلك يوقظ أصحاب الأمر ببغداد ، فيتصدون مهاجمين ، ويعمل الخليفة على كتابة محضر ببغداد سنة ٤٠٣ يتضمن القدح في نسب الفاطميين ، ويوقع فيه جماعة من العلويين .

السلجوقيون

على أن ما عجز عنه الفاطميون ليس عسيراً على غيرهم ، فالبلاد كانت تتطلب حكماً متيناً ، يثبت النزعة القوية ، ويبسط لها سبيل الغلبة على خصمها . وهي أقرب إلى أن تستسلم لدولة سنية قريبة من مذهب عامة الشعب ورغباته ، من أن تذعن لدولة تحاول القضاء على الخلافة العباسية . وتلك الدولة السلجوقية التي ابتدأت سنة ٤٣٢ واستولت على نيسابور ثم خراسان تنتقل إلى العراق سنة ٤٤٧ فيوطدها فيها طغرل بك ، ويشتت حكم بني بويه ، ومعهم نفوذ الشيعة وينصر أهل السنة .

المعتزلة والأشعرية وخصومهم

وما كاد نصر السنة يعلن في بغداد على الشيعة حتى يرمي كل مذهب من السنية إلى توطيدأمره ، فيتنازع مع غيره . وتقوم الحرب ، وهي حرب مبادئ وأصول . وأول من يخرج من الميدان المعتزلة ، فالحكم يسد عليهم الطريق ، ويبدو أن صوتهم خفت ، فلا يعود . وإذا كان لهم نصيب من النزاع في هذا العصر ، فهو الصبر على المطاعن ، واحتمال الشتائم . وقد رد الدفاع عن العقل إلى الأشعرية ، مع أنهم لايعتدون به كل الحين . هذا وهم يتحملون في سبيله كل عنت ، وأهل الحديث والحنابلة يحاولون إيقافهم بل ردهم .

الشوافعة والحنفية

والشوافعة واقفون وسطاً بينهم ، يميل بعضهم إلى الأشاعرة وبعضهم عليهم ، دون غلو أو شطط . والحنفية يحملون من اللمز والدفع مايسوؤهم . وهم يتسابقون مع الشوافعة في نشر المذهب ، فيرفعون قبة فخمة على قبر أبي حنيفة سنة ٤٥٩ ، ويقيمون فيها درساً . ويفتتح أولئك المدرسة النظامية في السنة نفسها .

الادب والفلسفة

أما الأدب فيختم حلقة جماله وإبداعه ، يُخرج من الشعراء

الشريف الرضي ( — ٤٠٦ ) ومهيار الديلمي ( — ٤٢٨ ) وأبا العلاء المعري ( — ٤٤٩ ) ومن الأدباء الكتاب الثعالبي ( — ٤٢٦ ) والشريف المرتضى ( — ٤٣٦ ) وأمثالهم . فيكتبون ويجمعون طرائف الأدب التي يجعلون منها أنموذج الحسن وغاية الأدب . وهم في جملتهم آخر من يمثل النزعات الأدبية الخالصة . ومن يأتي بعدهم مقلدون في الجملة .

وتلقي الفلسفة أقوى سهم بقي في كنانتها في الشرق ، وإذا بأبي علي بن سينا ( — ٤٢٨ ) يعطيها صيغتها الأخيرة ، ويرسم لها حدودها ، ويفضي بها إلى مداها .

صفة العصر بالاجمال

فيما تقدم دلالة تامة على صفة العصر بالإجمال ، فرجال الحكم ومختلف الدول تعمل على توجيه الإسلام وجهته الأخيرة ، وتنصر أهل السنة ، فتنكمش الشيعة من الميدان العام حتى حين ، وتقضي السياسة على الاعتزال مع تشجيع الأشعرية ، وتطلق للمذاهب الفقهية السبيل في تحديد موقفها الأخير وعلاقتها بعضها ببعض ، فيكون تخاصم بينها يفضي بعد حين إلى استقلال كل مذهب بما فيه . ويشرع العلماء يحددون الخطوط الأخيرة للعلم ، يضعونه وضعاً يبدو فيه تاماً ، لايعتوره تغيير ولا تجوز فيه إضافة .

فالرجل إذن يعيش في عصر نزاع مستمر : فيه بعض الحرية وبعض التقييد ، فيه انكماش الحضارة بعد عظمتها ، وتبلور المذاهب بعد توسعها . لم يكن خير العصور وأفضلها . بل تبوأ مقعداً بين الذروة والسفح ، فلم يدرك سوابقه من أيام الحضارة السامية ، ولكنه بز لواحقه ، ثم كاد يختم حلقة الحسن . هو بالحق العصر الذي خط رسم الإسلام النهائي .

# حياة الخطيب في العلم والعلم

## الخطيب صورة للمحدثين

ليس في نفس الخطيب ثورة ، ترمي به في بركان من العواطف الصاخبة والتهور والمغامرة شأن أكثر الموهوبين ، إنما كان عالما ، انطلقت روحه في ميدان المعرفة ، تتغذى ، وتعيش بها ، فلا تكترث بمجد إلا ما أورثته ، وبلذة إلا ما أسعفت بها . ومن حاول أن يجد في ترجمته أكثر من سعي لإدراك العلم ، وصراع في سبيله ، وانصراف إلى نشره ، فقد أخفق ، وذهبت محاولته عبثاً .

وقد يخيل أن حياة كحياة الخطيب إنما هي جديرة بأن يطلع عليها محدث أو مؤرخ ، فيلتمس فيها معرفة ترجمة قرين له في العلم . على أن الأمر ليس كما تصوره ظواهره ، فتلك الحياة جميلة حيث هي هادئة ، ومثيرة للعواطف حيث هي رضية . وكل من قرأها وجد أسلوباً في المعيشة طريفاً ، عقدت فيها الآمال ، وسمت فيها النفس ، وعظم فيها الجد .

وما ذلك كل شيء ، فالخطيب ليس في حياته صورة لنفسه فقط ، بل هو مثال صادق لعدد كبير من جماعة المحدثين ، إذا لم نقل إنه رمز إلى ما تتطلبه كتب العلم الإسلامي من العالم .

ولئن ظهر في ثنايا تلك الحياة ضعف من صاحبنا ، فإنما يجب أن نحمل ذلك على ما جبلت عليه النفس من نقصان ، لا بد منه في عالم كثرت مغرياته ، وتجهم فيه أهله بعضهم ببعض . وذلك الضعف الذي لا كبير شأن له يجعل صورة الخطيب شيقة ، تأخذ من الحياة أصلها ، لا جامدة كما تصف كتب فضل العلم العالم ، وتطلب إليه أن يكون.

فإلى القارئ تلك الحياة بما فيها من مثال يعم ، وطرافة تجذب ، وضعف لا يعيب .

أصله وحداثته

يرجع أصل أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت بن مهدي « إلى عشيرة عربية ، تركب الخيول ، وتسكن الحَصّاصة » من أعمال الكوفة[١] . وكان والده أبو الحسن « أحد حفاظ القرآن ، قرأه على أبي حفص الكتاني ، وتولى الإمامة والخطابة على المنبر بدرزيجان » وهي قرية كبيرة جنوب غربي بغداد[٢] . تولى ذلك نحواً من عشرين سنة[٣] ، فلزمه لقب الخطيب ، ولعله انتقل منه إلى ابنه .

(١) انظر عن الحصاصة معجم البلدان لياقوت ٢ : ٢٧٤ .
(٢) معجم البلدان ٢ : ٥٦٧ .
(٣) تاريخ بغداد للخطيب ١١ : ٣٥٩ ، وعنه في تاريخ دمشق ١ : ٣٩٨ ، ومعجم البلدان ٢ : ٥٦٧ ، وتاريخ الاسلام للذهبي مما انتخله منه ابن قاضي شهبة ليجمع تراجم الشوافعة نسخة الظاهرية تاريخ ٥٧ ، ١٣٦ ٢ و ١٤٠ ٢ وسنرمز اليه بكلمة شهبة وتذكرة الحفاظ ٣ : ٣١٢ وطبقات الشافعية للسبكي ٣ : ١٢ .

وولد أبو بكر في غُزَيّة من أعمال وادي الملل في الحجاز[١] يوم الخميس لست بقين من جمادى الآخرة سنة ٣٩٢[٢] . وينشأ في حجر أبيه ، فيبث فيه هذا روح العلم والتقى ، ويهذبه بالقرآن ، ويعظه موعظته للناس في أيام الجمعة والعيدين .

اول سماعه

ثم يسلمه الى هلال بن عبد الله الطيبي ليعلمه القراءة والكتابة ، فيتأدب به[٣] ، ويقرأ القرآن ، ويتعلم القراءات[٤] . ولعله يظهر نباهة وفطنة ، فيطمح والده إلى إخراجه عالما ، فلا يبلغ احدى عشرة سنة ، حتى يحضه أبوه على سماع الحديث[٥] ، فيهرع في المحرم سنة ٤٠٣[٦]

(١) شهبة ١٤٠^٢ عن ابن النجار وانظر عن غزيه معجم البلدان ٣ : ٨٠٠ وعن الملل ٤ : ٦٣٧ .

(٢) تاريخ بغداد ١١ : ٢٦٦ ، تاريخ دمشق ١ : ٣٩٩ ، ابن حاتم المقدسي الأربعين ٨٧^١ ، وفيات الأعيان لابن خلكان ١ : ٢٧ ، شهبة ١٣٧^٢ ، وعن غيث بن علي الصوري في سؤال له وجهه للخطيب نفسه ارشاد الأريب لياقوت ٤ : ١٦ ، ولا عبرة لما قيل انه ولد سنة ٣٩١ في المنتظم لابن الجوزي ٨ : ٢٦٥ وابن حاتم ٨٥^٢ والبداية ١٢ : ١٠١ ونقطة ٥^١ عن ابن شافع .

(٣) تاريخ بغداد ١٤:٧٥

(٤) المنتظم ٨: ٢٦٥

(٥) شهبة ١٣٦^٢ سبكي ٣:١٢

(٦) تاريخ بغداد ٢٦٦:١١ ، تاريخ دمشق ٣٩٩:١ ، شهبة ١٣٧^٢

إلى جامع المدينة ببغداد [١] ويقعد مع الشيوخ والطلاب في حلقة محمد ابن أحمد بن رزقويه البزار ، فيكتب عنه املاء مجلساً واحداً [٢] ، ولا عجب إن رأينا أبابكر التلميذ لا يعود ثاني يوم إلى ذلك الدرس ، فهو لا يفهم مما يملي عليه الأستاذ الا نتفاً لا ترغبه في ذلك الدرس ، إنما العجب أنه تابع المجلس إلى آخره

درسه الفقه

على أنه لايفتر طويلاً ، فإن هجر كتابة الحديث ثلاث سنوات فهو لايفتأ يتردد إلى مجالس كبار الفقهاء كأبي حامد الاسفرائيني ( — ٤٠٦ ) « يراه غير مرة ، ويحضر تدريسه بمسجد عبد الله ابن المبارك في صدر قطيعة الربيع [٣] » ثم نراه يعود إلى مجلس أستاذه الأول في مبدأ سنة ست ، وقد بلغ من العمر أربعة عشر عاماً [٤] ، فيلازمه إلى آخر عمره سنة ٤١٢ [٥] . غير أن العلم

(١) حيث كان يدرس ابن رزقويه : تاريخ بغداد ١:٣٥١ و ٣:٣٥٦

(٢) تاريخ بغداد ١:٣٥١ والمنتظم ٨:٥ وذكرت المصادر الآتية أن أول سماعه سنة ٤٠٣ : المالكي في تسمية ما ورد به الخطيب دمشق ١٧ ، المنتظم ٨ : ٢٦٥ ارشاد ٤ : ٣٠ شهبة ١٣٧ ٢ ، البداية ١٢ : ١٠١

(٣) البداية ١٢:٣

(٤) تاريخ بغداد ١ : ٣٥١

(٥) المنتظم ٨ : ٥

الذي يأخذ على نفسه متابعته هو الفقه ، وكأنه اطلق العزم في أن يصبح فقيها ، فأقبل على دروس أحمد بن محمد المحاملي ، يتفقه عليه قبل غيره من الشيوخ [١] ، ولنعم الاختيار كان اختياره فقد كان المحاملي شيخ الشافعية ببغداد [٢] .

ثم يتنقل بين أساتذة الفقه ، فيقف عند أبي الطيب الطبري طاهر بن عبدالله ، فلا يتسنى له أن يرى «أكمل اجتهاداً وأشد تحقيقاً وأجود نظراً منه [٣]» فيلازمه سنين [٤] ، ويعلِق الفقه عنه [٥] مع شيء من الخلاف [٦] بين المذاهب الفقهية .

درسه للحديث

ويبدو لنا أنه درج في طريق الفقهاء ، وأنه بعد أن حضر ، وهو غلام ، مجالس التحديث سئمها ، ورغب عنها إلى الفقه . ولكنه يخطئنا في ظننا ، فهو لا يزال يختلف إلى حلقات الحديث ، وهو إذا أمّ عرضاً عكبرا قبلُ الثامنة عشرة من عمره هرع إلى

---

(١) تاريخ بغداد ٤ : ٣٧٢

(٢) شذرات الذهب ٣ : ٢٠٢

(٣) كما يقول أبو اسحاق الشيرازي: تهذيب الأسماء واللغات للنووي ١:٢:٢٤٧

(٤) التهذيب : النص السابق ، شذرات الذهب ٣:٢٨٤

(٥) مالكي ١٧ ، المنتظم ٨:٢٦٥ ، شهبة ١٣٨ [١] ، سبكي ٣:١٣

(٦) عن ابن النجار في شهبة ١٤٠ [٢] وتذكرة ٣:٣١٩

درس محدثها ، يكتب عنه[١] . ولا يزال يكتب عن شيوخ بغداد المعروفين ، لا يدع أحداً منهم ، حتى يزن يوماً الكفتين ، فإذا كفة الحديث ترجح على كفة الفقه ، وإذا الخطيب يقرّ العزم على أن يصبح محدثًا ، فيعمد إلى اسلوب المحدثين في جمع الحديث على المشايخ : ألا وهو الرحلة ، فيسافر عام ٤١٢ إلى البصرة ، ويسمع مشايخها[٢] ، ويمر في طريقه على الكوفة ، فيأخذ عمن فيها من المحدثين[٣] .

ظهور فضله ووفاة والده

حتى إذا قفل راجعاً إلى بغداد ، ظهر فضله في مجالس التحديث وتفرد ببعض ماجمعه روايةً من الحديث ، فافتقر استاذه أبو القاسم عبيد الله بن أحمد الأزهري إلى الاستشهاد ببعض رواياته في تصانيفه ، فسأله أن يقرأها عليه ، فجلس مجلس المحدث ، وقرأ على شيخه ما أراد[٤] . وكذلك تألق نجمه ، وصار الناس يقتبسون من علمه ، ورأى والده ثمار قصده ومناه ، فملئت نفسه فرحاً . ولكن ذلك لم يدم

---

(١) تاريخ بغداد ٨:١٠٤

(٢) تاريخ بغداد : ٤١٧:١ المنتظم ٢٦٥:٨ شهبة ١٣٦٢ ، سبكي ١٢:٣ ، تذكرة الحفاظ ٣١٢:٣

(٣) ارشاد ١٥:٤

(٤) حاتم ١٨٧ ، تبيين كذب المفتري لابن عساكر ٢٧١ ، ارشاد ٣٢:٤ ، شهبة ١٣٨١

طويلاً ، فقد توفاه الله يوم الأحد للنصف من شوال من السنة نفسها ، ومشى الخطيب في جنازة والده من يومه هذا إلى مقبرة باب حرب ، حيث واراه التراب [١] ، وبكى لفقده .

وختمت سنة ٤١٢ ، والخطيب يتيم ، مكسور النفس ، ولكنه محدث له علمه ، وشاب له مستقبله ، ورجل له عزمه .

عزمه على الرحلة

ولا يمل من جمع روايات مشايخ بغداد ، حتى يستنفدها جميعاً ، فإذا رمى إلى غيرها ، لم ير أمامه إلا الرحلة ، إما إلى مصر ، وفيها من المشايخ أصحاب الروايات العالية عبد الرحمن بن النحاس ( — ٤١٦ ) أو إلى نيسابور ، وفيها أصحاب الحافظ أبي العباس محمد بن يعقوب الأصم ( — ٣٤٦ ) وتلامذته ، وعددهم كبير ، فلا يدري أيتهما يقدم ؛ فيستشير شيخه البرقاني ، فيقول له : « إنك إن خرجت إلى مصر ، إنما تخرج إلى رجل واحد ، إن فاتك ضاعت رحلتك ؛ وإن خرجت إلى نيسابور ، ففيها جماعة ، إن فاتك واحد ، أدركت من بقي [٢] » فيتصوب رأي أستاذه ، ويعتمد على السفر إلى نيسابور .

---

(١) تاريخ بغداد ١١ : ٣٥٩

(٢) شهبة ١٣٧ [٢] ، تذكرة ٣ : ٣١٤ ، سبكي ٣ : ١٢

## كتاب البرقاني إلى أبي نعيم يوصي به

ويجهزه البرقاني برسالة إلى الحافظ أبي نعيم ، محدث أصبهان ، يقول في فصل منها ، يصف الخطيب والدرجة التي بلغها في طلبه الحديث ، ويوصي به :

«وقد رحل إلى ماعندك عمداً متعمداً أخونا أبو بكر أحمد بن علي ابن ثابت ، أيده الله وسلمه ، ليقتبس من علومك ، ويستفيد من حديثك ؛ وهو ، بحمد الله ، ممن له سابقة في هذا الشأن حسنة ، وقدم ثابتة ، وفهم به حسن ؛ وقد رحل فيه وفي طلبه ، وحصل له منه ما لم يحصل لكثير من أمثاله الطالبين له ، وسيظهر لك منه عند الاجتماع من ذلك مع التورع والتحفظ وصحة التحصيل ما يحسن لديك موقعه ، وتجمل عندك منزلته . وأنا أرجو ، إذا صحت منه لديك هذه الصفة ، أن تلين له جانبك ، وأن تتوفر له ، وتحتمل منه ما عساه أن يورده من تثقيل في الاستكثار ، أو زيادة في الاصطبار ، فقديماً حمل السلف عن الخلف ما ربما ثقل ، وتوفروا على المستحق منهم بالتخصيص والتقديم والتفضيل ، مالم ينله الكل منهم[١] »

---

(١) عن أبي القاسم النسيب في تاريخ دمشق ١ : ٤٠٠ وإرشاد ٤ : ٤١ وشهبة ١٣٨ ا

### رحلته إلى نيسابور وأصبهان

ويجد الخطيب رفيقاً في رحلته وفتى مثله ، يصغره بسنة ، وهو أبو الحسن علي بن عبد الغالب [١] ، فيسيران معاً ميممين شطر نيسابور في أوائل عام ٤١٥ ، والخطيب لما يبلغ الثالثة والعشرين من العمر . ويدخلان الري فخراسان [٢] ، ولا يستهل شهر ذي القعدة حتى يكون الخطيب في نيسابور [٣] . ولا ندري كم يمكث بها ، وكيف كان رحيله منها إلى أصبهان وهمذان والجبال والدينور ، وكم طال غيابه عن بغداد [٤] ، بل نعرف أنه لقي في رحلته مشايخ عديدين ، تلقف منهم علمهم ، فعاد راوية كبيراً .

### مطلع المجد في حياته

ها هو ذا في بغداد سنة ٤١٩ يُسمع أثبت شيوخه الحافظ أبا بكر البرقاني بعض ما يرويه [٥] ، ويذاكره بالأحاديث ، فيكتبها

---

(١) وفيات تاريخ الاسلام للذهبي ، أحمدية حلب ١٢٢٠ ، ٤٨^١ في وفيات سنة ٤٣١

(٢) تاريخ بغداد ١١٥:١١

(٣) تاريخ بغداد ٦٧:٥ وإن كان بلغ نيسابور قبل مستهل ذي القعدة فهو لم يكن قد بلغها في شعبان : تاريخ بغداد ٣٨٣:١٠

(٤) لعل قوله في تاريخ بغداد ٢٧٣:١١ يدل على أنه عاد إلى بغداد قبل عيد الفطر من سنة ٤١٧

(٥) المالكي ١٧ ، التبيين ٢٧١ ، شهبة ١٣٨^١

عنه شيخه ، ويضمنها جموعه ويقول في دروسه : حدثنا أبو بكر الخطيب ، وهذا حاضر يسمع ، ويذكر اسمه في دروسه ، وهو غائب أيضاً[1] . فلا جرم أن تلك السنة (٤١٩) كانت مطلع المجد في حياة الخطيب : أصبح فيها محدثاً ، يأخذ عنه الأكابر ، ويذكر اسمه في مجالس التحديث .

هوى هذا في السماع أم هوس

غير أن همته لا تفتر في طلب العلم ؛ وما ذا يطلب منه بعد الذي توفر له فيه ؟ يبدو لي أنه لم يعد في حاجة كبيرة إلى الازدياد من روايات جديدة أو قراءات ثانوية ، ويخيل إليّ أنه أصبح كجامع الكتب ، رأى خزانته ، وقد شحنت ، ولم يعد فيها محل لمزيد ، فأخرج أسفارها القديمة البالية ، فشرع يستبدلها بنسخ قيمة جميلة ، يباهي بحسن طبعها ، ونعومة ورقها ، وصورها الفاخرة . ولكن كيف يستبدل الخطيب علمه بجديد منه لا يختلف عن القديم بالمادة . إنْ ذلك إلاّ يكون بالسماعات العالية ، وهو أن يقرأ كتبه نفسها على شيخ ، سمعها بسند رجاله أقدم سماعاً أو أوثق روايةً . وخذ لك مثلاً صحيح البخاري ، أصحّ كتب الحديث ، يقرأه الطالب في أوائل دراسته ؛ والخطيب قرأه ولا شك فيما سبق له من السماع ،

(١) تاريخ دمشق ١:٣٩٨ و ١:٤٤٧ وشهبة ١٣٧[٢] وتذكرة ٣ : ٣١٤

ولكن إسماعيل بن أحمد الحيري ، شيخ من أهل نيسابور ، يؤم بغداد سنة ٤٢٣ في طريقه إلى الحج ، ويمنع القافلة السير إلى مكة فساد الطريق ، ويعرف الخطيب أن هذا الشيخ قد قرأ البخاري على أبي الهيثم الكشميهني بسماع قديم ، يوصله إلى مؤلفه بسند وثيق ، صغير الحلقة . ويكون الشيخ قد تهيأ للعودة إلى نيسابور . ولنسمع الآن الخطيب نفسه يتم سرد الحادثة فيطلعنا على هوى بالسماع ، يفوق هوى الكتب ، قال :

« ولما كان قبل خروجه بأيام ، خاطبته في قراءة كتاب الصحيح ، فأجابني إلى ذلك ، فقرأت جميعه عليه في ثلاثة مجالس ، اثنان منها في ليلتين ، كنت أبتدئ بالقراءة وقت صلاة المغرب ، وأقطعها عند صلاة الفجر ، وقبل أن أقرأ المجلس الثالث ، عبر الشيخ إلى الجانب الشرقي مع القافلة ، ونزل الجزيرة بسوق الجزيرة ، فمضيت إليه مع طائفة من أصحابنا ، كانوا حضروا قراءتي عليه في الليلتين الماضيتين ، وقرأت عليه في الجزيرة من ضحوة النهار إلى المغرب ، ثم من المغرب إلى وقت طلوع الفجر ، ففرغت من الكتاب ، ورحل الشيخ في صبيحة تلك الليلة مع القافلة [1] . » أترى هذا

---

(١) تاريخ بغداد ٦ : ٣١٤

هوى أم هوس ؟ إنه على كل حال توثق في العلم ، وكفى بذلك شرفاً .

### هل كان خطيباً

وتنقطع الأخبار عن حياة أبي بكر حتى سنة ٤٤٢ ، ولا ندري ماذا كان يفعل خلال خمس وعشرين سنة مضت ، وكيف كان يعتاش ، وهل كان له عمل رسمي ، يتقاضى عليه راتباً . وتذكر بعض النصوص[١] أنه كان خطيباً للجمعة والعيدين في بغداد[٢] ، والأصح أنه كان يخطب بقرية من قرى بغداد ، كما يقول النخشبي[٣] ، ولعلها درزيجان[٤] ، تلك القرية الواقعة جنوب غربي بغداد التي كان يخطب بها والده ، ولعله ورث هذه الوظيفة عنه[٥] .

### تصنيفه للتاريخ

ومهما يكن من ذلك فنحن نعرف — وذلك هو الأمر الخطير —

---

(١) إرشاد ٤ : ٢٩ وبداية ١٢ : ١٠٣

(٢) روضات الجنات ص ٧٨

(٣) في الارشاد ٤ : ٢٩

(٤) والذي يؤيد ذلك أن صاحب عقد الجمان القسم الثاني من الجزء ١٥ ص٢٧١ قال : « وسمي الخطيب لأنه كان يخطب بدرب ريحان » ، وكلمة درزيجان تصحف بدرب ريحان

(٥) وذكر في البداية ١٢ : ١٠٣ أنه كان خطيباً

أنه كان يعمل في تلك المدة على تصنيف تاريخ بغداد ، ذلك المؤلف الذي خلد اسمه ، وحفظ له أكبر شهرة في التاريخ . ولم تأت سنة ٤٤٤ التي خرج فيها للحج ، حتى كان لذلك المصنف اسمه وفصوله ، ومادته وأسلوبه ؛ فسوف نراه عما قريب يدعو الله عند زمزم أن يدرّس ذلك التاريخ ببغداد ؛ ويبدو لي أن من دوافع عزمه على الحج في تلك السنة أن يختتم تصنيف تاريخ بغداد بالحج ، شاكراً ربه على توفيقه به .

في طريقه إلى الحج

ويخرج من بغداد سنة ٤٤٤ في بريد السماوة [١] ، ويقص علينا أبو الفرج الإسفرائيني بعض سيرته في طريقه فيقول : « كان الخطيب معنا في طريق الحج ، فكان يختم كل يوم ختمة إلى قرب الغياب قراءة ترتيل ، ثم يجتمع عليه الناس وهو راكب يقولون حدثنا فيحدثهم [٢] . » ويكسب أجر إسماعهم للحديث ، ويكسبون علماً ومعرفة ؛ ويدخل دمشق سنة ٤٤٥ ، ثم صور فيسمع بهما على بعض الشيوخ [٣] .

---

(١) الانساب ٢٥٧[١]

(٢) حاتم ٨٨[١] ، تاريخ دمشق ١ : ٤٠٠ التبيين ٢٦٨ ، شهبة ١٣٨[٢] ، تذكرة ٣ : ٣١٦ سبكي ٣ : ١٤

(٣) شهبة ١٣٨[١] و ١٣٦[٢] و ١٣٧[١]

دعاؤه عند زمزم

ويدخل مكة ، فيقضي فريضة الحج ، ويتجه إلى زمزم ، فيشرب منـه ثلاث شربات ، ويسأل الله تعالى ثلاث حاجات ، آخذاً بقول رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) « ماء زمزم لما شرب له » : فالحاجة الأولى أن يحدث بتاريخ بغداد ببغداد ، والثانية أن يملي الحديث بجامع المنصور ، والثالثة أن يدفن عند قبر بشر الحافي [1] .

حبه للعلم ولبغداد

تلك هي الحاجات الثلاث التي ملكت على الخطيب نفسه ، فصورت لنا أمنيته في الحياة ، وأفهمتنا طبيعته . وإذا هو يفكر في علمه ، ويرغب في نشره ؛ ولكنه متعلق ببغداد وبحلقاتها وجموعها . فلا يتمنى أن تكون قراءته لتاريخ بغـداد إلا فيها [2] ، ولا يرجو أن تسمع رواياته في الحديث إلا في جامع المنصور منها ، حيث

---

(١) عن الخطيب نفسه في تاريخ دمشق ١ : ٣٩٩ ، إرشاد ٤ : ١٦ شهبة ١٣٨[٢] ، تذكرة ٣ : ٣٦٥ ، سبكى ٣ : ١٤ وهناك رواية ثانية وردت في المنتظم ٨ : ٢٦٩ وهي أن يدخل بغداد وأن يروي بها وأن يموت بها وأن يدفن بجنب بشر ويشابهها ما ورد عن ابن شافع في نقطه [١٥] ورواية ثالثة لعلها من وضع خصومه وهي أن يملك ألف دينار وأن يحدث بالتاريخ بجامع المنصور : بداية ١٢: ١٠٢ والرواية التي أثبتناها في المتن هي أصحها لأنها مروية عن الخطيب نفسه .

(٢) أنظر ما يقوله الخطيب في محاسن بغداد مما يفسر حبه لها : تاريخ بغداد ١ : ١١٩

أخذ عن خير شيوخه ؛ وحبه لبغداد إنما يرمز بطرف خفيّ إلى حبه للعلم ، فبغداد كانت ميدانه ومسرحه ، يجتمع فيها خير أهله وأحاسن أحبته ، يتبارون فيها بمعارفهم وحفظهم وتصانيفهم ؛ وجامع المنصور منها إنما تجتمع فيه خير حلقات الحديث .

ولا أنكر أن محبته لبغداد وجامع المنصور نبتت في نفسه وانفصلت عن حبه للعلم ؛ فقد نشأ فيهما ، واستحسن محاسنهما ، وتعشق أهلها ؛ فلا عجب أن فضلها وآثرهما . اسمع إلى أين وصل به الحب لها : دخل بعض الأكابر جامع دمشق أو صور ، ورأى حلقةً عظيمةً للخطيب ، والمجلس غاصّ ، يسمعون منه الحديث ؛ فصعد إلى جانبه ، وكأنه استكثر الجمع فقال له الخطيب : « القعود في جامع المنصور مع نفر يسير أحب إليّ من هذا »[1] . أحب الخطيب العلم ، وأحب به بغداد وجامع المنصور منها ، فدعا الله أن يهيّئ له بهما قراءة تاريخه وأحاديثه .

ذكره الموت

ثم لم ينس حين إتجاهه بالدعاء إلى الله تعالى أنه ميت ، فابتهل إليه تعالى بأن يهيّئ له جواراً حسناً بعد وفاته ، حتى إذا بعث الناس

---

(١) عن السمعاني في الارشاد ٤ : ٣٠ وانظر عن إشادته ببغداد وظرفها تاريخ بغداد ١ : ٤٤ — ٤٥

من قبورهم يوم القيامة ، خرج من قبره ، فوقع نظره على بشر بن الحارث الحافي ( — ٢٢٧ ) ، وهو رجل لم تدنس نفسه الدنيا [١] ، ووقع على مجاورين من خلاصة الأمة الإسلامية ، دفنوا بمقبرة باب حرب ، كأحمد بن حنبل وغيره من الأعلام [٢] . وفي كل من الحاجات الثلاث نبل وتقى وعفة . وسترى فيما يلي كيف حققها الله له .

## تزوده من مكة بالسماع وعودته إلى بغداد

ويسمع في مكة من القاضي أبي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي ، ويقرأ صحيح البخاري على كريمة بنت أحمد المروزية [٣] ؛ وكان سماعها لهذا الكتاب أقدم سماع في عصرها [٤] . ويعود إلى الشام ، فيمر على بيت المقدس [٥] ، ويكون في صور سنة ست وأربعين وأربعمائة [٦] ، ثم يعود إلى بغداد .

## تصحيحه للأحاديث في بغداد

وفي بغداد يحظى الخطيب عند رئيس الرؤساء شرف الوزراء بجمال

---

(١) أنظر ترجمته في تاريخ بغداد ٧ : ٦٧—٨٠ وتاريخ دمشق ٢ : ٢٨٢

(٢) انظر رواية الخطيب عن هذه التربة : تاريخ بغداد ١ : ١٢١

(٣) عن السمعاني شنهبة ١٣٨[١] وتذكرة ٣ : ٣١٤ وسبكي ٣ : ١٢ وعن غيره في المنتظم ٨ : ٢٦٥ وإرشاد ٤ : ١٨ وبداية ١٢ : ١٠٣

(٤) شذرات ٣ : ٣١٤

(٥) تاريخ بغداد ١٣ : ٢٢١

(٦) تاريخ بغداد ١١ : ٣٤

الورع أبي القاسم علي بن الحسن بن أحمد المعروف بابن المُسْلمة[١] وزير الخليفة العباسي القائم بأمر الله منذ سنة ٤٣٧ . وأظن الاتصال وقع بينهما عن طريق العلم ، فالخطيب يصرح بأنه كتب عنه ، ويصفه بأنه « اجتمع فيه من الآلات ما لم يجتمع في أحد قبله[٢] » . ويعتمد هذا الوزير على الخطيب « ويتقدم إلى الخطباء والوعاظ أن لا يرووا حديثاً حتى يعرض عليه ، فما صححه أوردوه ، وما ردّه لم يذكروه[٣] » وبذلك أصبح صاحب الحديث في بغداد ؛ وتلك مرتبة لم يدع الله عند زمزم أن ينالها فأتته عفواً .

## إملاؤه الحديث بجامع المنصور

ولعله لم يكن يبالي بها كثيراً ، بل كان همه أن يسمح له بالتحديث في جامع المنصور . وكان يعز عليه ، وتأبى عليه نفسه أن يسفك ماء وجهه عند أقرانه من أصحاب المراتب ، ليتوسطوا له عند الخليفة بذلك السماع ، وإذا هو يجد العلم خير سبيل لأمنيته : فقد وقع إليه جزء حديث ، فيه سماع الخليفة القائم بأمر الله ، وفتح الله عليه ، فأخذ الجزء ، ومضى إلى دار الخلافة ، وطلب الإذن

---

(١) المنتظم ٨ : ٢٦٥

(٢) تاريخ بغداد ١١ : ٣٩١

(٣) إرشاد ٤ : ١٩ شهبة ١٣٩[٢] ، تذكرة ٣ : ٣١٧

في قراءة الجزء ، فقال الخليفة : هذا رجل كثير الحديث ، وليس له في السماع من حاجة ، ولعل له حاجة أراد أن يتوصل إليها بذلك ، فسلوه ما حاجته ، فسئل فقال : حاجتي أن يؤذن لي أن أملي بجامع المنصور ، فتقدم الخليفة إلى نقيب النقباء بالإذن له في ذلك ، فحضر النقيب[١] » إلى جامع المنصور ، واجتمع الناس ، وأملى الخطيب الحديث ، وتمّ له ما دعا الله به ، دون أن يتخذ لذلك واسطة غير العلم ؛ وأي عار في أن يتخذ المرء أعزّ شيء عنده شفيعاً .

كشفه تزوير كتاب عن الرسول

ومازال يزداد طالعه إقبالاً ؛ وهاكَ حادثة جرت له سنة ٤٤٧[٢] ، تناقلتها الركبان ، وهجس بمثلها كبار العلماء ؛ ذلك أن[٣] « بعض اليهود أظهر كتاباً ادعى أنه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسقاط الجزية عن أهل خيبر ، وفيه شهادات الصحابة . وذكروا أن خط علي فيه ، وحمل الكتاب إلى رئيس الرؤساء ، فعرضه على الخطيب ، فتأمله ثم قال : هذا مزوّر . قيل له من أين قلت ذلك ؟ فقال من

---

(١) عن المؤتمن الساجي : تاريخ دمشق ١ : ٣٩٩ ، إرشاد ٤ : ١٦ ، شهبة ١٤٠[١] ، تذكرة ٣:٣١٨[١]

(٢) الاعلان بالتوبيخ ١٠

(٣) المنتظم ٨ : ٢٦٥ ، إرشاد ٤ : ١٨ ، شهبة ١٣٩[٢] ، تذكرة ٣ : ٣١٧ سبكي ٣ : ١٤

شهادة معاوية ، وهو أسلم عام الفتح ، [ في شهر رمضان سنة ٨ هـ ][1] وفتحت خيبر سنة ٧ ( في صفر )[2] ؛ وفيه شهادة سعد بن معاذ ، ومات يوم بني قريظة قبل خيبر بسنتين[3] ، فاستحسن ذلك منه ، ولم يجزهم على ما في الكتاب » . وكتب رئيس الرؤساء كتاباً « عن الخليفة القائم بأمر أمير المؤمنين في أخذ الجزية من اليهود الخيابرة ، وبيان حديثه فيما يدّعونه من إسقاطها عنهم ، وإبطال الكتاب الذي بأيديهم في ذلك[4] » . وكتب عليـه الأئمة أبو الطيب الطبري وأبو نصر ابن الصباغ ومحمد بن محمد البيضاوي ومحمد بن علي الدامغاني وغيرهم[5]

ولعمري كان ذلك نجاحاً باهراً ، ترك من بعده أكبر الأثر ، فقد اتخذه خليل بن أيبك الصفدي حجة في فضل علم التاريخ[6] ؛ ونعم الأثر هذا .

---

(١) سيرة ابن هشام ، مصر ١٣٤٦ ، ٢ : ٢٥٩

(٢) سيرة ابن هشام ٢:٢٣١

(٣) سيرة ابن هشام ٢:١٨٨

(٤) وضع هذا العنوان لنسخة ذلك الكتاب في ظهر تسمية الكتب التي ورد بها الخطيب دمشق ، ظاهرية مجموع ١٨:٨[2] ولكنا لم نر صورة تلك النسخة ولعلها أهملت أو سقطت .

(٥) الاعلان بالتوبيخ ١٠ — ١١

(٦) الوافي بالوفيات ، طبعة استانبول ١ : ٤٤ ويحاول ابن كثير أن يخفف من قيمة هذا الحادث فيقول إن « الخطيب سُبق إلى هذا النقد: سبقه محمد بن —

تصنيفه للكتب

وينقطع الخطيب إلى التصنيف في هذه المدة ، ينجز ما وعد به في تاريخ بغداد[1] ، ويهيء للبياض مصنفات أخرى ، ويعمل بجد متواصل ، وهمة علية ، ورغبة شديدة ؛ حتى إذا طلع هلال صفر سنة إحدى وخمسين وأربعمائة ، وجدناه قد أعدّ معظم مؤلفاته للنشر والتدريس[2] ؛ وناهيك بها فقد جاوزت عشرة آلاف ورقة أو سبعين مجلداً كما ستراه . وبعدُ أتراه كان يستطيع أن يعبأ بغير التصنيف والتدريس وتصحيح الأحاديث ، وتلك التصانيف جمة واسعة مهمة : ألا إنه حقاً لم يكن يعنى يومئذٍ إلا بالعلم ، وكفى بالعلم عنده مؤنساً وصديقاً .

---

— جرير كما ذكرت ذلك في مصنف مفرد » البداية ١٢ : ١٠١ ، ولكن لم يتح لنا أن نطلع على هذا المصنف فنعرف كيف سبقه والذي يبدو أن ابن جرير الطبري حج خصوماً له بحجج تاريخية كما فعل الخطيب ، وليس ذلك على مؤرخ الاسلام بعجيب .

(١) كمناقب الشافعي : تاريخ بغداد ٢ : ٧٣

(٢) ذكر المالكي تصانيف الخطيب حتى سنة ٤٥٣ فلم يغادر منها إلا الرباعيات ( رقم ٢٣ ) من فهرسة مصنفاته والمسلسلات ( رقم ٢٧ ) والنصيحة لأهل الحديث ( رقم ٣٥ ) وخطبة عائشة ( رقم ٥٠ ) والمنتخب من الزهد ( رقم ٥١ ) والتنبيه ( رقم ٥٣ ) وتمييز المزيد ( رقم ٦٢ ) وروايات السنة ( رقم ٦٦ ) سوى ما خرّجه من الأحاديث من روايات غيره ويكاد ذلك لا يعد تأليفاً .

قصته في حادثة البساسيري

وقد كان بلا ريب سعيداً بهدوئه ، منشرح الصدر إلى العمل ، ولكن أنى له أن ينعم بالطمأنينة الدائمة ، وليس نعيم إلا تلاه اضطراب . وهذه بغداد تشهد انقلاباً في السياسة خطيراً ، كادت تصيبه سهامه ، لولا أنه آثر الهزيمة على شرف الاضطهاد ، لئلا يحال بينه وبين العمل الذي خلق له .

وقصة ذلك أن رئيس الرؤساء أبا القاسم بن المُسلمة كان عقد عهداً بين الخليفة وطغرلبك لينجي العراق من خطر الفاطميين المداهم ، وأعطى هذا العهد ثمرته من الهدوء ، حتى كانت سنة ( ٤٥٠ ) ، وفيها اضطرّ طغرلبك إلى الخروج الى مقاتلة الموصلي ، أحد العاصين ؛ وفرغت بغداد من حاميتها ، وكان أبو الحارث أرسلان البساسيري ، مقدم الأتراك ببغداد ، قد غادرها مذ دخلها طغرلبك سنة ٤٤٧ ، وجمع حوله عدداً من المخالفين ، ودعا للمستنصر الفاطمي ؛ فلما سمع بخروج طغرلبك ، اتجه الى بغداد [١] . ولنستمع الآن الى الخطيب يقص علينا مشاهداته في ذلك ، قال : فلما كان يوم الجمعة السادس من ذي القعدة ، تحقق الناس كون البساسيري بالأنبار ، ونهضنا الى صلاة الجمعة بجامع المنصور ، فلم يحضر الإمام ، وأذّن المؤذنون

---

(١) Encyclopédie ds l'Islam I. 685 et II. 430

بالظهر ، ثم نزلوا من المأذنة ، فأخبروا أنهم رأوا عساكر البساسيري حذاء شارع الدقيق ، فبادرتُ الى أبواب الجامع ، فرأيت من الأتراك البغداديين أصحاب البساسيري نفراً يسيراً ، يسكّنون الناس ، ويعدون إلى الكرخ ؛ فصلى الناس في هذا اليوم بجامع المنصور ظهراً أربعاً من غير خطبة ... فلما كان يوم الجمعة الثالث عشر من ذي القعدة ، دعا البساسيري لصاحب مصر في الخطبة ... فلما كان يوم الاثنين ٢٨ من ذي الحجة ، شهر الوزير على جمل ، وطيف به في محال الجانب الغربي ، ثم صلب حياً بباب خراسان[1] » .

اضطهاد بعض الحنابلة له

ونشهد بهذه المناسبة عنصراً في حياة الخطيب ، لم يتسنّ لنا بعدُ التعرّض له : ألا وهو علاقته بالحنابلة ؛ ولسنا ذاكرين هنا إلا ما استحكمت صلته بما نحن بصدده ، على أن نستوفي البحث فيما بعد .

كان الجفاء قد استحكم بين الخطيب وبعض الحنابلة ، على أثر اتهامهم إياه بالميل إلى البدعة ، واضطهادهم له . وتعرض الخطيب لعلمائهم بتاريخ بغداد راوياً أخباراً عنهم ، عدوها تحاملاً عليهم ، وإيقاعاً بهم ؛ فتربصوا به الدوائر ، حتى كانت فتنة البساسيري ، وصلب الوزير ابن المسلمة صديقه ؛ فسنحت لهم الفرصة ، فصاروا

---

(١) تاريخ بغداد ٩ : ٣٩٩ — ٤٠٣ وعنه ابن القلانسي ٨٨ — ٨٩

يؤذونه بجامع المنصور في أوائل سنة ٤٥١[1] بشتى الأساليب ، ويكيدونه بما يعجز عن رده وهاك بعض ما كانوا يفعلونه[2] :

« جاء جماعة من الحنابلة يوم الجمعة الى حاقة الخطيب بجامع المنصور ، فناولوا حدثاً صبيح الوجه ديناراً ، وقالوا له : قف بإزائه ساعة ، وناوله هذه الرقعة ، فناوله الصبي ، وإذا فيها : « ما تورع ناقل القصة من ذكره » ، وكانوا يعطون السقاء قطعة يوم الجمعة ، فكان يقف من بعيد بإزائه ، ويميل رأس القربة ، وبين يديه أجزاء فيبتل الجميع ، فتتلف الأجزاء ؛ وكانوا يطينون عليه باب داره في الليل ، فربما احتاج الى الغسل لصلاة الفجر فتفوته »

هجرته إلى دمشق

ويخشى تفاقم الحال ، ولا ناصر له ، والسلطان بيد من لا يأمن على نفسه منه ، فيستتر ويخرج من بغداد[3] ، يوم النصف من صفر سنة إحدى وخمسين[4] مصطحباً تصانيفه وكتبه وسماعاته ، ميمماً شطر

---

(١) إرشاد ٤ : ١٥

(٢) يقص علينا ذلك ابن طاهر (تأنيب الخطيب لمحمد زاهد الكوثري ١٢ ) وبالرغم من أن ابن طاهر ضعيف عندنا حين يتعرض للخطيب لأنه كان وقاعة فيه فاننا لا نرى هنا له غاية في الوضع إلا مايغمز به الخطيب من التفاته إلى الصبي

(٣) المنتظم ٨ : ٢٦٦ ، إرشاد ٤ : ١٥

(٤) تاريخ بغداد ٩ : ٤٠٣ عنه ابن القلانسي ٨٩ ، وذكر خروجه دون ـ

دمشق ، ناوياً أن يستوطن بها . وبلغها سالماً ، وانتهى إليه بها في عيد الأضحى أن الخليفة تخلص من محبسه[١] ، وكان قد رآه أسيراً .

ثم قتل البساسيري ، وطيف برأسه ببغداد في يوم الخامس عشر من ذي الحجة[٢] ، بعد رجوع طغرلبك إليها ؛ وبذلك عادت المياه إلى مجاريها ، وكان قد استقر في دمشق ، واتخذ المأذنة الشرقية من جامعها مسكناً له ، فلم يفكر بالعودة ، مع أن دمشق يومئذ تابعة للفاطميين ، والأذان بها « حيّ على خير العمل »[٣]

## تدريسه في الجامع الأموي

واتخذ لنفسه حلقة كبيرة بجامع دمشق ، يجتمعون في بكرة كل يوم ، ويحدّث فيها بعامة كتبه وتصانيفه التي أحضرها معه[٤] ؛ ويحضر قراءة كتب الأدب منها الخطيب التبريزي ، صاحب شرح الحماسة المشهور ( وكان يسكن منارة الجامع[٥] ) ، وكان أبو بكر

---

— تفصيل السمعاني في شبهة ١٣٨[١] وابن شافع في شبهة ١٣٨[٢] وتذكرة ٣ : ٣١٥ ونقطة ، ٥[١]

(١) تاريخ بغداد ٩ : ١٠٣

(٢) تاريخ بغداد ١١ : ٣٩٢

(٣) الأسنوي ، طبقات الشافعية ظاهرية تاريخ ٤٦ في أواخر الربع الأول

(٤) تجد تعدادها جميعاً في مصادر ثقافته وذكر تدريسه لها ، شبهة ١٣٧[١]

(٥) إرشاد ٤ : ٣٢ — ٣٣ شبهة ١٣٨[٢] تذكرة ٣ : ٣١٥

الخطيب يرفع صوته في التدريس ، حتى يسمعه من في آخر الجامع[1] ، فكان صوته يدوي فيه ، وعلمه ينتشر ، وفضله يظهر .

إلفته الإقامة في دمشق

ويكثر طلابه ، ويتعدد أصحابه ، ويأنس الى دمشق ، فيختلف إلى غوطتها الخلابة ، ويؤم بساتينها ، لا للسمر وإضاعة الوقت ، بل لقراءة كتب الأدب الظريف ، وصحائف الحكمة الطريفة ، في ظل من الأشجار ، وقرب الأنهار ، مما يبعث في النفس الشعر الرائع ، والقول الخلاب ، والحكمة المستطرفة ، ويقرأ كتابه في «التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم» في هذا الجو الناعم ، ويكتب على النسخة أين قرأها ، وعلى من تلاها[2] . ويتصل في مجالس العلم برؤوس المدينة وأمرائها ، غير غافل عن سماع الحديث ، إن استطاع إليه سبيلاً ، فيسمع قطعاً من موطأ الإمام مالك بمحضر «الأمير الجليل ناصر الدولة وسيفها ذي المجدين أبي علي الحسين بن حمدان ، والقاضي أبي البركات عمرو بن محمد البراني (؟) المالكي ، في مجالس من سنة إحدى وخمسين واثنتين وخمسين وأربعمائة ،

---

(١) عن التبريزي . شهبة ١٣٨ ، وتذكرة ٣ : ٣١٥ وبداية ١٢ : ١٠١

(٢) انظر هذا الكتاب طبعة القدسي ص١٠٥

ويوقع السماع بخطه[1] ولا يمضي عليه زمن ، حتى يدخل في أهل المدينة ، فيعدُّه الذهبي محدث الشام ، كما يعده محدّث العراق[2] .

سعاية به

ولا يزال على ما وصفنا ، حتى يحلّ شهر صفر من سنة ٤٥٩ ، وإذا النحس يفاجئ ، وسوء الطالع يداهم ، ويضطر الخطيب إلى الخروج من دمشق على أسوء مما خرج عليه من بغداد ، مهدّداً بالقتل ، معرضاً للإهانة . وذلك أنه كان بين الكتب التي سمعها ، وورد بها دمشق ، فضائل الصحابة لأربعة لأحمد بن حنبل ، وفضائل العباس لابن رزقويه[3] ، ولعل إنساناً سأله قراءتها عليه ، أو أنه اتفق له تدريسها عرضاً ، دون أن يقدر ما لذلك من الأثر ، فعرف تدريسه لذينك الكتابين الحسين بن علي المعروف بالمقري الدمشقي ، وكان شيعياً متعصباً ، « فسعى بأبي بكر إلى أمير الجيوش ( - ٤٨٨ ) وقال : هو ناصبي [ أي متعصب على علي بن أبي طالب ] ، يروي فضائل الصحابة وفضائل العباس في الجامع » ، فأمر أمير الجيوش بالقبض عليه[4] .

---

(١) نسخة الظاهرية مجموع ٤٣ (١)

(٢) تذكرة ٣ : ٣١٢

(٣) انظر تسمية ما ورد به دمشق رقم ٤١٢ ، ٤١٤

(٤) تاريخ دمشق ٤ : ٣٤٩ وعنه الغاية في طبقات القراء ١ : ٢٤٦ ويقول ابن كثير في البداية ١٢ : ١٠٢ : اتفق يوماً أنه قرأ فضائل العباس فثار عليه —

تحامل عليه

إلى هنا ينتهي ما ذكره من الحادثة الموثوقون بروايتهم لأخبار الخطيب . ويتابع ابن طاهر سرد الحادثة ، ولكنه يُسبق ذلك بطعن في أبي بكر نرفضه لأنه كان وقاعاً به مضعفاً كما سترى[1] ، فيقول : كان سبب خروج أبي بكر الخطيب من دمشق إلى صور أنه كان يختلف إليه صبي مليح ... فتكلم الناس في ذلك ، وكان أمير البلد رافضياً ، فبلغته القصة ، فجعل ذلك سبباً للفتك به » . وهو افتراء وباطل ، ويزيد من ينقلون هذه الحادثة عن ابن طاهر هذا كلاماً يدخلونه فيما رواه ، فيقولون : إن « الوالي هجم عليه ، فرأى الصبي عنده ، وهما في خلوة »[2] مع أن الملك المعظم نقل الحادثة من خطه ، فلم يرو هذه الزيادة المضافة إلى الافتراء[3] . ونعوذ بالله من التعصب المبطل للحق .

القبض عليه

وهاك بقية القصة كما رواها ابن طاهر نفسه ، ولم يغمز الخطيب

---

— الروافض وأتباع الفاطميين وأرادوا قتله . ويذكر الحادثة دون اسم الساعي شهبة ١٤٠ ١ وتذكرة ٣ : ٣١٨ وقد ورد في هذه المصادر « أخبار خلفاء بني العباس مكان فضائل العباس » وهو الأصح ولذلك أثبتناه في المتن .

(١) انظر ما نقوله في ذلك حين وصف الخطيب في اخلاقه

(٢) عن سبط ابن الجوزي في تأنيب الخطيب

(٣) الرد على أبي بكر للملك المعظم

فيها بشيء ، فجاز قبولها ، قال : « وكان صاحب الشرطة سنياً ، فقصد الخطيب تلك الليلة مع جماعة ، ولم يمكنه أن يخالف الأمير فأخذه ؛ وقال : قد أمرت فيك بكذا وكذا ، ولا أجد لك حيلة إلا أن أعبر بك على دار الشريف ابن أبي الجن العلوي ، فإذا حاذيت الباب ، اقفز وادخل الدار ، فأرجع إلى الأمير فأخبره بالقصة » .

### شريف علوي يجيره وينقذه

ووجد الخطيب نفسه وقد حط به الدهر مرة أخرى ، يصيبه بتعصب المتعصبين ، وكيد الجاهلين ، فتعوذ بالله ، وفكر بما يعرضه عليه صاحب الشرطة ، فوجده قريباً من نفسه فقد كان اتصل بالشريف أبي القاسم علي بن إبراهيم بن العباس بن أبي الجن بنسب العلم ، فانتقى له فوائد منتخبة صحاحاً في أجزاء عديدة[1] ، بعد معرفة وطيدة وصحبة ، فكان من حقه عليه أن يدافع عنه ، أو أن يدفع الشر عن العلم الذي يحمله ، وكان من رؤساء البلدة ، وممن لا تصل إليهم يد الأمير .

وقبل الخطيب شاكراً عرض صاحب الشرطة ، وسار معه

---

(١) منها الجزء الرابع عشر في دار الكتب الظاهرية بمجموع ٤٠ (٨) وورد اسم ابن أبي الجن في النجوم الزاهرة ١٠٢ كما يلي أحمد بن علي بن محمد القاضي أبو الحسين جلال الدولة الشريف العلوي ونسب إليه المؤلف هذه الحادثة قائلاً : وهو الذي أجار الخطيب البغدادي لما أمر أمير دمشق بقتله . وذكره في وفيات سنة ٤٦٨

متكلاً على الله «وكان الشريف ينزل في دار العقيقي»[١]، حيث تقوم دار الكتب الظاهرية اليوم، ولا تبعد عن الجامع إلا خطوات، فسار حتى حاذى الباب، و «دخل دار الشريف، فأرسل الأمير إلى الشريف أن يبعث به»، وكان هذا قد فكر في حيلة ينجيه بها، فما وجد إلا أن يأخذ بالتقية، فيدعي سوء الظن بالخطيب وبآرائه، ويعتصم بالخطر الذي ينجم على الشيعة ببغداد، إن قتله «فقال: أيها الأمير! أنت تعرف اعتقادي فيه وفي أمثاله؛ وليس في قتله مصلحة. هذا رجل مشهور بالعراق، إن قتل، قتل به جماعة من الشيعة، وخربت المشاهد، قال: فما ترى؟ قال. أرى أن يخرج من بلدك، فأمر بإخراجه»[٢] وانتهت الحادثة دون أن يمس الخطيب بأذى، وكان علمه ومكانته الحيلة في خلاصه. حدث ذلك في صفر سنة ٤٥٩[٣]

---

(١) بداية ١٢ : ١٠١ ونجوم ٥ : ٨٠

(٢) إرشاد ٤ : ٣٥، الرد على أبي بكر ١٧٧، شهبة ١٤٠[١] تذكرة ٣ : ٣١٨، ابن القلانسي ١٠٥ — ١٠٦

(٣) مالكي ٢٧ وذلك خلافاً لما قاله في الارشاد ٤ : ١٥ وشهبة ١٣٨[١] من أنه خرج سنة ٤٥٧ فقد ذكر أبو القاسم إسماعيل بن أحمد السمرقندي خبراً أنبأه به الخطيب من لفظه بدمشق في شهر ربيع الآخر من سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، (مجموع في الظاهرية برقم ١٧، من ١٤٥[٢]) فيكون خروجه من دمشق بعد ذلك كما روى المالكي نقلاً عن الاكفاني

### إقامته بصور واختلافه إلى القدس

وخرج الخطيب من دمشق في يوم الاثنين الثامن عشر من صفر سنة ٤٥٩ قاصداً صور ، وكانت ثاني بلاد الشام في الحديث بعد دمشق ، وأي بلد يقصد غير الذي يفيد فيه من علمه ، ويتصل فيه بأهل المعرفة والحديث ؟ وأين يقيم ، إذا لم يكن في جوار ذلك العلم ؟ أقام بجامع صور [١] ، وتعرّف على عز الدولة الموصوف بالكرم ، وتقرب منه ، فانتفع به وأعطاه مالاً كثيراً [٢] وطفق يتلو دروسه في العلم ، ويفقه فيه طلابه . وكان يتردّد الى البيت المقدّس للزيارة ، ويعود إلى صور [٣]

### نهوضه إلى بغداد

وفي سنة اثنتين وستين وأربعمائة يهيج به الشوق إلى وطنه ، وكأنه شعر بدنوّ أجله ، وكان قد أتمّ السبعين من العمر ، فعزم على الرحيل إلى بغداد ، وتكلم في ذلك مع تلميذه وصاحبه التاجر المحدّث عبد المحسن بن محمد بن علي بن أحمد الشيحي ، نعرض

---

(١) شهبة ١٣٨[١] و ١٤٠[١] وتذكرة ٣ : ٣١٨

(٢) عن ابن شافع : شهبة ١٣٨[٢] ، تذكرة ٣ : ٣١٥ نقطة ٥[١]

(٣) المالكي ٢٧ ، إرشاد ٤ : ١٥ وعن السمعاني : شهبة ١٣٨[١] و ١٤٠[١] تذكرة ٣ : ٣١٨

هذا نفسه عليه ليحمله ، ويتعهد له أسباب سفر طويل متعب ، فخرج بعهدته[1] في شعبان من السنة المذكورة[2] ، يتبعان الساحل السوري ، فدخلا طرابلس ، وبقيا فيها أياماً يسيرة .

مناظرته بطرابلس مع شيخ شيعي

وكانت طرابلس في حكم بني عمار المتشيعة . ولم يثن ذلك الخطيب ، بعد الذي حدث له مع الشيعة ، عن استخدام علمه في مناظرتهم بديارهم ؛ فهو بطل يبرز الى الميدان كلما دُعي إليه . وها هو ذا يناظر الحسين بن بشر بن علي الأطرابلسي المعروف بالقاضي ، وهو شيعيّ صاحب خطب ، يضاهي بها خطب ابن نباتة . ويقول الكراجكي الشيعي تلميذ المفيد إنه حكم له على الخطيب بالتقدم في العلم[3] . ولو قال إنه حجه بهذه المناظرة ، لكان أقرب إلى التصديق ، فلنقف عند قوله حتى يأتينا خبر ذلك عن مصدر آخر يؤيده[4] .

---

(١) المنتظم ٩ : ١٠٠ وبداية ١٢ : ١٥٣ وذكر شهبة ١٣٨ آ أنه كان عديله

(٢) عن غيث الأرمنازي : مالكي ٢٧

(٣) لسان الميزان ٢ : ٢٧٥ ويسمع بطرابلس بعض رجال العلم فينقل عنهم : تاريخ بغداد ١ : ١١٢ — ١١٤

(٤) للكراجكي في كتاب كنز الفوائد طبع الحجر مناظرات عديدة تدور حول عصمة الأئمة ودحض القياس ويدعي أن له النصر فيها جميعاً .

في حلب ووصوله إلى بغداد

ثم توجه إلى حلب ، فأقام بها أياماً يسيرة ؛ ولم يدعها دون أن يحدث بها ما شاء الله له ؛ ثم قصد بغداد على الرحبة[١] ، فكان له طول الطريق في كل يوم وليلة ختمة[٢] . ووصل إلى بغداد في ذي الحجة من سنة ٤٦٢ ، بعد فراق دام إحدى عشرة سنة . وكان مسروراً بعودته ، منشرحاً براحته في طريقه وعناية الشيحي به ؛ وفكر بأن يشكر له فضله هذا ، فوجد أن خير ما يجزيه به هدية نسخة من تاريخ بغداد له بخطه ، فأهداه إياها وقال : « لو كان عندي أعزّ منه لأهديته له[٣] » وصدق : فلا أعزّ على الإنسان من كتاب وقف حياته على جمعه ، وصادف بأسبابه القبول عند كثير من الناس ، والمكروه عند آخرين منهم .

تحديثه بتاريخ بغداد في جامع المنصور وفي منزله

واستقرّ في حجرة بباب المراتب بدرب السلسلة جوار المدرسة

---

(١) عن السمعاني : شذرة ١٣٨' و ١٤٠' وعن غيره إرشاد ٤ : ١٥

(٢) عن الشيحي شذرة ١٣٨' وتذكرة ٣ : ٣١٦

(٣) المنتظم ٩ : ١٠٠ ولعل هذه النسخة هي التي وقفت بالمستنصرية وهي في اثني عشر مجلداً ( انظر مخطوطة الظاهرية حديث ٢٨٥ ، ١٤٠' )

النظامية[1] ، وصار يجتمع إليه العلماء في ذلك المنزل ، فيحدثهم بتاريخ بغداد ، وكان بينهم مكي بن عبد السلام المقدسي وأبو الفتح نصر بن إبراهيم الفقيه وغيرهم من المشايخ[2] . ويدعي ابن شافع أن البغداديين سمعوه منه في المدرسة النظامية[3] ولعله سقط من نصه قوله « في حجرة تلي » وذلك قبل قوله المدرسة النظامية ، وصار يحدث بذلك التاريخ أيضاً بجامع المنصور ، يقرأه عليه بحضرة الشيوخ والطلاب أبو منصور ناصر بن محمد بن علي التركي ( ٤٣٧ — ٤٦٨ )[4] . وحدث أيضاً بسنن أبي داود وغير ذلك[5] .

مرضه وتوزيع ثروته

تلك هي الحوادث التي جرت له قبل أن يصاب بما ينهي حياته ، وهي حياة طويلة أسعده الله فيها بالعلم ، ورفع مقامه بين الناس . ومرض في نصف رمضان من سنة ٤٦٣ ، وكأنه شعر بدنوّ أجله ، فلم يشأ إلا أن يختتم حياته بعمل صالح ، يودّعها به . وكان قد أحضر

---

(١) التبيين ٢٦٩ ، المنتظم ٨ : ٢٦٩ ، بداية ١٢ : ١٠٣

(٢) كما يستدل على ذلك من حلم رآه أولهم : التبيين ٢٦٩ ، شبهة ١٤١ ، تذكرة ٣ : ٣٢١ سبكي ٣ : ١٥

(٣) في نقطة ، ٥

(٤) المنتظم ٨ : ٣٠١ ، البداية ١٢ : ١١٤

(٥) المنتظم ٨ : ٢٦٦

معه من الشام ثروة من الثياب والذهب « وما كان له عقب [1] ، فكتب إلى القائم بأمر الله : إني اذا مت يكون مالي لبيت المال ، فأذن لي حتى أفرق مالي على من شئت ، فأذن له [2] » فعهد إلى أبي الفضل بن خيرون بأن يفرق ثروته من الذهب ، وقدرها مايتا دينار ، على المحدثين [3] . وعلى من يفرق ثروته ، إذا لم يكن عليهم فهو رئيسهم وصاحبهم ، عاش عيشتهم ، وأدرك حاجتهم للمال ينفقونه في طلب العلم .

تلميذ يشكو إليه حاله

هـذا قارئ التاريخ على الخطيب بجامع المنصور ناصر بن محمد يقص عليك ما أصابه من ذلك الذهب ، قال : « كنتُ أدخل على الخطيب وأمرضه ، فقلت له يوماً : يا سيدي إن أبا الفضل بن خيرون

(١) يخالف هذا القول نص ورد في الأنساب للسمعاني ١٨٢ [٢] يخيل منه أن الخطيب جد السمعاني ولكن هـذا القول أثبت فلم نر فيما ترجم به السمعاني ما يؤيد ذلك : انظر بصورة خاصة تذكرة ٤ : ١٠٧ والأنساب في مادة سمعاني

(٢) المنتظم ٨ : ٢٦٩ ، إرشاد ٤ : ٢٧ شهبة ١٤١ [١] تذكرة ٣ : ٣١٦ ، سبكي ٣ : ١٤

(٣) عن ابن خيرون : إرشاد ٤ : ٤٥ شهبة ١٤٩ [١] تذكرة ٣ : ٣٢٠ ، سبكي ٣ : ١٥ . وعن ابن شافع أنه « تصدق بجميع ماله وهو مايتا دينار على أصحاب الحديث والفقهاء والفقراء في وصيته » : نقطة ٥ [١] وما ورد عن ابن خيرون يبدو أضبط .

لم يعطني شيئاً من الذهب الذي أمرته أن يفرقه على أصحاب الحديث ؛ فرفع رأسه من المخدة وقال : خذْ هذه الخرقة ؛ بارك الله لك فيها ؛ فكان فيها أربعون ديناراً ، فأنفقتها مدةً في طلب العلم»[١] .

وقفه كتبه ووفاته

وأوصى أن يتصدق بجميع ما يخلفه من ثياب وغيرها[٢] . ووقف جميع كتبه وتصانيفه على المسلمين[٣] ، وسلمها إلى أبي الفضل بن خيرون ، فكان يعيرها ، فصارت إلى ابنه الفضل ، فاحترقت في داره[٤] . وفي غرة ذي الحجة أي بعد شهرين من ابتداء مرضه ، اشتدّ به الحال وأيس منه . . . وتوفي رابع ساعة من ضحى يوم الاثنين سابع ذي الحجة[٥] .

---

(١) عن ابنه الحافظ محمد : شهبة ١٤١[١] ، تذكرة ٣ : ٣٢٠

(٢) حاتم ٨٧[٢] ، ونقطة ٥[١] عن ابن شافع

(٣) حاتم ٨٧[٢] نقطة ٥[١] ، وفيات الأعيان ١ : ٢٧

(٤) المنتظم ٨ : ٢٦٩ ، إرشاد ٤ : ٢٧ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، دار الكتب الوطنية باريس ١٥٠٦ ، ١٣٣[١] وذكر السبكي ٣ : ١٣ أن بعض مصنفاته احترق بعد موته قبل أن يخرج إلى الناس . وقال الذهبي في تاريخ الاسلام ، أحمدية حلب ١٢٢٠ ، ١٤٨[١] في حوادث سنة ٤٨٣ أن دار أبي الفضل بن خيرون نهبت في هذه السنة

(٥) عن مكي المقدسي : تاريخ دمشق ١ : ٤٠١ ، إرشاد ٤ : ٤٤ — ٤٥ ، شهبة ١٤١[١] ، تذكرة ٣ : ٣٢٠ وانظر المنتظم ٨ : ٢٦٦ ونقطة ٥[١]

وسعى أصحابه ، ينفذون وصيته بأن يدفن إلى جانب بشر الحافي ، ليتمّ له ما دعا الله به عند زمزم ، فوجدوا قبراً أعدّه أبو بكر أحمد بن علي الطريثيثي الصوفي [١] ، وكان يمضي إليه في كل أسبوع مرة ، وينام فيه ، ويقرأ القرآن كله ، ويدعو ؛ وذلك منذ عدة سنين ، فمضى أصحاب الحديث إليه ، وسألوه أن يدفنوا الخطيب في قبره ، وأن يؤثره به ، فامتنع وقال : «موضع قد حفرته ، وختمت فيه عدة ختمات ، ولا أمكن أحداً من الدفن فيه ، وهذا مما لا يتصور» ، فلما رأوا ذلك جاؤا إلى أبي سعيد الصوفي [٢] ، صاحب الرباط الذي كان يسكنه أبو بكر بن زهراء هذا ، وذكروا له ذلك ، فأحضره فقال : أنا لا أقول لك أعطهم القبر ، ولكن أقول لك : لو أن بشراً الحافي في الأحياء ، وأنت إلى جانبه ، فجاء أبو بكر ليقعد دونك ، أكان يحسن بك أن تقعد أعلى منه ؟ قال : لا ! بل كنت أقوم وأجلسه مكاني ، قال : فهكذا ينبغي أن يكون الساعة في حالة الموت ، فإنه أحقُّ به

---

(١) انظر ترجمته في سبكي ٣ : ١٦ وشذرات ٣ : ٤٠٥

(٢) لعله أبو سعد أحمد بن محمد الزوزني أحد من حدثوا عن الخطيب ، ولعل الرباط هو المعروف برباط الزوزني .

منك ، فطاب قلبه ، فأذن لهم[1]» ، وعاش بعد ذلك أربعاً وثلاثين سنة .

جنازته

وتأخر بهذا السعي إخراج جنازته إلى اليوم الثاني ، فأخرج بكرة الثلاثاء من حجرته ، وعبروا به إلى جامع المنصور في الجانب الغربي للصلاة عليه . وكان بانتظار جثمانه في ذلك الجامع القضاة والأشراف والنقباء والشهود والفقهاء وأهل العلم والصوفية والمستورون والعامة وخلق عظيم ؛ وتقدّم القاضي أبو الحسين ابن المهتدي بالله ابن العزيز ، فصلى بالناس ، وكبر عليه أربعاً على باب المقصورة ؛ ثم حملت جنازته ، وعبرت بالكرخ ، ومعها ذلك الخلق العظيم ؛ وبين يدي الجنازة جماعة ينادون : « هذا الذي كان يذب عن رسول الله ، هذا الذي ينفي الكذب عن رسول الله ، هذا الذي كان يحفظ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم » وكان الناس يتسابقون إلى حمل النعش تبرّكاً بصاحبه ؛ وكان فيمن حمله شيخ الخطيب الإمام أبو إسحاق الشيرازي رئيس الشافعية ببغداد ، وكان عمره

---

(١) عن ابن صاحب الرباط : تاريخ دمشق ١ : ٣٩٩ ، المنتظم ٨ : ٢٦٩ ، إرشاد ٤ : ١٧ وباختلاف قليل : وفيات الأعيان ١ : ٢٧ شهبة ١٤١ ا تذكرة ٣ : ٣٢٠ شذرات ٣ : ٣١٢ وبتلخيص ، بداية ١٢ : ١٠٣

عند أبي بكر الخطيب في منزله بباب المراتب لقراءة التاريخ على العادة ، فكأن الخطيب جالس ، والشيخ أبا الفتح نصر بن إبراهيم الفقيه عن يمينه ؛ وعن يمين الفقيه نصر رجل جالس لم أعرفه ، فسألت عنه ، فقلت من هذا الرجل الذي لم تجر عادته بالحضور معنا ، فقيل هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ليسمع التاريخ ، فقلت في نفسي هذه جلالة لأبي بكر ، إذ يحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه ، وقلت في نفسي : وهذا أيضاً ردٌّ لقول من يعيب التاريخ ، ويذكر أنه فيه تحامل على أقوام ، وشغلني التفكير في هذا عن النهوض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسؤاله عن أشياء كنت قد قلت في نفسي أسأله عنها ، فانتبهت في الحال[1] »

وقال الفقيه الصالح أبو علي الحسن بن أحمد البصري : رأيت الخطيب في المنام ، وعليه ثياب بيض حسان وعمامة بيضاء ، وهو فرحان يبتسم ، فلا أدري قلت ما فعل الله بك ، أو هو بدأني فقال : غفر الله لي أو رحمني . وجلَّ مربحاً — فوقع لي أنه يعني بالتوحيد إليه يرحمه الله أو يغفر له — فأبشروا ، وذلك بعد وفاته بأيام[2] .

---

(١) التبيين ٢٦٩ ، حاتم ١٨٨[1] ، شهبة ١٤١[2] ، تذكرة ٣ : ٣٢١ سبكي ٣ : ١٥

(٢) شهبة ١٤١[2]

تواف الكتب إلى البلدان بنعيه

ولم يلبث خبر وفاته ، حتى عمّ بلاد الإسلام ، فأوفدت الكتب من بغداد ، تنعى وفاة إمام زمانه ، فوصل منها إلى دمشق كتب جماعة في شهر ربيع الأول من سنة أربع وستين وأربعمائة — أي بعد وفاته بثلاثة أشهر ، ولا شك أن ذلك أول بريد خرج من بغداد بعد وفاته — يذكر كل منها تاريخ وفاته ، ومكان دفنه ، وأن أبا إسحاق الشيرازي كان أحد من حمل في جنازته ، وأنه كان معه مايتا دينار ، فتصدق بها في علته ، وانتهى فراغها بموته[1] .

وصار كل يتحدث بما يعرف عنه ويؤرخ أيام حياته وأعماله حتى تمّ من ذلك ما لا يجتمع إلا لقليل ممن أنعم الله عليه بالذكر الطويل والمواهب العظيمة .

---

(١) المالكي ١٧ وعن أبي محمد الكتاني القلانسي ١٠٥ والتبيين ٢٧٠ وشهبة ١٤١ وتذكرة ٣ : ٣٢٠

# صورة الخطيب بمزاياه وطبعه

خرجنا من حياة الخطيب بصورة فيها إجلال وإعظام : ألفيناه يدأب طول حياته على علم يقتطف ثماره ، أو درس يبدي فيه معارفه ، أو مجلس يظهر فيه محاسن حفظه وجودة تفكيره ، ثم رأيناه يعطف على أهل العلم ، ويحن إلى ذوي الزهد . فهذه الصورة تستدعي تفصيلاً ، يبدو فيه الخطيب بمزاياه كاملة ، وطبعه مشروحاً ، وسمته موصوفة ؛ فترسخ صورة فضله في النفس ، وتحسن مجمل فعاله في العين .

## حسن سمته

وأول ذلك أنه كان «في درجة الكمال ... خلقاً وهيئة ومنظراً [1]» كان من يقترب منه ، يشعر بهيبة ارتسمت على محياه ، ووقار تجسم في حركاته ، وانطبع في سكناته ، فقد «كان مهيباً وقوراً نبيلاً خطوراً [2]» . وكان من يتأمل لباسه ، يشعر بعنايته به ، وإتقانه له ؛ فقد كانت الثياب تستهويه ، حتى جمع من الملابس

---

(١) عن السمعاني في الارشاد ١ : ٣٠

(٢) المصدر السابق

عدداً ، أدخله في وصيته ، يباع فيفرق ثمنه على أصحاب الحديث[١] .

جودة خطه

تلك العناية بالهيئة والمنظر شيءٌ من حبه للمظاهر ، ينمّ عن طبعه وحظه من الإتقان ؛ وهو حب قلما اتصف بـه العلماء إهمالاً منهم ، ولّده الانهماك فيما لا لذة بعده ولا فائدة مثله ألا وهو العلم ؛ أما إن الخطيب يهوى الإتقان ، وإن تعجب فاعجبْ منه لخطه يجيده ، فيرسم حروفه واضحةً ، لا ينقصها حقها من التنقيط ، بل من الشكل والضبط ، حين يبدو إشكال ، أو يعرض التباس ، وأين هـذا من الرغبة في سرعة النقل للفراغ من سأم ، يبعثه تكرار انتقال النظر من الأصل ينسخ منه ، إلى الدفتر يكتب فيه ، أو من ضجر يثيره عمل لا إبداع فيه . وتدرك ما لذلك من الأثر ، حين ترى اثنين من أوائل من ترجم للخطيب يلفتـان النظر إلى حسن خطه ، فيقول أحدهما ، وهو ابن النجار « وخط الخطيب مليح كثير الشكل والضبط[٢] » . ويقول الثاني ، وهو السمعاني « إنه حسن الخط كثير

---

(١) ابن حاتم ٨٧^٢ ، إرشاد ٤ : ٢٧ و ٤ : ٤٥ ، شهبة ١٤١^١ ، تذكرة ٣ : ٣١٩ و ٣ : ٣٢٠ ، سبكي ٣ : ١٤ و ٣ : ١٥

(٢) شهبة ١٤٠^٢

الضبط[1] » . وكيف يخرج أبو بكر على نصحه للمحدثين بإجادة خطهم وضبط حروفهم ، ليمتنع الشك ، ويبطل الالتباس[2] ، وهو يذكر الآية الشريفة « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » . وحسن الخط إنما هو عادة يروض المرء نفسه عليها ؛ وقد نصح له دون أن تحول بينه وبين سرعة النقل ؛ ولعلها صحت للخطيب بالرياضة الطويلة .

يضرب المثل بسرعته في القراءة

انظره يروض نفسه على حسن القراءة مع سرعتها ، فيبلغ في ذلك أكبر شأو وأبعد مثال : فقد « كان حسن القراءة ، فصيح اللهجة[3] » « إذا قرأ الحديث في جامع دمشق ، يسمع صوته في آخر الجامع ، وكان يقرأ مع هذا مغرباً صحيحاً[4] » ، ثم يضرب به

---

(١) شهبة ١٣٨¹ ، تذكرة ٣ : ٣١٤ سبكي ٣ : ١٣ شذرات ٣ : ٣١٢ وانظر إرشاد ٤ : ٣٠

(٢) في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع له ظاهرية ، مجموع ٥٥ ، في فصل أسماه باب تحسين الخط وتجويده ، ١٥٤²

(٣) المنتظم ٨ : ٢٦٧ إرشاد ٤ : ٢٢ و ١ : ٣٠ وشهبة ١٣٨¹

(٤) شهبة ١٣٨² وتذكرة ٣ : ٣١٥ وانظر الأسنوي ظاهرية تاريخ ٥٦ في أواخر الربع الأول وشذرات ٣ : ٣١٢

المثل « في سرعة القراءة » فيعده القلقشندي فرداً في ذلك[١] ويذكر عن نفسه أنه قرأ صحيح البخاري على الحيري في ثلاثة مجالس[٢]، ويضيف الذهبي إلى ذلك قائلاً « وهـذا شيء لا أعلم أحداً في زماننا يستطيعه[٣] » ويذكر عبد المحسن الشيحي أن الخطيب في طريقه من دمشق إلى بغداد « كان له في كل يوم وليلة ختمة[٤] » من القرآن. وفي كل ذلك سبب للعجب، بل للظن أنه لم يكن يقرأ، بل يتمتم. غير أن هذا الظن يزول، حين نسمع أبا الفرج الإسفرائيني، رفيقه في الحج، يقول: « كان يختم كل يوم ختمة إلى قرب المغيب قراءة ترتيل[٥] »، وقراءة الترتيل تقتضي الإتقان في إخراج الحروف وإعرابها؛ ولا جرم تم للخطيب ذلك بالرياضة الطويلة.

بعده عن السياسة

ذلك وصفه في مظاهره، يبغي بها الإتقان ما استطاع إليه سبيلاً، أما طباعه في علاقاته بالناس، فهو يتجنب الاضطراب،

---

(١) صبح الأعشى ١ : ٤٥٤
(٢) تاريخ بغداد ٦ : ٣١٤
(٣) شهبة ١٣٩[١]
(٤) شهبة ١٣٨[٢]
(٥) ابن حاتم ٨٨[١]، تاريخ دمشق ١ : ٤٠٠، التبيين ٢٦٨ شهبة ١٣٨[٢]، تذكرة ٣ : ٣١٦، سبكي ٣ : ١٤

ويركن إلى السكينة ، فلا تروى لنا حادثة في حياته الطويلة المستفيضة ، تنسبه إلى الخصام مع أفراد الناس ، ولا تهمه السياسة في شيء ، فهو يوقر علمه ، فلا يتقرب إلى ذوي المناصب بالمديح . وتأبى عليه نفسه أن يقدم تصانيفه إليهم ، كما كان يفعل بعض علماء عصره ، فيفيدون من ذلك مالاً وجاهاً . وهو إذا اتصل بأصحاب النفوذ والسلطة ، فإنما يتصل بالعلماء منهم ، على ألا يتكلم إليهم إلا بالعلم ، فيحضر مجالس التحديث معهم [١] ، أو ينقل عنهم من علمهم ، ثم يغدو إلى رزانته ووقاره ، فلا يطريهم لإحسان سبق منهم إليه . يذكر قتل رئيس الرؤساء أبي القاسم بن المُسْلمة الذي حسنت صحبته له ، وكبر عطفه عليه ، فيقول وكأنه لم يتصل به أبداً : « قتله أبو الحارث البساسيري التركي ، وصلبه » ولا يشفع ذلك بطعن في البساسيري أو تهجين لعمله ؛ وكل ما يثار به لصاحبه قوله : « ثم قتل البساسيري ، وطيف برأسه ببغداد [١] » ، فهل يصح للتاريخ أن يتجرد من الغاية أكثر من ذلك ؟

لا حرص على الدنيا عنده بل كرم وعفة

ومن كان هذا شأنه مع ذوي السلطان ، فلا عجب إن كان

---

(١) كما مر معنا ص ٣٩

(٢) تاريخ بغداد ١١ : ٢٩١

ذلك أمره مع الدنيا ؛ وإنا لم نره خلال حياته سعى إليها يوماً ، أو أقام لها وزناً ، وهو يناجي ربه قرب زمزم . بل كان من أمره مع الدنيا يومئذ في خلاف ، فقد تذكر ما بعدها ، وهو الموت[1] ، ولم يعبأ بها . على أنها لما رأت منه الإعراض عنها ، سعت إليه لتطمعه فيها ، فحظي بالمال منها بعد عودته من الحج ، فلم يحفل بهذا المال إلا ليقوى على خدمة العلم الذي نصب نفسه له . هذا الخطيب التبريزي يقص عليك حكايةً له في ذلك ، قال : دخلت دمشق ، فكنت أقرأ على الخطيب بحلقته بالجامع كتب الأدب المسموعة له ، وكنت أسكن منارة الجامع ، فصعد إليّ وقال : أحببت أن أزورك في بيتك ، فتحدثنا ساعة ، ثم أخرج ورقةً وقال : الهدية مستحبة ، اشتر بهذا أقلاماً ، ونهض : فإذا هي خمسة دنانير مصرية ؛ ثم إنه صعد مرةً أخرى ووضع نحواً من ذلك[2] » غير أن الحياة ما برحت تطمعه فيها ، لتأتي على عفته ، وهو يستعصي عليها . وهذا علوي يدخل عليه ، وهو بجامع صور « وفي كمه دنانير فقال : فلان — وذكر بعض المحتشمين من أهل صور — يسلم عليك ، ويقول :

---

(١) كما مر معنا ص ٢٩

(٢) شهبة ١٣٨^٢ ، وتذكرة ٣ : ٣١٥ ، وفي الارشاد ٤ : ٣٢ — ٣٣ تفصيل أوسع .

هذا نصرفه في بعض مهماتك ؛ فقطب وجهه وقال : لا حاجة لي فيه ، فقال العلوي فتصرفه إلى بعض أصحابك ، قال : قل له يصرفه إلى من يريد ، فقال كأنك تستقله ، ونفض كمه على سجادة الخطيب ، وطرح الدنانير فقال : هذه ثلاثمائة دينار ، فقام الخطيب محمرّ الوجه ، وأخذ سجادته ، ونفض الدنانير ، وخرج من المسجد ، قال الفضل ( بن أبي ليلى راوي القصة ) : فما أنسى عزّ خروجه وذلّ ذلك العلوي ، وهو قاعد على الأرض يلتقط الدنانير من شقق الحصير ويجمعها »[1] كان الخطيب يعرف الحياة فلا يأبه لزخرفها ، لأنها زائلة قال :[2]

لا تغبطنّ أخا الدنيا بزخرفها ... ولا بلذة وقت عجلت فرحا
فالدهر أسرع شيء في تقلبه ... وفعله بيّنٌ للخلق قد وضحا
كم شارب عسلاً فيه منيته ... وكم تقلد سيفاً من به ذُبحا

فلا عجب إذا هي لم تغره ولم تأت على تعففه .

تورعه

كان متورعاً ، كما وصفه البرقاني في كتابه إلى أبي نعيم

---

(١) الارشاد ٤ : ٣١ – ٣٢ وباختصار في شهبة ١٣٨١ وتذكرة ٣ : ٣١٥ وسبكي ٣ : ١٤ .

(٢) تاريخ دمشق ١ : ٤٠٠ إرشاد ٢ : ٢٥ ، شهبة ١٤٢١ ، بداية ١٢ : ١٠٣

الأصفهاني[١]، وكان إذ ذاك شاباً؛ ثم ازداد تورعه في كهولته وشيخوخته، وليس أدل مع ذلك من ختمه للقرآن كل يوم في حجه، ثم في عودته الأخيرة إلى بغداد، كما مر معنا[٢]. ولا يعني هذا أنه كان زاهداً، فقد تقدم حبه للتجمل بالملبوس والهيئة وجمعه لشيء من المال؛ إنما كان تقياً يتقرب إلى الله بالعبادة والدعاء والقراءة والتصدق والتعفف؛ وكفى بذلك تورعاً.

تواضعه

ويكبر أهل العصر مزاياه، فيقول أبو غالب شجاع الذهلي: إنه لم يدرك مثله[٣] ويقول أبو علي البرداني: ما رأيت مثله، ولا أظنه رأى مثل نفسه[٤] ولكن التكبر والخيلاء لا يجدان منالاً منه، وقد عرف عن نفسه علوّ الكعب وإكبار الناس، فهو متواضع في نفسه، وفيما يعتقده فيها، وهو إذا سأله أحدهم عند لقائه قائلاً: «أنت الحافظ أبو بكر؟» أجاب بلهجة المانع الذي لا يدع مجالاً لنسبة

---

(١) انظر صفحة ٢١ — ٢٢

(٢) صفحة ٤٦ وصفحة ٥٩

(٣) تاريخ دمشق ١ : ٣٩٩ - ٤٠٠، شهبة ١٣٩[٢]، تذكرة ٣ : ٣١٧ سبكي ٣ : ١٣.

(٤) النصوص السابقة

ما نسب إليه ، يقول : « انتهى الحفظ إلى الدارقطني : أنا أحمد بن علي الخطيب[1] » .

كمال في الخَلق والخُلق

تلك صورته ، أجملها السمعاني بقوله : « كان في درجة الكمال والرتبة العليا خَلقاً وخُلقاً وهيئة ومنظراً[2] » ولم يوصف بذلك ولن يوصف إلا أفراد الناس الذين لا تدع سيرتهم أو مظاهرهم أو هيئتهم سبيلاً للطعن أو مجالاً للحط .

نفي تهمة عنه

وبعدُ فلم يكن كل ذلك ليمنع كيد الأعداء والحساد ، فقد أتهموه بما ينافي تقواه . نقل أبو سعد السمعاني عن عبد العزيز بن محمد النخشبي قوله : كان أبو بكر الخطيب يتهم بشرب الخمرة : كنت كلما لقيته بدأني بالسلام ، فلقيته في بعض الأيام ، فلم يسلم علي ، ولقيته شبه المتغير ؟ فلما جاز عني ، لحقني بعض أصحابنا ، وقال لي : لقيت أبا بكر الخطيب سكران . فقلت له : قد لقيته متغيراً ، أو استنكرت حاله ، ولم أعلم أنه سكران ، ولعله قد تاب إن شاء الله » ويدفع السمعاني هذه التهمة فيقول : « ولم يذكر عن الخطيب

---

(١) شيبة ١٣٩٢ ، تذكرة ٣ : ٣١٧

(٢) إرشاد ١ : ٣٠

رحمه الله هذا إلا النخشبي، مع أني لحقت جماعة كثيرة من أصحابه »[1].
ألا إن ما قاله النخشبي باطل، فما أوهى ما بناه على تهمة أحد الناس له، وعلى تغير في بشاشته، وما أكثر ما يطرأ من تغير على الإنسان يبعثه همٌّ أو حصر بال. وقديماً اتهم بعض الناس بعضهم الآخر بالحق والباطل.

تغزله بالغلمان

ولا يتوهمن أحد أنا نربأ بالخطيب عن الوقوع فيما يؤخذ عليه، إنما ننفي عنه كل ما من شأنه أن يطعن في عفته ودينه. أما ما يقع فيه الناس من زلة تغتفر، فالخطيب ليس بالمعصوم من ذلك. وقد روي عنه التغزل، ونحن نورد ذلك بمرحلتين، فنذكر ما لم نستطع تضعيف رُواته أولاً، ثم نشفعه بما بدا لنا أنه من وضع أعدائه، فمن الشقّ الأول الأبيات الآتية[2]:

قد شاب رأسي وقلبي ما يغيره ... كرُّ الدهور عن الإسهاب في الغزل
وكم زماناً طويلاً ظلْت أعذُله ... فقال قولاً صحيحاً صادق المثل
وحبك الشيء يعمي عن مقابحه ... ويمنع الأُذن أن تصغي إلى العذَل
لا أسمع العذل في ترك الصبا أبداً ... جهدي فما ذاك من همي ولا شغلي

(١) إرشاد ٤ : ٢٩
(٢) إرشاد ٤ : ٣٦

من ادعى الحب لم تظهر دلائله فحبه كذب قول بلا عمل

ومنه يشبه الحب بالخمر :[1]

خُمار الهوى يُربي على نشوة الخمر وذو الحزم فيه ليس يصحو من السكر
وللحب في الأحشاء حرٌّ أقله وأبرده يوفي على لهب الجمر
أُخبرُكم يا أيها الناس إنني عليمٌ بأحوال المحبين ذو خُبر
سبيل الهوى سهل يسيرٌ سلوكه ولكنه يُفضي إلى مسلكٍ وعر
وترجع أوصاف الهوى ونعوته لحرفين سعد الوصل أو شقوة الهجر

ومنه تشبيه فراق الحبيب بالقتل :[2]

إلى الله أشكو من زماني حوادثاً رمت بسهام البين في غرض الوصل
أصابت بها قلبي ولم أقض منيتي ولو قتلتني كان أجمل بالفعل
متى ما تماثلْ بين قتل وفرقةٍ تجد فرقة الأحباب شراً من القتل

ومنه ما ذكر أنه قاله في أبي منصور بن النفور ( ؟ ) وهاكه :[3]

الشمس تشبهه والبدر يحكيه والدر يضحك والمرجان من فيه
ومن سرى وظلام الليل معتكر فوجهه عن ضياء البدر يغنيه

---

(١) إرشاد ٤ : ٤٠

(٢) إرشاد ٤ : ٤١

(٣) إرشاد ٤ : ٣٨ والبيتان الأولان في سبكي ٣ : ١٥ ولعل كلمة الوحي محرفة عن الوهم

فالعقل يعجز عن تحديد غايته ... والوحي يقصر عن فحوى معانيه
يدعو القلوب فتأتيه مسارعةً ... مطيعة الأمر منه ليس تعصيه
سألته زورةً يوماً فأعجزني ... وأظهر الغضب المقرون بالتيه
وقال لي دون ما تبغي وتطلبه ... تناول الفلك الأعلى وما فيه
رضيتُ يامعشر العشاق منه بأن ... أصبحت أعلم أني من محبيه
وأن يكون فؤادي في يديه لكي ... يميته بالهوى منه ويحييه

ومنه ماينفي به عن نفسه تهمة محبة أكثر من واحد حيث يقول :

بنفسي عاتبٌ في كل حالٍ ... وما لمحبه ذنبٌ جناه
حفظت عهوده ورعيت منه ... ذماماً مثله لي ما رعاه
حُرمت وصاله إن كنت يوماً ... جرى لي خاطر بهوى سواه
ولو تلفي رضاه لهانَ عندي ... خروج الروح في طلبي رضاه

دفع سوء ذلك التغزل

وفي كل ذلك — إذا صحت نسبته إليه ، ولم يكن مما وضعه أعداؤه — ما تستهجنه وتستقبحه ، ويأخذ منك الغضب للعفة مأخذه ، فتضرب بما ذكر من كمال الخطيب عُرض الحائط . ولكن رُويدك ! انظر هل استهجن هذا الشعر رواته كالحميدي ، وهو محدث ، أو نقلته كالذهبي والسبكي ، وهما متعصبان ؟ فنقصت منزلة الخطيب عندهم ؟ كلاَّ بل هم الذين مدحوه بما كانوا يتمنون أن

يمدحوا به . ورويدك ! لا تتهم هؤلاء أيضاً ، وتتهم الروح الإسلامية معهم ، فقد تغزل بالغلمان كثير من أهل التعفف ، وكان ذلك عندهم أمراً غير مشين : أجازوه تمرّناً على قول الشعر ، أو تظرفاً فيه[1] . فما هو عند الخطيب إذاً إلا زلل ، لا يؤبه لشأنه ، وتساهل لا ينقص من قدره ، ولعله مما قاله في صباه .

تغزل مستهجن نسبه إليه أعداؤه

على أن خصومه لم يجدوا عوناً لهم على الحط من قدره ، والطعن عليه ، ما وجدوا في تغزله هذا ؛ فصنعوا الغزل المستهجن ، ونسبوه إليه ، وأدخلوه فيما قاله متعففاً متخيلاً ، فصرنا نحار في استخراج الحق من الباطل .

وخير ما ألفيناه واقياً من الزلل ، مقرباً من الحق ، أن نعمد إلى رواة هذا الشعر ، فإن كانوا من أعدائه ، وممن صحّ عندنا طعنهم عليه بالباطل ، نسبنا روايتهم إلى الوضع . وكذلك كان ما رويناه من شعره آنفاً إما خالياً من اسم راويه ، أو بعيداً عن أن يكون من وضع خصومه .

واسمع الآن مارواه هؤلاء . قال أبو الحسين بن الطيوري — وهو

---

(١) انظر الوسيط في الأدب العربي لأحمد الإسكندري ومصطفى عناني ، مط المعارف ، ١٩٢٧ ص ٢٥٨

من نسب إلى الخطيب باطلاً سرقة تصانيفه[١] — أنشدنا الخطيب :[٢]

تغيب الخلق عن عيني سوى قمر ... حسبي من الخلق طراً ذلك القمر

محله في فؤادي قد تملكه ... وحاز روحي فما لي عنه مصطبر

فالشمس أقرب منه في تناولها ... وغاية الحظ منه للورى النظر

وددتُ تقبيله يوماً مخالسةً ... فصار من خاطري في خده أثر

وكم حكيم رآه ظنه ملكاً ... وردد الفكر فيه أنه بشر

ونقل الملك المعظم الذي ثار ثائره لما ذكره الخطيب في تاريخ بغداد[٣] من كلام المحدثين في الإمام أبي حنيفة ، فردّ عليه بكتاب حافل — نقل أشعاراً لم يتبين لي هل وجدها هو بخط الخطيب ، أم وجدها ابن الجوزي ، فذكرها في السهم المصيب في الردّ على الخطيب ، وادعى أنه أخذها من خط الخطيب ، ثم نقلها الملك المعظم عن ابن الجوزي ، ومهما يكن فلم يروِ هذه الأشعار فيما بين يدينا غير هذين الخصمين أو أحدهما . ولسنا نريد بهذا القول أنها من وضعها ، بل إنهما تساهلا في تصديق أنها من خط الخطيب ، أو إذا

---

(١) انظر الفصل الخاص بذلك فيما يلي

(٢) إرشاد ٤ : ٣٧ — ٣٨ ، شهبة ١٤١[٢] — ١٤٢[١] وانظر الرد على أبي بكر للملك المعظم ص ١٨٠

(٣) تاريخ بغداد ١٣ : ٣٦٩ — ٤٥٤

كانت من خطه أنها له . وهاك تلك الأشعار .[1]

ومنها قسم بالله ، يتعفف الخطيب من أقل منه :

بالله أقسم أيماناً مغلظةً ... ما مثل حبي سرى في سائر الناس
إذا بدا يتثنى خلته قمراً ... من فوق غصن مديد الفرع مياس
شربت من لحظه خمراً سكرت بها ... زادت على نعت خمر الكاس والطاس
فأورثت مهجتي من حبه دنفاً ... وعظمت حال أفكاري ووسواسي

ومنها تشبيد بالخمر :

للخمر والورد حق لست أجحده ... إذ ناسبا ما بدتْ منه بلاياي
فالخمر من طيب ريق الحب قد سرقت ... والورد أضحى يحاكي خد مولاي

ومنها :

ياعاذلي كفَّ عن عذلي فلو نظرت ... عيناك حبي لعاينت الذي أجد
وقلت من فرط وجدٍ حين تنظره ... هل يملك الصبر من هذا ترى أحد
جعلت في الحب فرداً لا نظير له ... كما حبيبي بحسن الوصف منفرد

ومنها :

ما كان أغفلني عما ابتليت به ... من حب ذي هيف أبهى من القمر
قد أبدع الله فيه حين صوَّره ... كأنه ملك في صورة البشر
سقام أجفانه قد زاد في سقمي ... فصرتُ من ذا وذا في أعظم الخطر

---

(١) في الرد على أبي بكر ص ١٨٠ — ١٨٨

مترف ناعم لو ظلتُ لاحظه    لذاب من رقة في ساعة [ النظر ]
يؤثر الوهم في توريد وجنته    لكن مهجته أقسى من الحجر

اتهامه بحب الغلمان

أورد الملك المعظم هذه الأشعار ، ليدلّ على صحة الحكاية[1] التي ذكرها محمد بن طاهر المقدسي في المنثور ، نقلاً عن مكيّ بن سليمان الرميلي في سبب خروج الخطيب من دمشق[2] . وفيها أن الخطيب كان يختلف إلى صبي مليح ، وتكلم الناس في ذلك . وهب أن هذه الأشعار صحيحة ، تدل على تغزل يعاتب عليه الخطيب ؛ إن كانت صحيحة ، وهي ضعيفة الرواية ، فلا يعقل أن يروي مكي بن سليمان الرميلي حكاية تسقط شيخه الخطيب من مرتبة الشيوخ ، وهو الذي رأى في المنام تعظيم الرسول له ، وحضوره قراءة تاريخه لبغداد[3] .

ومما يزيدنا يقيناً ما قيل عن راوي هذه الحكاية محمد بن طاهر المقدسي

---

(١) الرد على أبي بكر ص ١٨١ وقال : ومن هذه حاله لا يصلح أن يكون بمنزلة الأئمة الذين تقبل أقوالهم في الجرح والتعديل ورواياتهم .

(٢) إرشاد ٤ : ٣٥ ، الرد على أبي بكر ٢٧٧ شهبة ١٤٠[1] ، تذكرة ٣ : ٣١٨ ، ابن القلانسي ١٠٥ — ١٠٦

(٣) ابن حاتم ١٨٨[1] ، التبيين ٢٦٩ شهبة ١٤١[2] ، تذكرة ٣ : ٣٢١ ، سبكي ٣ : ١٥

(— ٥٠٧) فقد جرحه ابن الجوزي [١] وابن ناصر [٢] ونسب إليه الأوهام ابن عساكر [٣] وأساء الثناء عليه كثيرون [٤] . ويلبهما ياقوت [٥] بمعرفته وبعد نظره إلى أن محمد بن طاهر المقدسي «وقاعة في كل من انتسب إلى مذهب الشافعي» ، فنفهم من كل ذلك أن الخطيب براء مما نسب إليه ، وندرك كيد أعدائه الذين لم يقتصروا على نقل هذه الحادثة كما ذكرها من وضعها ، بل أضافوا إليها ما أرادوا به أن يزيدوها قوة ، فوُجدت في مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي مضمنة أن صاحب الشرطة حينما أوعز إليه بقتل الخطيب «هجم عليه فرأى الصبي عنده ، وهما في خلوة [٦]» مع أن الرواية التي نقلها الملك المعظم من خط محمد ابن طاهر المقدسي ، لا تشير إلى شيء من ذلك [٧] وأضاف الخصوم إلى الحادثة ذيولاً ، فادعوا أن الخطيب قال في ذلك الصبي — أشعاراً كثيرة منها [٨] :

---

(١) المنتظم ٩ : ١٧٨

(٢) في تذكرة ٤ : ٣٩

(٣) النص السابق وانظر لسان الميزان ٥ : ٢٠٧

(٤) في تذكرة ٤ : ٣٩ — ٤٠

(٥) إرشاد ٤ : ٩٧

(٦) تأنيب الخطيب للكوثري ص ١٢

(٧) الرد على أبي بكر ٢٧٧

(٨) تأنيب الخطيب لمحمد زاهد الكوثري ص ١٢ وفي الرد على أبي بكر ١٨٠ دون الاشارة إلى الصبي

بات الحبيب وكم له من ليلة فيها أقام إلى الصباح معانقي
ثم الصباح أتى ففرق بيننا ولقلما يصفو سرور العاشق

فجعلوا من الوهم حقيقة ، وصوروه بما تستهجن حكايته عن متهتك مستهتر ، فكيف عن إمام من أئمة الحديث .

تعليل أخلاقه ومزاياه

ونعود إلى وصف الخطيب في مزاياه وطبعه ، فلا نرى في التهم التي مرت معنا ما يسيء إلى سمعته عندنا إلا بما لا يؤبه لشأنه من تظرف في الغزل ؛ حتى إذا عمدنا إلى فهم سر تكون تلك المزايا وأسبابها ، وجدنا — علاوة على حسن نفس الخطيب وجودة طباعه في أصلها — انقطاعه إلى علم الحديث . ألا إن علم الحديث — وهو ما يسميه المسلمون « العلم » بلا إضافة — يسمو بالنفس في الفضائل ، لأنه يقص أفعال من قال الله في حقه « وإنك لعلى خلق عظيم » ، فيتعلم المحدث سيرة سامية ، وأقوالاً عظيمة ، وأفعالاً مجيدة ، وليس ذلك فقط ؛ بل اختط كبار المحدثين : كالبخاري وأحمد بن حنبل لخلفهم سبيل الإخلاص لهذا العلم ، لا يلتفتون إلى غيره ، يعملون على خدمته خدمة خالصة من كل غاية أخرى ، يتتبعون ما وُضع فيه ، وينفون الكذب عنه . واستن هذا العلم لأصحابه سنة العمل الصالح ، فلا علم إلا مع العمل به .

اقتضاء العلم العمل

وهاك الخطيب نفسه يصنف كتاباً في « اقتضاء العلم العمل » ، فيفيدنا الكثير مما نحن بصدده ، إليك وصاياه فيه لطالب العلم أي الحديث ، قال[1] : « إني موصيك يا طالب العلم بإخلاص النية في طلبه ، وإجهاد النفس على العمل بموجبه ، فإن العلم شجرة والعمل ثمرة ، وليس يعدُّ عالماً من لم يكن بعلمه عاملاً ، وقيل : العلم والد ، والعمل مولود ، والعلم مع العمل ، والرواية مع الدراية . فلا تأنس بالعمل ما دمت مستوحشاً من العلم ، ولا تأنس بالعلم ما كنت مقصراً في العمل ، ولكن اجمع بينهما ، وإن قلَّ نصيبك منهما ؛ وما شيء أضعف من عالم ترك الناس علمه لفساد طريقته ، وجاهل أخذ الناس بجهله لنظرهم إلى عبادته ؛ والقليل من هذا مع القليل من هذا أنجى في العاقبة إذا تفضل الله بالرحمة » ؛ ثم يعقد باباً في « ذم طلب العلم للمباهاة به ، والمماراة فيه ، ونيل الأغراض ، وأخذ الأعواض عليه »[2] فيفهمنا في ذلك ما أسعفه به علمه ؛ ثم يذكر لنا « ما جاء من الوعيد والتهديد لمن قرأ القرآن للصيت والذكر ، ولم يقرأه للعمل

(١) اقتضاء العلم العمل ظاهرية أدب ٢٥٧ ، ٢١

(٢) الكتاب السابق ١١١

به ، واكتساب الأجر[1] » ، ثم يقدم فصلاً في « ذم التفقه لغير العبادة[2] » وإذا بنا ندرك كيف أبى المحدثون إلا أن يضعوا لأنفسهم طريقاً في العمل بسنة يعلمونها ، وإذا بنا ندرك أن الخطيب اتصف بما خوله إياه علمه ، وتمسك بأخلاق حدث بها ، ونذر نفسه عليها ، ساعدته في ذلك سجية طيبة ونشأة حسنة ، فكان مثالاً للمحدثين يُضرب ، وصورة عنهم تؤثر .

سموه بنفسه وسعادته بعلمه

وبعدُ فما هي خلاصة تلك الصورة ، وما هو الذي توحي به ؟ إنها لتعبير بليغ عن السمو بالنفس عن سفاسف الحياة ، والسعادة بنور العلم وجمال المعرفة ؛ إنها الإتقان في العمل ، والأخذ بأسباب الكمال .

تلك هي المزايا التي ظهرت لنا من طبع الخطيب ، فهل كان سعيداً بها ؟ ليس بين يدينا من النصوص ما يوضح لنا درجة سعادته ؛ على أن أقل ما تشير إليه حوادث حياته توفقه بما سعى إليه ، وهو العلم ؛ والسعادة أليست في غالب الأحيان الوصول إلى الهدف وإحراز الأماني . فالخطيب كان سعيداً بما اختطه لنفسه ، وسار على نهجه .

---

(١) الكتاب السابق ١٢'

(٢) الكتاب السابق ١٣'

# مصادر ثقافة الخطيب وينبوع أثره

## مرحلتان لدراسة الخطيب

لئن توفرت المصادر لدراسة الخطيب وذكر صفاته ، فآثاره لا تزال مفرقة مبعثرة ؛ ولئن انتهت إلينا أقوال القدماء في الخطيب ، ووصفهم لعلمه ، وتعدادهم لمشايخه وتصانيفه وكتبه ، فنحن ما برحنا ننتظر دراسة مؤلفاته واحداً واحداً ، بغية استخراج مصادرها ، وإدراك أثرها ، وتقدير مكانتها ، ومعرفة الجديد الذي أحدثه ؛ ونتبين من كل ذلك أن بحث الخطيب في ثقافته وآثاره يقتضي مرحلتين : أولاهما جمع ما خلفه العلماء من مصادر ثقافته ، وماذكروه من مصنفاته ، وما قالوه فيها ، لتحرير ذلك والاستنتاج منه . وثانيتهما دراسة مصنفاته ، واستخراج مصادرها ، ومعرفة أثرها . ولا شك أن البحث الثاني أدق وأثبت وأوثق وأصح . ولكن الأول – على ما فيه من تسرع في الحكم ، وإذعان لأقوال القدماء بأسلوبهم الذي اعتادوه ، وتباين رغباتهم ، وتعدد نزعاتهم – لا يخلو من استخراج بعض الحقائق الأولية ، وتفهم آراء صدرت عن خبرة ، ونطقت عن علم .

المصادر التي توفرت لنا

ومما يزين لنـا الإقبال على تلك الدراسة الأولية توفر المصادر فيها ، فقد وجدنا المحدثين يعددون المشايخ الذين تلقف عنهم الخطيب أكثر علمه ، والأقران الذين عاش معهم ، وأثر فيهم ، وأثروا فيه ، والتلامذة الذين نقلوا عنـه علمه وآثاره ؛ وهم يعددون ذلك عن معرفة وتتبع ، فهذا التعداد فنٌّ من فنون الحديث ، بل من فنون العلم الإسلامي العربي ؛ ووجدنا إلى جانب ذلك فهرساً للكتب التي قرأها الخطيب على مشايخه ، وسمعها من رواتها ، ونقلها إلى دمشق ، فكان يحدث بهـا في جامع دمشق ، وقد بلغ عددها ( ٤٧٤ ) كتاباً بين سفر كبير ، وكتاب متوسط ، وجزء صغير ، وألفينا عدة مصادر سميت فيها مصنفات الخطيب ، وذكر شيءٌ عنها .

بحثنا تمهيد لدرس ثقافته وأثره

ننشر هذه المصادر ، بعد ترتيبها على نسق يسهل لنا سبيل الفهم ، ويسعفنا بحسن الاستنباط . وإنك لتجدها تلوه ، كما ذكرناها ؛ فإن سمت همتك إلى قراءتها وفحصها ، فنعما فعلت ؛ وإن اقتصرت على إجالة النظر فيها ، حتى تدرك الغاية من تعدادها ، وجملة فائدتها ، كفيناك مؤونة التعمق فيها بالبحث الذي نتبعـه عنها ، وعما يمكن أن يستنبط منها بادئ الرأي .

ونحن موقنون أن هذا التعداد وما يتبعـه من نظر ، ليسا إلا تمهيداً للبحث عن علم الخطيب وأثره ، وأننا قد نعجل بالرأي ، ونخطئ ببعض القول ؛ على أنا نقدر أنه خير للعلم أن يتقدم رويداً رويداً ، فيدخل في النفوس من أن يرجأ أمره إلى مستقبل بعيد ، نرجو أن يكون خيراً كبيراً .



## تعداد شيوخ الخطيب وأقرانه وتلامذته

لا نذكر منهم إلا الذين عددهم من ترجموا للخطيب كابن عساكر في تاريخ دمشق نسخة دار الكتب الظاهرية المخطوطة رقم تاريخ ٢، ٧[٢] وابن نقطة الحنبلي في الاستدراك، ظاهرية حديث ٤٢٣، ٤[٢] وابن قاضي شهبة في مناقب الشافعي من تاريخ الذهبي نسخة الظاهرية المخطوطة رقم تاريخ ٥٧، ١٣٧ والذهبي نفسه في تذكرة الحفاظ ٣ : ٣١٣ والسبكي في طبقات الشافعية ٣ : ١٢ وابن حاتم المقدسي في الأربعين المرتبة على طبقات الأربعين نسخة الظاهرية حديث ٨٥،١٦٨ ونعدد مع كل واحد منهم ما أمكن جمعه من مصادر ترجمته في كتب التاريخ، أما إذا ورد اسمه في تاريخ الأدب العربي لبروكلمن ( G. A. L. : Brockelmann ) فانا لا نتجاوز ذكر هذا الكتاب.

### شيوخه على حروف المعجم

١ — إبراهيم بن عقيل بن جيش بن محمد أبو إسحاق بن المكْبريّ ( — ٤٧٤ ) نحوي — ( روى عنه : إرشاد ١ : ٢٠٦، تاريخ دمشق ٢ : ٢٣١، بغية الوعاة ١٨٣ ) وانظر ترجمته في هذه المصادر.

٢ — إبراهيم بن مَخْلد بن جعفر الباقرحي أبو إسحاق (٣٢٥ — ٤١٠)، من أهل العلم والمعرفة بالأدب ينتحل مذهب ابن جرير الطبري — (سمع منه في بغداد : ابن عساكر، شهبة، ذهبي ) — انظر ترجمته في تاريخ بغداد ٦ : ١٩٠، أنساب ٦١[٢]، نجوم ٤ : ٢٤٥

٣ — أحمد بن حسن الحيري أبو بكر ( ٣٢٥ — ٤٢١ )، أصولي متكلم محدث — (سمع منه في نيسابور : نقطة، شهبة، ذهبي، سبكي ) — انظر ترجمته في سبكي ٣ : ٣٠ شذرات ٣ : ٢١٧

٤ — أحمد بن الحسين الكسار أبو نصر (— ٤٣٣)، راوي سنن النسائي

— ( سمع منـه في دينور : نقطة ، شهبة ، ذهبي ) — انظر ترجمته في شذرات ٣ : ٢٥٠

٥ — أحمد بن عبد الله بن إسحاق المهراني أبو نعيم ( ٣٥٦ — ٤٣٠ ) ، الحافظ صاحب حلية الأولياء — ( سمع منه في أصفهان : ابن حاتم ، نقطة ، شهبة ، ذهبي ، سبكي ) — انظر ترجمته ومصادر البحث عنها في بروكلمن ١ : ٣٦٢ وذيله ١ : ٦١٦ .

٦ — أحمد بن محمد بن دوست ، أبو سعيد النيسابوري ( — ٤٧٩ ) ، شيخ الشيوخ ببغداد صاحب رباط مشهور ومريدين — ( سمع منه في بغداد : ابن عساكر ) — انظر ترجمته في نجوم ٥ : ١٢٤

٧ — أحمد بن محمد بن أحمد أبو الحسين بن المتيم ، الواعظ أقدم البغداديين سماعاً ممن أخذ منهم أبو بكر — ( سمع منه في بغداد : ابن حاتم ، شهبة ، ذهبي ، ابن عساكر ) — انظر ترجمته في تاريخ بغداد ٤ : ٣٧١

٨ — أحمد بن محمد بن عبــــد الله بن حفص بن الخليل أبو سعد الماليني ( — ٤١٢ ) ، الحافظ طاووس الفقهاء كان عنده من الكتب الطوال ما لم يكن عند غيره — ( سمع منه في بغداد : ابن حاتم ، شهبة ، سبكي ) — انظر ترجمته في تاريخ بغداد ٤ : ٣٧١ المنتظم ٨ : ٣ ، تذكرة ٣ : ٢٥٦ ، سبكي ٣ : ٢٤ ، شذرات ٣ : ١٩٥ ، تاريخ دمشق ١ : ٢٤٥ ، بداية ١٢ : ١١

٩ — أحمد بن محمد بن أحمد بن منصور أبو الحسن العتيقي ( ٣٦٧ — ٤٤١ ) ، التاجر الرحلة المحدث — ( سمع منه في بغداد : ابن حاتم ) — انظر ترجمته في تاريخ بغداد ٤ : ٣٧٩ شذرات ٣ : ٢٦٥

١٠ — أحمد بن محمد بن أحمد بن موسى بن هارون بن الصلت أبو الحسن الأهوازي المحدث — ( سمع منه في بغداد : ابن حاتم ، ابن عساكر ، نقطة ، شهبة ، ذهبي ) — انظر ترجمته في لسان الميزان ١ : ٢٥٥

١١ — أحمد بن محمد بن غالب ، أبو بكر البرقاني ( ٣٣٦ — ٤٢٥ ) —

حافظ ، ذو حظ من علم العربيـة ، عارف بالفقه ، لم ير الخطيب أثبت منـه — ( سمع منه في بغداد ، وحدث هو عنـه : ابن حاتم ، ابن عساكر ، نقطة ، شهبة ، ذهبي ، سبكي ) انظر ترجمته في تاريخ بغداد ٤ : ٣٧٣ — ٣٧٦ ، بداية ١٢ : ٣٦ منتظم ٨ : ٧٩ شذرات ٣ : ٢٢٨ ، نجوم ٤ : ٢٨٠ ، تاريخ دمشق ١ : ٤٤٧ ، معجم البلدان ١ : ٥٧٠

١٢ — إسماعيل بن أحمد النيسابوري الضرير أبو عبـد الرحمن الحيري ( ٣٦١ — بعد ٤٤٣ بيسير ) محدث فقيه — ( قرأ عليه في بغداد سنة ٤٢٣ صحيح البخاري : شهبة ١٣٩[١] ) — انظر ترجمته في تاريخ بغداد ٦ : ٣١٤ ، المنتظم ٨ : ١٠٥ وذكر وفاته سنة ٤٣١ ، سبكي ٣ : ١١٥ ، بداية ١٢ : ٤٧

١٣ — الحسن بن أحمد بن إبراهيم بن شاذان ، أبو علي البزار ( ٣٣٩ — ٤٢٦ ) متكلم على مذهب الأشعري حنيفي الفروع — ( سمع منه ببغـداد : ابن حاتم ، ابن عساكر ) — انظر ترجمتـه في تاريخ بغـداد ٧ : ٢٧٩ ، تبيين ٢٤٥ ، شذرات ٣ : ٢٢٩ ، بداية ١٢ : ٣٩

١٤ — الحسن بن علي بن أحمد بن بشار أبو محمد النيسابوري — ( سمع منه بالبصرة : ابن حاتم ، شهبة ، ذهبي )

١٥ — الحسن بن محمد بن الحسن أبو محمد بن الخلال ( ٣٥٢ — ٤٢٩ ) حافظ جمع تراجم عديدة — ( سمع منه ببغداد : ابن حاتم ) — انظر ترجمته في تذكرة ٣ : ٢٩٠ ، شذرات ٣ : ٢٦٢ ، بداية ١٢ : ٤٥

١٦ — الحسن بن محمد بن عبد الله بن حسنويه ، أبو سعيد الأصبهاني — ( سمع منه بأصفهان : ابن حاتم )

١٧ — الحسين بن الحسن الجواليقي أبو عبد الله بن العريف ، الراوي — ( سمع منه ببغداد سنة ٤٠٨ : ذهبي ، شهبة ) — انظر ترجمته في تاريخ بغداد ٨ : ٣٣

١٨ — الحسين بن محمد العكبري الصايغ — ( سمع منه بعكبرا سنة ٤١٠ ) — انظر ترجمته في تاريخ بغداد ٨ : ١٠٤

١٩ — [ طاهر بن عبـــد الله بن طاهر ] أبو الطيب الطبري ( ٣٤٨ — ٤٥٠ ) ، فقيه لم ير أبو إسحاق الشيرازي أكمل اجتهاداً وأشد تحقيقاً وأجود نظراً منه — ( علق عنه الفقه سنين : شهبة ، ذهبي ، سبكي ) — انظر ترجمته في المنتظم ٨ : ١٩٨ ، تهذيب الأسماء ١ : ٢ : ٢٤٧ ، سبكي ٣ : ١٧٦-١٩٧ ، نجوم ٥ : ٦٣ ، شذرات ٣ : ٢٨٤ ، بداية ١٢ : ٧٩

٢٠ — عبد الرحمن بن عبـــد الله بن عبيد الله أبو القاسم الحرفي ( أو الحرقي ) [ ٣٤٦ — ٤٢٣ ] ، محدث — ( سمع منـــه ببغداد : ابن حاتم ) — انظر ترجمته في شذرات ٣ : ٢٢٦

٢١ — عبد الرحمن [ بن محمد بن عبد الله القرني النيسابوري ] أبو القاسم السراج (— ٤١٨ ) من جلة العلماء — ( سمع منه بنيسابور : عساكر ، شهبة ، ذهبي ) — انظر ترجمته في شذرات ٣ : ٢١٠

٢٢ — [عبدالسيد بن محمد بن عبد الواحد] أبو نصر بن الصباغ (—٤٧٧) فقيه شافعي ، صاحب الشامل — ( علق عنه الفقه : حاتم ٨٧[١]، شهبة ١٣٨[١] ) — انظر ترجمته في بروكلمن ١ : ٣٨٨ وذيله ١: ٦٧١

٢٣ — عبد العزيز بن علي أبو القاسم الأزجي ( ٣٥٦ — ٤٤٤ ) — محدث وراق — ( سمع منه ببغداد : حاتم ) — انظر ترجمته في شذرات ٣ : ٢٧١

٢٤ — عبد الله بن أحمد الوذرجاني أبو القاسم ، المؤذن — ( سمع منـــه بأصفهان : حاتم )

٢٥ — أبو عبد الله الجمال — ( سمع منه بأصفهان : شهبة )

٢٦ — عبد الله بن يحيى ، أبو محمد السكري ( — ٤١٧ ) : محدث مشهور — ( سمع منــه ببغداد : عساكر ) — انظر ترجمته في شذرات ٣ : ٣٠٨ تاريخ بغداد ١٠ : ١٩٩

٢٧ — عبد الملك بن محمد بن عبد الله أبو القاسم بن بشران ( ٣٥١ —

٤٣٠ ) ـــ واعظ محدث ( سمع منه ببغداد : حاتم نقطة ) انظر ترجمته في ذيل بروكلمن ١ : ٦٠١

٢٨ ـــ [ عبد الواحد بن محمد بن عبـــد الله البزاز ] ابو عمر بن مهدي الفارسي ( ٣١٨ ـ ٤١٠ ) محدث ـ ( سمع منه ببغداد : عساكر ، نقطة ، شهبة ذهبي ، سبكي ) ـ انظر ترجمته في شذرات ٣ : ١٩٢

٢٩ ـــ عبيد الله بن احمد بن عثمان ابو القاسم الأزهري (٣٥٥ ـ ٤٣٥) فقيه ومحدث مكثر ـ ( سمع منه ببغداد : حاتم ، عساكر ) ـ انظر ترجمته في سبكي ٣ : ٢٨٦ ، نجوم ٥ : ٣٧ ، شذرات ٣ : ٢٥٥ ، بداية ١٢ : ٥١

٣٠ ـــ علي بن احمد بن محمد بن بكران ، ابو الحسن الغوي ـ ( سمع منه بالبصرة : حاتم ) ، ولعله علي بن محمد بن احمد بن ايوب المقري الغلاظي من اهل البصرة روى عنه الخطيب : انساب ٤١٤[1]

٣١ ـــ علي بن احمد بن هارون ابوالحسن المعدل ـ ( سمع منه بالبدران ؟ لعلها همذان او المداين : حاتم )

٣٢ ـــ علي بن القاسم بن الحسن ابو القاسم الشاهد ـ ( سمع منه بالبصرة حاتم ، نقطة ، شهبة ، ذهبي )

٣٣ ـــ علي بن محمد بن عبد الله ابو الحسين بن بشران ( ٣٢٨ ـ ٤١٥ ) محدث ـ ( سمع منه ببغداد : حاتم ، عساكر ، شهبة ، سبكي ) ـ انظر ترجمته في شذرات ٣ : ٢٠٣

٣٤ ـــ علي بن محمد بن محمد الطرازي ـ ( سمع منه بنيسابور : عساكر ، شهبة )

٣٥ ـــ [ علي بن يحيي بن جعفر ] ابو الحسن بن عبد كويه ( ـ ٤٢٢ ) محدث إمام جامع اصفهان ـ ( سمع منه بأصفهان : ذهبي ) ـ انظر ترجمته في شذرات ٣ : ٢٢٥

٣٦ ـ عمر بن احمد بن إبراهيم أبو حازم العبدوي ( ـ ٤١٧ ) ، لم يرِ

الخطيب احداً اطلق عليه اسم الحفظ إلا هو وابا نعيم — (سمع منه بنيسابور : نقطة ، شهبة ، سبكي ) — انظر ترجمتـه في تذكرة ٣ : ٢٥٨ ، سبكي ٤ : ٧ ، شذرات ٣ : ٢٠٨ ، تاريخ بغداد ١١ : ٢٧٢

٣٧ — عمر بن احمد بن ابي عمرو ، ابو حفص البزاز — (سمع منه بعكبرا : حاتم ) .

٣٨ — القاسم بن جعفر بن عبد الواحد . ابو عمر الهاشمي (٣٢٢— ٤١٤) راوي السنن — (سمع منه بالبصرة : حاتم ، عساكر ، نقطة ، شهبـة ، ذهبي ، سبكي ) — انظر ترجمته في تاريخ بغداد ١٢ : ٤٥١ شذرات ٣ : ٢٠١

٣٩ — محمد بن أحمد بن رزقويه ابو الحسن البزاز ( ٣٢٥ — ٤١٢ ) ، محدث كثير السماع والكتابة — ( اول شيخ سمع منه ببغـداد سنة ٤٠٣ . ثم ٤٠٦ . حاتم ، عساكر ، نقطة ، شهبـة ، ذهبي ، سبكي ) — انظر ترجمته في تاريخ بغداد ١ : ٣٥١ ؛ المنتظم ٨ : ٤ ، نجوم ٤ : ٢٥٦ ، شذرات ٣ : ١٩٦ ، البداية ١٢ : ١٢

٤٠ — [ محمد بن احمد بن محمد البغدادي ] ابو الفتح بن ابي الفوارس ( ٣٣٨ — ٤١٢ ) ، ذو حفظ وانتخاب على المشايخ — ( سمع منـه ببغداد : شهبة ، ذهبي ، سبكي ) — انظر ترجمته في تاريخ بغداد ١ : ٣٥٣ المنتظم ٨ : ٥ ، تذكرة ٣ : ٢٤٠ ، شذرات ٣ : ١٩٦

٤١ — محمد بن الحسن ، أبو العلاء الوراق ( ٣١٨ — ٤١٢ ) ، محدث — (سمع منه ببغداد : شهبة ) — انظر ترجمتـه في تاريخ بغداد ٢ : ٢١٦ ، المنتظم ٨ : ٦

٤٢ — [ محمد بن الحسن بن أحمد ] أبو علي الأهوازي [ في الأنساب ابن أبي علي] — ( سمع منه في دمشق : شهبة ) — انظر ترجمته في انساب ٥٣

٤٣ — محمد بن الحسين بن بلبر ؟ — ( سمع منه ببغداد : شهبة )

٤٤ — محمد بن الحسين بن الفضل أبو الحسين القطان — ( سمع منه ببغداد حاتم )

٤٥ — محمد بن عبد الرحمن بن أبي نصر — ( سمع منه بدمشق : شهبة )

٤٦ — محمد بن الله بن شهريار — ( سمع منه بأصفهان : نقطة ، ذهبي )

٤٧ — محمد بن عمر البلدي المعروف بابن الحطراني ( — ٤١٠ ) من أهل العلم والقرآن — ( سمع منه ببغداد : شهبة ) — انظر ترجمته في أنساب ١٧١[١]

٤٨ — محمد بن عيسى — ( سمع منه بهمذان : شهبة ، ذهبي )

٤٩ — محمد بن موسى بن الفضل بن شاذان ابو سعيد الصيرفي (— ٤٢١ ) — سمع الكثير — ( سمع منه بنيسابور : نقطة ، شهبة ، عساكر ) — شذرات ٣ : ٢٢٠

٥٠ — هلال بن محمد الحفار ( ٣٢٢ — ٤١٤ ) ، محدث — ( سمع منه ببغداد : عساكر ، نقطة ، شهبة ، ذهبي ، سبكي ) — تاريخ بغداد ١٤ : ٧٥ ، المنتظم ٨ : ١٥ ، شذرات ٣ : ٢٠١

## أقرانه حدّث عنهم وحدثوا عنه

٥١ — [ إبراهيم بن علي الفيروزابادي ] ابو إسحاق الشيرازي (— ٤٧٦) فقيه شافعي أول مدرس في النظامية ببغداد — ( تلاقيا في بغداد : شهبة ١٤٠[١] وسبكي ٣ : ١٤ ) — انظر ترجمته ومصادرها في بروكلمن ١ : ٣٨٧ وذيله ١ : ٦٦٩

٥٢ — [ أحمد بن الحسن بن أحمد ] بن خيرون أبو الفضل ( — ٤٨٨ ) حافظ ناقد — ( لقيه في بغداد : شهبة ، ذهبي ) — تذكرة ٤ : ٧ ، لسان الميزان ١ : ١٥٥ ، شذرات ٣ : ٣٨٣ ، بداية ١٢ : ١٤٩

٥٣ — عبد العزيز بن أحمد ، أبو محمد الكتاني ( ٣٨٩ — ٤٦٦) ، صوفي حافظ مكثر — ( تلاقيا في دمشق : عساكر ، نقطة ، ذهبي ، سبكي ) — تذكرة ٣ : ٣٤٢ ، نجوم ٥ : ٩٦ ، شذرات ٣ : ٣٢٥ ، بداية ١٢ : ١٠٩

٥٤ — [ علي بن هبة الله بن جعفر ] أبو نصر بن ماكولا ( ٤٢٢ — ٤٨٧ ) لم يكن ببغداد بعد الخطيب أحفظ منه — ( تلاقيا في بغداد : شهبة ،

ذهبي ، سبكي ) — انظر ترجمته ومصادرها في بروكلمن ١ ٣٥٤ وذيله ١ : ٦٠٢

٥٥ — [ المبارك بن عبد الجبار بن أحمد ] أبو الحسين الطيوري ( ٤١١ — ٥٠٠ ) ، محدث مكثر — ( تلاقيا في بغداد : شهبة ، ذهبي ) لسان الميزان ١١ : ٩ — ١١ ، شذرات ٣ : ٤١٢

٥٦ — [محمد بن فتوح بن عبدالله] ابو عبدالله الحميدي المغربي الأندلسي ، أحد حفاظ عصره ( — ٤٨٨ ) ، ( روى أحدهما عن الآخر : شهبة ، ذهبي ) — انظر ترجمته في أنساب ١٧٧[٢] ، المنتظم ٩ : ٩٦ ، إرشاد ١٨ : ٢٨٣

٥٧ — نصر [ بن إبراهيم بن نصر ] المقدسي ( — ٤٩٠ ) ، فقيه — ( روى أحدهما عن الآخر . شهبة ، ذهبي ) — انظر ترجمته ومصادرها في ذيل بركلمن ١ : ٦٠٣

## تلامذته

٥٨ — أحمد بن أحمد أبو السعادات المتوكلي ( ٤٤١ — ٥٢١ ) ، إمام محدث — ( حدث ابن عساكر عن الخطيب ببغداد . ابن عساكر ، شهبة ، ذهبي ) — نجوم ٥ : ٢٣٢ ، شذرات ٤ : ٦٤

٥٩ — احمد بن عبد الواحد بن زريق — ( حدث ابن عساكر عن الخطيب ببغداد : عساكر ، شهبة )

٦٠ — أحمد بن علي البزاز أبو السعود المجلى ( — ٥٢٥ ) شيخ مبارك عامي — ( حدث ابن عساكر عن الخطيب ببغداد : ابن عساكر ، شهبة ) — شذرات ٤ : ٧٣

٦١ — أحمد بن محمد الزوزني ، أبو سعد — ( روى عن الخطيب : شهبة ١٤٠[٢] )

٦٢ — [ إسماعيل بن أحمد ] أبو القاسم السمرقندي ( ٤٥٤ — ٥٣٨ ) ،

( حدث ابن عساكر عن الخطيب ببغداد : عساكر ، نقطة ، شهبة ، سبكي )
انظر ترجمته في سبكي ٤ : ٢٠٤

٦٣ — بدر بن عبد الله الشيحي — ( حدث ابن عساكر عن الخطيب ببغداد : عساكر ، شهبة ) — انظر ترجمته في سمعاني ٣٤٣[١]

٦٤ — بركات بن عبد العزيز النجاد أبو الحسن ( حدث ابن عساكر عن الخطيب ببغداد : عساكر ، شهبة )

٦٥ — أبو بكر الأنصاري القاضي — حدث ابن عساكر عن الخطيب ببغداد : شهبة ، سبكي )

٦٦ — أبوالحسن بن سعيد — ( حدث ابن عساكر عن الخطيب بدمشق : عساكر ، شهبة )

٦٧ — حيدره بن أحمد بن الحسين الأنصاري المعروف بالحروف ( — ٥٠٦ ) مقرئ — ( حدث ابن عساكر عن الخطيب بدمشق : عساكر ، شهبة ) انظر ترجمته في تاريخ دمشق ٥ : ٢٠

٦٨ — أبو طاهر بن الجرجاني — ( حدث ابن عساكر عنه بدمشق . عساكر ، شهبة )

٦٩ — طاهر بن سهل بن بشر بن أحمد الاسفرائيني الصائغ ( ٤٥٠ — ٥٣١ ) ، عسر جاهل بالحديث — ( حدث ابن عساكر عنه بدمشق : عساكر شهبة ، ذهبي ) — تاريخ دمشق ٧ : ٤٨ ، لسان الميزان ٣ : ٢٠٧

٧٠ — عبد الرحمن بن محمد بن زريق الشيباني ، أبو منصور القزاز ( — ٥٣٥ ) محدث — ( حدث ابن عساكر عن الخطيب ببغداد : عساكر ، نقطة ، شهبة ، ذهبي ، سبكي ) — شذرات ٤ : ١٠٦

٧١ — عبد الكريم بن حمزة أبو محمد السلمي الحداد ( — ٥٢٦ ) ، مسند الشام — ( حدث ابن عساكر عن الخطيب بدمشق : عساكر ، شهبة ، ذهبي ) — انظر ترجمته في شذرات ٤ : ٧٨

٧٢ — عبد الله بن أحمد السمرقندي (٤٤٤ — ٥١٦) محدث — (روى عن الخطيب : نقطة ، شيبة ، ذهبي ، سبكي) — انظر ترجمته في تذكرة ٤ : ٥٧ شذرات ٤ : ٤٩ ، بداية ١٢ : ١٩١

٧٣ — [علي بن ابراهيم بن العباس] أبو القاسم النسيب (٤٢٤ — ٥٠٨) ، الخطيب الرئيس المحدث — (حدث ابن عساكر عن الخطيب بدمشق: عساكر ، شيبة ، ذهبي) — انظر ترجمته في شذرات ٤ : ٢٣

٧٤ — علي بن أحمد بن قبيس الغساني أبو الحسن — (حدث ابن عساكر عن الخيطب بدمشق : عساكر ، شيبة ، ذهبي)

٧٥ — غيث [بن علي بن عبد السلام ، أبو الفرج الصوري] الأرمنازي ، خطيب صور ومحدثها (٤٤٣ — ٥٠٩) (حدث ابن عساكر عنه بدمشق : عساكر ، شيبة) — انظر ترجمته في سمعاني ٢٦[٢] ، شذرات ٤ : ٢٤

٧٦ — أبو القاسم بن أبي العلاء — (من أقران الخطيب حدث عنه : عساكر ، شيبة)

٧٧ — [محمد بن الحسين بن علي بن إبراهيم الشيباني] ، أبو بكر المرزفي (٤٣٩ — ٥٢٧) مقرئ فرضي حنبلي — (حدث ابن عساكر عن الخطيب ببغداد : شيبة) — انظر ترجمته في شذرات ٤ : ٨١

٧٨ — محمد بن أحمد بن عبد الباقي — (حدث ابن عساكر عنه : عساكر)

٧٩ — [محمد بن عبد الملك بن الحسن] ابو منصور بن خيرون (٤٥٤ ؟ — ٥٣٩) ، مقرئ (حدث ابن عساكر عن الخطيب ببغداد : عساكر ، نقطة ، شيبة ، ذهبي) — انظر ترجمته في شذرات ٤ : ١٢٥

٨٠ — محمد بن ابي العلاء المصيصي — (حدث ابن عساكر عنه بدمشق : عساكر ، شيبة ، ذهبي)

٨١ — [محمد بن علي بن ميمون الكوفي] ابو الغنائم أبي النرسي (٤٢٤ — ٥١٠) ، مقرئ (ذكر شيبة والذهبي انه من مشايخ الخطيب ، وهو احرى

بأن يكون تلميذه ، فأدرجناه هنا ) انظر ترجمته في تذكرة ٤ ٠ ٦٠ ٥ شذرات ٤ : ٢٩

٨٢ — محمد بن عمر الأرموي القاضي ( — ٥٤٧ ) — ( آخر من حدث عنه بالسماع : شهبة ١٤٠[٢] ، تذكرة ٣: ٣١٩ ) وترجمته في الشذرات ٤ : ١٤٥

٨٣ — محمد بن محمد بن زيد العلوي البغدادي ابو المعالي الشريف المرتضى ( ٤٥١ — ٤٨٠ ) . محدث متشيع — ( تخرج بالخطيب ولازمه ) — ترجمته في تذكرة ٤ : ٩ ، الوافي بالوفيات للصفدي ١ : ١٤٣ ، شذرات ٣ : ٣٦٥

٨٤ — محمد بن مرزوق الزعفراني ( ٤٤٢ — ٥١٧ ) حافظ تاجر — ( روى عنه : نقطة ، شهبة ، ذهبي ، سبكي ، وكان من أصحابه : ذيل ابن رجب ١١٩ ) — ترجمته في شذرات ٤ : ٥٧ ، المنتظم ٩ : ٢٤٩

٨٥ — أبو المعالي بن الشعيري ( حدث ابن عساكر عنه بدمشق : عساكر ، شهبة )

٨٦ — مفلح بن أحمد الرومي البغدادي ( — ٥٣٧ ) ، وراق — ( روى عن الخطيب : نقطة ، شهبة ١٤٠[٢] ) — ترجمته في شذرات ٤ : ١١٦

٨٧ — نصر الله [ بن محمد بن عبد القوي ] أبو الفتح الفقيه المصيصي (٤٤٨ —٥٤٢ ) ، خاتم الأشعرية — ( حدث ابن عساكر عنه بدمشق : عساكر ، شهبة ، ذهبي ) — ترجمته في أنساب ٥٣٢[٢] ، تبيين ٣٣٠ ، بداية ١٢ : ٣٢٣

٨٨ — هبة الله [ بن أحمد بن محمد ] بن الأكفاني أبو محمد (— ٥٢٤) ، حافظ محدث — ( حدث ابن عساكر عنه بدمشق ) — ترجمته في نجوم زاهرة ٥ : ٢٣٥ ، شذرات ٤ : ٧٣

٨٩ — هبة الله بن عبد الله [ أو ابن أحمد ] أبو القاسم الشروطي

( — ٥٢٨ ) ، محدث فقيه — ( حدث ابن عساكر عن الخطيب ببغداد : عساكر ، شهبة ، ذهبي ) — ترجمته في شذرات ٤ : ٨٦

٩٠ — [ يحيي بن علي ] أبو زكريا الخطيب التبريزي ( — ٥٠٢ ) أديب ( سمع كتب الأدب المقروءة عليه ، شهبة ١٣٨[٢] ) — ترجمته ومصادرها في بروكلمن ١ : ٢٧٩ وذيله ١ : ٤٩٢

٩١ — يوسف بن أيوب أبو يعقوب الهمداني ( ٤٤١ — ٥٣٥ ) ، شيخ الصوفية بمرو — ( حدث ابن عساكر عن الخطيب بمرو : عساكر ، شهبة ، ذهبي ) — ترجمته في شذرات ٤ : ١١٠

## ملحق بأسماء تلامذته

٩٢ — إبراهيم بن مياس بن مهدي ، أبو إسحاق القشيري ( — ٥٠١ ) ( أكثر عن الخطيب : ابن الجوزي في المنتظم ٩ : ١٥٨ )

٩٣ — عبيد الله بن محمد بن السين ، أبو القاسم الفرا ( ٤٤٣ — ٤٦٩ ) — فقيه محدث ( نقل عن الخطيب : ابن النجار ، ذيل تاريخ بغداد ، ظاهرية تاريخ ٤٢ ، ١٠٥[١] )

٩٤ — مكي بن عبدالسلام المقدسي أبوالمباس أو أبوالقاسم الرميلي (٤٣٢ — ٤٩٢ ) — محدث مؤرخ : ( أخذ عنه تذكرة ٤ : ٢٦ ، سبكي ٤ : ٢٠ ، شذرات ٣ : ٣٩٨ )

٩٥ — المؤتمن بن أحمد بن علي الساجي ( ٤٤٥ — ٥٠٧ ) - ( سمع من الخطيب بصور : تذكرة ٤ : ٤٢ ، سبكي ٤ : ٣١٣ ، شذرات ٤ : ٢٠ )

٩٦ — هبة الله بن عبد الوارث ، أبو القاسم الشيرازي ( — ٤٨٦ ) — محدث متصوف ( أخذ عنه : شذرات ٣ : ٣٧٩ )

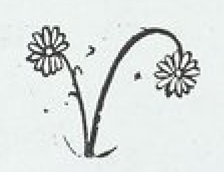
٩٧ — علي بن عقيل بن محمد بن عقيل . أبو الوفاء (— ٥١٣) — الفقيه

إمام عصره ( الخطيب من مشايخه : المنتظم ٩ : ٢١٢ . وذيل ابن رجب . ظاهرية تاريخ ٦٠ )

٩٨ — محمد بن عبد البـاقي [ بن محمد بن عبد الرحمن الأنصاري ] أبو بكر النصري ( — ٥٣٥ ) محدث جامع للفنون — ( حدث عنه : نقطة . الأنساب ٥٦١[2] . شذرات ٤ : ١٠٨ )

٩٩ — محمـد بن محمـد [ بن الحسين ] بن الفرا أبو الحسين بن الفرا ( ٤٥٢ — ٥٢٦ ) — فقيـه حنبلي ( حدث عنه : نقطة ، الأنساب ٤٢٠[1] ، شذرات ٤ : ٧٩ )

١٠٠ — ابراهيم بن منصور الفقيه الكرخي — ( حدث عنه . نقطة )



# تسمية ما ورد به الخطيب البغدادي دمشق

## من روايته من الأجزاء المسموعة والكبار المصنفة وما جرى مجراها سوى الفوائد والأمالي والمنثور

أوردها دون ترتيب محمد بن أحمد بن محمد المالكي الأندلسي في مخطوط بالظاهرية رقمه : مجموع ١٨ ( ٦ ) . ولكي تتم الفائدة منها رتبنا أسماء الكتب التي ذكرت فيها على موضوعات العلوم ( علوم القرآن ؛ الحديث ؛ الفقه ؛ الكلام والزهد والرقائق ؛ علوم اللغة ؛ الأدب ؛ التاريخ ؛ تفسير الأحلام ) ثم على الحروف في كل موضوع ؛ وبقي عدد من الكتب جهلنا موضوعها ، فأدرجناها في آخر التعداد .

وقد بذلنا قصارى جهدنا في أن ندرج أسماء المؤلفين كاملة بينة ؛ فاستفدنا من ورودها واضحة أو موضحة في بعض أماكن من هذه التسمية ؛ فأتممناها على أكمل نحو وردت فيه ؛ وأتبعناها وما بقي منها مبهماً في الفهرست لابن النديم وفهرسة ما رواه أبو بكر بن خير والرسالة المستطرفة وأصول أخرى ؛ حتى إذا وجدنا لأحد مؤلفيها كتاباً مذكوراً فيها ؛ وفي أحد هذه المصادر ، أكملنا اسم ذلك المؤلف ، وذكرنا حذاء كتابه الذي كان سبب اهتدائنا مكان ذكره في هذه المصادر . أما المؤلفون المشهورون الذين لا تدع أسماؤهم مجالاً للالتباس ؛ فقد أتممناها من كتب التراجم . وأغفلنا ما تبقى بعد كل ذلك لئلا نقع في الغلط او لأن الاسم كاف في الدلالة على صاحبه .

وقد وضعنا تتمة الأسماء بين قوسين [ ] . وفوق كل ذي علم عليم .

## علوم القرآن

١ — اختلاف حمزة والكسائي لنصير بن يوسف

٢ — اختلاف حملة القرآن للآجري [أبي بكر محمد بن الحسين]

٣ — اختلاف المصاحف لنفطويه [أبي عبد الله إبراهيم بن محمد]

٤ — كتاب الاستثناء والشروط في كتاب الله تعالى لنفطويه [أبي عبد الله إبراهيم بن محمد : الفهرست ٨٢]

٥ — تفسير ابن أبي نجيح عن مجاهد

٦ — تفسير سعيد بن منصور

٧ — تفسير سفيان الثوري

٨ — تفسير شبل بن عباد

٩ — تفسير عطية العوفي

١٠ — تفسير عكرمة عن ابن عباس

١١ — تفسير قتادة [بن دعامة]

١٢ — تفسير مقاتل بن حبان

١٣ — تفسير مقاتل بن سليمان

١٤ — تفسير الوليد بن مسلم

١٥ — كتاب الجوابات في القرآن لمقاتل بن سليمان

١٦ — كتاب الرد على من خالف الامام مصحف عثمان لابن الأنباري [أبي بكر محمد بن القاسم : الفهرست ٧٥]

١٧ — كتاب عدد سجود القرآن لابراهيم [بن إسحاق] الحربي

١٨ — غريب القرآن لابن قتيبة [عبد الله بن مسلم]

١٩ — غريب القرآن للترمذي

٢٠ — غريب القرآن لمؤرّج بن عمرو [السدوسي]

٢١ — فضائل القرآن لخلف ابن هشام

٢٢ — فضائل القرآن لعبّاد بن يعقوب

٢٣ — فضائل القرآن لمحمد بن أيوب الرازي

٢٤ — فضائل القرآن لمحمد بن الفضل السقطي

٢٥ — فضائل القرآن ليحيى الحماني

٢٦ — القراءات لابى عبيد [القاسم بن سلام]

٢٧ — قراءات أهل المدينة لاسمعيل ابن جعفر

٢٨ — قراءات أهل مكة للخزاعي

٢٩ — قراءة ابن عامر

٣٠ — قراءة ابن محص ؟

٣١ — قراءة أبي عمرو [ بن العلاء ] من طريق اليزيدي عنه من طريقين ومن طريق الأصمعي عنه ومن طريق الحربي عنه

٣٢ — قراءة الأعمش [ سليمان ابن مهران ]

٣٣ — قراءة الحسن البصري

٣٤ — قراءة حمزة

٣٥ — قراءة عاصم من طريق يحيي بن أدم عن أبي بكر عنه

٣٦ — قراءة يعقوب [ لعله ابن ابراهيم ]

٣٧ — كتاب اللطائف في هجاء المصاحف

٣٨ — اللغات في القرآن للفراء [ أبي زكريا يحيي بن زياد ]

٣٩ — كتاب اللغات في القرآن لمقاتل بن سليمان

٤٠ — مشكل القرآن لابن قتيبة [ عبد الله بن مسلم ]

٤١ — مشكل القرآن لثعلب

٤٢ — كتاب المصاحف لابن أبي داود [عبد الله بن سليمان السجستاني]

٤٣ — المصاحف لأبي بكر بن أبي شيبة [ عبد الله بن محمد ]

٤٤ — معاني القرآن للفراء [ أبي زكريا يحيي بن زياد ]

٤٥ — الناسخ والمنسوخ لأبي داود [ السجستاني ]

٤٦ — الناسخ والمنسوخ لأبي عبيد [ القاسم بن سلام ]

٤٧ — الناسخ والمنسوخ للجعد [ لعله أبو بكر محمد بن عثمان ]

٤٨ — الناسخ والمنسوخ لشريح ابن يوسف بن يونس ؟

٤٩ — الناسخ والمنسوخ لعطاء الخراساني

٥٠ — الناسخ والمنسوخ لقتادة [ ابن دعامة ]

٥١ — الناسخ والمنسوخ ليزيد النحوي ( ؟ )

٥٢ — وقف التمام لنافع [ بن عبد الرحمن المدني ]

٥٣ — كتاب الوقف والابتداء لابن الأنباري [ أبي بكر محمد بن القاسم ]

٥٤ — كتاب الوقف والابتداء لأبي عمرو بن العلاء

٥٥ — الوجوه والنظائر للعباس ابن الفضل الأنصاري

٥٦ — الوجوه والنظائر لمقاتل ابن سليمان

٥٧ — ياقوتة الصراط [ في غريب القرآن ] لأبي عمر الزاهد [ أحمد بن محمد المطرز ؛ ابن خليفة ٦٠ ]

## الحديث

٥٨ — كتاب اختلاف الحديث للشافعي [ محمد بن إدريس ]

٥٩ — كتاب الأدب للبخاري [ محمد بن إسماعيل ]

٦٠ — كتاب الأربعين لابن شاهين [ عمر بن احمد ]

٦١ — كتاب الأربعين للحسن ابن سفيان [ بن عامر الشيباني : ابن خليفة ١٥٧ ]

٦٢ — كتاب الأربعين حديثاً لمحمد بن أسلم

٦٣ — إصلاح احاديث المغازي للواقدي [ ابي عبد الله محمد بن عمر ]

٦٤ — إصلاح غلط ابي عبيد [ في غريب الحديث ] لابن قتيبة [عبد الله بن مسلم : ابن خليفة ١٨٨ ]

٦٥ — امالي عبد الرزاق [ بن همام ]

٦٦ — الأوهام لعبد الغني [ بن سعيد ]

٦٧ — التتبع على البخاري ومسلم للدارقطني [ علي بن عمر ]

٦٨ — كتاب التفرد لأبي داود السجستاني ( فيه ما تفرد به اهل الأمصار من السنن : ابن خليفة ١٠٩ ]

٦٩ — كتاب التمييز [ في الحديث ] لمسلم [ بن الحجاج القشيري : ابن خليفة ٢١٢ : كشف الظنون ٢ : ٢٧٠ ]

٧٠ — كتاب الجامع للثوري

[سفيان] من طريق الأسجمي ومن طريق عبيد الله بن موسى ايضاً

٧١ — جامع عبد الرزاق [بن همام]

٧٢ — حديث الفتون

٧٣ — حديث مالك جمع ابي بكر الشافعي [محمد بن عبد الله البزار : ترجمته في الرسالة المستطرفة ٦٩]

٧٤ — حديث مرسه ؟ بنت مروان بن محمد

٧٥ — خطبة الوداع للنبي (صلى الله عليه وسلم)

٧٦ — كتاب الرمي والنضال للدارقطني [علي بن عمر]

٧٧ — كتاب السنة لأبي عبد الله الفقيه

٧٨ — كتاب السنة للزبيري

٧٩ — كتاب السنة ليعقوب بن سفيان

٨٠ — السنن لابي داود [السجستاني]

٨١ — السنن لابي قرة

٨٢ — السنن للدارقطني [علي ابن عمر]

٨٣ — السنن لمحمد بن الصباح [البزار]

٨٤ — سؤالات البرقاني للدارقطني [علي بن عمر]

٨٥ — علل ابي زرعة الرازي

٨٦ — علل ابي بكر الأثرم [احمد بن محمد : فهرست ٢٢٩]

٨٧ — كتاب العلل للدارقطني [علي بن عمر]

٨٨ — كتاب العلل لعمرو بن علي [لعله القلاس]

٨٩ — العلل ليحي القطان

٩٠ — كتاب العلم لأبي خيثمة ؟

٩١ — غرائب حديث الزهري لابن مظفر

٩٢ — غرائب حديث مسعر لابن مظفر

٩٣ — غرائب مالك للآنبدوني [ابي القاسم عبد الله بن إبراهيم الجرجاني]

٩٤ — غرائب حديث مالك لدعلج

٩٥ — غرائب حديث مالك للطبراني [سليمان بن احمد]

٩٦ — غرائب مالك لأبي بكر النيسابوري

٩٧ — غريب الحديث لابن قتيبة [عبد الله بن مسلم]

٩٨ — غريب الحديث لأبي عبيد [ القاسم بن سلام ]

٩٩ — كتاب آدم ( ؟ ) عن شعبة

١٠٠ — كتاب علي بن الجعد [ أبي الحسن الهاشمي ]

١٠١ — كلام البرديجي في معرفة أصول الحديث

١٠٢ — كتاب المدخل إلى الصحيح للاسماعيلي [ أبي بكر أحمد ابن إبراهيم ، سمعاني ١٣٦[1] ]

١٠٣ — مسند أبي حنيفة لابن شاهين [ عمر بن أحمد ]

١٠٤ — مسند أبي حنيفة لابن مظفر

١٠٥ — مسند أبي حنيفة للدارقطني [ علي بن عمر ]

١٠٦ — مسند أبي داود الطيالسي

١٠٧ — مسند أحمد بن حنبل

١٠٨ — مسند الأوزاعي للطبراني [ سليمان بن أحمد ]

١٠٩ — مسند الثوري للبرقاني [ أحمد بن محمد ]

١١٠ — مسند الثوري للطبراني [ سليمان بن أحمد ]

١١١ — مسند الحارث بن أبي أسامة

١١٢ — مسند الشافعي [ محمد بن أدريس ]

١١٣ — المسند الصحيح لأحمد ابن علي الأصبهاني

١١٤ — المسند الصحيح للبرقاني [ أحمد بن محمد ]

١١٥ — مسند العشرة لأبي الحسن المادرائي

١١٦ — مسند العشرة وغيرهم لاسماعيل بن إسحاق القاضي

١١٧ — مسند العشرة لجعفر بن المنادي

١١٨ — مسند كتب عبد الرزاق [ ابن همام ] منها الطهارة والصلاة والزكاة والحج والصيام والجهاد والنكاح والطلاق والرضاع والحدود وغير ذلك

١١٩ — مسند مالك لاسماعيل [ ابن إسحاق ] القاضي

١٢٠ — مسند مسدد

١٢١ — مشكل الحديث لابن قتيبة [ عبد الله بن مسلم ]

١٢٢ — كتاب المؤتلف والمختلف للدارقطني [ علي بن عمر ]

## الفقه

١٢٣ — اختلاف العلماء للآجري [ أبي بكر محمد بن الحسين ]

١٢٤ — أدب الجدل لابن العاص

١٢٥ — كتاب الاستخارة والاستشارة للزبيري

١٢٦ — كتاب الأضاحي لابن أبي الدنيا

١٢٧ — الأموال لأبي عبيد [ القاسم بن سلام ]

١٢٨ — كتاب تحريم الذهب والحرير للفريابي [ جعفر بن محمد ]

١٢٩ — كتاب جماع العلم للشافعي [ محمد بن أدريس ]

١٣٠ — كتاب الجنائز لجعفر [ ابن محمد ] الفريابي

١٣١ — كتاب الجنائز لعبد الوهاب بن عطاء

١٣٢ — كتاب الجنائز لابن صاعد [ لعله أبو محمد يحي بن محمد ]

١٣٣ — كتاب الجهاد لابن المبارك [ عبدالله: الرسالة المستطرفة ٣٧ ]

١٣٤ — كتاب الجهاد لسعيد بن منصور

١٣٥ — كتاب حدائق القضاة للنقاش [ أبي بكر محمد بن الحسين ]

١٣٦ — كتاب الحيض لأبي عبيد [ القاسم بن سلام ]

١٣٧ — كتاب الخراج ليحي ابن آدم

١٣٨ — رأي الفقهاء السبعة

١٣٩ — الرد على أبي حنيفة للأوزاعي [ عبد الرحمن بن عمرو ]

١٤٠ — الرد على أبي حنيفة لمُطيّن [ لعله محمد بن عبدالله الحضرمي ]

١٤١ — كتاب الرد على محمد بن الحسين للشافعي [ محمد بن ادريس ]

١٤٢ — كتاب الرسالة للشافعي [ محمد بن ادريس ]

١٤٣ — كتاب رفع اليدين في الصلاة للبخاري [ محمد بن إسماعيل ]

١٤٤ — كتاب زكاة الفطر لجعفر [ ابن محمد ] الفريابي

١٤٥ — كتاب الزكاة ليوسف القاضي

١٤٦ — كتاب الصور والتماثيل للفريابي [ جعفر بن محمد ]

١٤٧ — كتاب الصيام ليوسف القاضي

١٤٨ — الطهارة لأبي عبيد [القاسم ابن سلام]

١٤٩ — الفرائض لأحمد بن حنبل

١٥٠ — الفرائض للثوري [سفيان]

١٥١ — كتاب الفرائض ليزيد ابن هارون [أبي خالد : الفهرست ٣٣]

١٥٢ — كتاب فهم المناسك للنقاش [أبي بكر محمد بن الحسن : الفهرست ٣٣]

١٥٣ — كتاب القراءة وراء الامام للبخاري [محمد بن إسماعيل]

١٥٤ — مختصر عبد الله بن عبد الحكم [أبي محمد المصري]

١٥٥ — كتاب المرض والكفارات لابن أبي الدنيا

١٥٦ — مسألة إبطال النكاح بغير ولي لابن حمدان

١٥٧ — مسألة الامرا (؟) لنفطويه [إبراهيم بن محمد]

١٥٨ — مسألة بريرة لأبي خزيمة

١٥٩ — مسألة سبحق [لعلها سبحان] لنفطويه [إبراهيم بن محمد]

١٦٠ — مسألة وجوب العمرة

١٦١ — مسائل ابن عمار الموصلي

١٦٢ — كتاب المسائل لابن قتيبة [عبد الله بن مسلم]

١٦٣ — كتاب مسائل أبي بكر [أحمد بن محمد] المرودي لأحمد [ابن حنبل]

١٦٤ — مسائل أبي داود لأحمد [ابن حنبل]

١٦٥ — مسائل أبي عبيد الآجري لأبي داود [السجستاني]

١٦٦ — كتاب المناسك لابراهيم [ابن إسحاق] الحربي

١٦٧ — كتاب المناسك لأبي الحسين [جعفر] بن المنادي

١٦٨ — منتخب كتب سعيد بن منصور في الأحكام

١٦٩ — كتاب الموطأ [لمالك] من طريق العمني ومن رواية ابن وهب وابن العا . ؟ ومن طريق سويد ابن سعيد ومن طريق قتيبة وسويد أيضاً ومن طريق معن بن عيسى [وآخر غير مقروء]

١٧٠ — كتاب النكاح لسعيد ابن منصور

## الكلام والزهد والرقائق

١٧١ — إثبات (؟) الأولياء للقشيري [ عبد الكريم بن هوازن ]

١٧٢ — أخبار الصوفية للقشيري [ عبد الكريم بن هوازن ]

١٧٣ — كتاب أعلام النبوة لابن قتيبة [ عبد الله بن مسلم ]

١٧٤ — كتاب البر والصلة ليعقوب بن سفيان

١٧٥ — كتاب التفكر والاعتبار لابن أبي الدنيا

١٧٦ — كتاب التفكر واعقاب السرور والأحزان لابن أبي الدنيا [ لم يذكر في فهرست كتب ابن أبي الدنيا ، ظاهرية مجموع ]

١٧٧ — كتاب التقوى لابن أبي الدنيا

١٧٨ — كتاب التهجد وقيام الليل لابن أبي الدنيا

١٧٩ — كتاب التوبة لابن أبي الدنيا

١٨٠ — كتاب التوبة لنفطويه [ إبراهيم بن محمد ]

١٨١ — كتاب التوكل لابن أبي الدنيا

١٨٢ — كتاب الثواب لآدم ابن أبي إياس [ الخراساني ]

١٨٣ — حديث الصُور

١٨٤ — كتاب الحذر والشفقة لابن أبي الدنيا

١٨٥ — كتاب حسن الظن [ بالله ] لابن ابي الدنيا

١٨٦ — كتاب الحلم وذم الفحش والبذاء لابن أبي الدنيا

١٨٧ — كتاب الحيدة

١٨٨ — كتاب الخائفين لابن أبي الدنيا

١٨٩ — كتاب الدعاء لابن أبي الدنيا

١٩٠ — كتاب الدعاء ليوسف القاضي

١٩١ — كتاب دلائل النبوة لجعفر [ بن محمد ] الفريابي

١٩٢ — كتاب الذكر لابن أبي الدنيا

٢١٦ — كتاب الشكر لابن
أبي الدنيا
٢١٧ — كتاب صفة المنافق
للفريابي [ جعفر بن محمد ]
٢١٨ — كتاب الصمت وأدب
اللسان لابن أبي الدنيا
٢١٩ — كتاب العفو وذم
الغضب لابن أبي الدنيا
٢٢٠ — كتاب العقوبات لابن
أبي الدنيا
٢٢١ — كتاب الغُنية عن
الكلام للخطابي
٢٢٢ — كتاب الفرج [ بعد
الشدة ] لابن أبي الدنيا
٢٢٣ — كتاب قصر الأمل لابن
أبي الدنيا
٢٢٤ — كتاب القناعة لابن
ابي الدنيا
٢٢٥ — كتاب القناعة لابن
مسروق
٢٢٦ — كلام أبي بكر الشبلي
[ الصوفي المتوفي سنة ٣٣٣ ]
٢٢٧ — كلام ذي النون [ لعله
أبو الفيض بن إبراهيم ]

٢٢٨ — كلام يحي بن معاذ الرازي
٢٢٩ — كتاب مجابي الدعوة
لابن ابي الدنيا
٢٣٠ — كتاب محاسبة النفس
والازراع ؟ عليها لابن ابي الدنيا
٢٣١ — كتاب المحتضرين لابن
ابي الدنيا
٢٣٢ — كتاب المطر والرعد
والبرق والريح لابن ابي الدنيا
٢٣٣ — كتاب من عاش بعد
الموت لابن ابي الدنيا
٢٣٤ — كتاب المنامات لابن
ابي الدنيا
٢٣٥ — كتاب النهي عن الغيبة
لابراهيم [ بن إسحاق ] الحربي
٢٣٦ — كتاب النهي عن الكذب
لابراهيم [ بن إسحاق ] الحربي
٢٣٧ — كتاب الهم والحزن
لابن ابي الدنيا
٢٣٨ — كتاب الوجل والتوثق
بالعمل لابن ابي الدنيا
٢٣٩ — كتاب اليقين لابن ابي
الدنيا

## علوم اللغة

٢٤٠ — كتاب الأضداد لابن الأنباري [ أبي بكر محمد بن القاسم ]

٢٤١ — كتاب الالفات لابن الأنباري [ أبي بكر محمد بن القاسم ]

٢٤٢ — أمالي ثعلب .

٢٤٣ — كتاب الأنواء للزجاج [ أبي إسحاق إبراهيم بن محمد ]

٢٤٤ — كتاب البهي [ في النحو للفراء [ أبي زكريا يحيى بن زياد : الفهرست ٦٧ ، وابن خليفة ٢١١ ]

٢٤٥ — كتاب التصحيف للدارقطني [ علي بن عمر ]

٢٤٦ — خلق الانسان للزجاج [ أبي إسحاق إبراهيم بن محمد : فهرست ٦١ ]

٢٤٧ — كتاب الخيل للأصمعي [ عبد الملك بن قريب ]

٢٤٨ — كتاب الزاهر لابن الأنباري [ أبي بكر محمد بن القاسم : الفهرست ٧٥ ]

٢٤٩ — الفصيح لثعلب .

٢٥٠ — كتاب فعلت وأفعلت للزجاج [ أبي إسحاق إبراهيم بن محمد : فهرست ٦١ ]

٢٥١ — كتاب كلا لابن المنادي [ جعفر ]

٢٥٢ — اللغات للهيثم بن عدي [ أبي عبد الرحمن الثُعَلي ]

٢٥٣ — المجاز لأبي عبيدة وهو معمر بن المثنى

٢٥٤ — كتاب المطر لابن دريد [ محمد بن الحسن ]

٢٥٥ — كتاب الملاحن لابن دريد [ محمد بن الحسن : فهرست ٦١ ]

٢٥٦ — كتاب النوادر لأبي سهل بن زياد

٢٥٧ — النوادر لسرج بن يونس

# الأدب

٢٥٨ — كتاب الأجواد للدارقطني [ علي بن عمر ]

٢٥٩ — كتاب الاخوة والاخوات لمسلم [ بن الحجاج القشيري ]

٢٦٠ — كتاب آداب ابن المعتز [ عبد الله ]

٢٦١ — أدب الكتاب لابن قتيبة [ عبد الله بن مسلم ]

٢٦٢ — كتاب أشعار لصوص العرب وأخبارهم لأبي سعيد السكري

٢٦٣ — كتاب اصطناع المعروف لابن أبي الدنيا [ أبي بكر عبد الله ابن محمد ]

٢٦٤ — كتاب الأمثال لابي عبيد [ القاسم بن سلام ]

٢٦٥ — كتاب الترغيب في العلم للمزني

٢٦٦ — كتاب التعازي للمدايني [ أبي الحسن علي بن محمد ]

٢٦٧ — كتاب التوقيف على فضل الخريف للأمير أبي محمد بن المقتدر

٢٦٨ — كتاب الثقلاء لأبي مزاحم

٢٦٩ — كتاب الثقلاء لأبي نعيم الحافظ [ أحمد بن عبدالله الأصفهاني ]

٢٧٠ — كتاب الحسن والجمال لابن المرزبان [ أبي عبد الله محمد بن خلف ]

٢٧١ — كتاب الحمام لابراهيم [ ابن إسحاق ] الحربي

٢٧٢ — كتاب الحمق والحماقة للنقاش [ أبي بكر محمد بن الحسن ]

٢٧٣ — كتاب الخط والهجاء للمبرد [ محمد بن يزيد ]

٢٧٤ — خطبة الحجاج بالكوفة

٢٧٥ — خطبة عائشة تقريب ابن الأنباري [ أبي بكر محمد بن القاسم ]

٢٧٦ — خطبة علي في الملاحم

٢٧٧ — خطبة هند بن (؟) أبي هالة تقريب ابن الأنباري [ أبي بكر محمد ابن القاسم ]

٢٧٨ — كتاب الخَوَنة للمدايني [ أبي الحسن علي بن محمد ]

٢٧٩ — كتاب الديارات لأبي الفرج الأصبهاني [ علي بن الحسن ]

٢٨٠ — رسالة الجاحظ في حب الوطن

٢٨١ — الرسالة في الخط والقلم لابن قتيبة [ عبد الله بن مسلم ]

٢٨٢ — رسالتان في الخريف والربيع لابن شبل

٢٨٣ — كتاب الرهبان للبُرجُلاني [ محمد بن الحسين ]

٢٨٤ — كتاب الغرباء للآجري [ أبي بكر محمد بن الحسين ]

٢٨٥ — الغزل للطبراني [سليمان ابن أحمد ]

٢٨٦ — قصيدة ذي الرمـــة : ما بال عينك

٢٨٧ — قصيدة كعب بن زهير تقريب ابن الأنباري [ أبي بكر محمد ابن القاسم ]

٢٨٨ — القصيدة المربعـة لابن دريد [ محمد بن الحسن ]

٢٨٩ — القصيدة المقصورة لابن دريد [ محمد بن الحسن ]

٢٩٠ — القصيدة اليتيمة

٢٩١ — كتـاب قرى الضيف لابن أبي الدنيا

٢٩٢ — كتـاب قضاء الحوائج لابن أبي الدنيا

٢٩٣ — كتاب كتمان السر لابن المرزبان [ أبي عبدالله محمد بن خلف ]

٢٩٤ — كتاب الكرم للبرجلاني [ محمد بن الحسين : الفهرست ١٨٥ ]

٢٩٥ — كتاب كلف السودان لابن المرزبان [ أبي عبـد الله محمد بن خلف ]

٢٩٦ — مباينة البيغا مائتان وتسعون بيتاً

٢٩٧ — كتاب مداراة النـاس لابن أبي الدنيا

٢٩٨ — كتـاب المروءة لابن المرزبان [ أبي عبدالله محمد بن خلف ]

٢٩٩ — كتاب من أقام على المودة والوفا لابن المرزبان [ ابي عبدالله محمد ابن خلف ]

٣٠٠ — منتخب ديوان التنوخي

٣٠١ — كتاب الهدايا للزبيري

التاريخ وما يتبعه

٣٠٢ — أخبار ابن دهبل الجمحي لابن المرزبان [ ابي عبد الله محمد بن خلف ]

٣٠٣ — أخبار ابن قيس الرقيات [ ومختار شعره ] لابن المرزبان [ محمد ابن خلف : الفهرست ١٤٩ ]

٣٠٤ — أخبار إبراهيم بن ادهم

٣٠٥ — أخبار ابي نواس لابن ابي سعد

٣٠٦ — أخبار امرئ القيس لابن المرزبان [ ابي عبد الله محمد بن خلف ]

٣٠٧ — اخبار إياس بن معاوية للمدايني [ ابي الحسن علي بن محمد ]

٣٠٨ — اخبار البحتري للمرزباني [ محمد بن خلف ]

٣٠٩ — اخبار بشر بن الحارث

٣١٠ — اخبار بني إسرائيل لحماد ابن سلمة

٣١١ — اخبار حاتم الأصم

٣١٢ — اخبار حسان بن ثابت لبرزويه

٣١٣ — اخبار داود الطائي

٣١٤ — اخبار عبد الله بن جعفر لابن المرزبان [ محمد بن خلف ]

٣١٥ — اخبار العرجي لابن المرزبان [ ابي عبد الله محمد بن خلف : الفهرست ١٥٠ ]

٣١٦ — اخبار فُضَيل بن عياض

٣١٧ — اخبار مجنون بني عامر لابن المرزبان [ محمد بن خلف ]

٣١٨ — اخبار المصحفين للعسكري [ ابي احمد الحسن بن عبد الله ]

٣١٩ — اخبار المختار بن ابي عبيد الله للمدايني [ ابي الحسن علي ابن محمد ]

٣٢٠ — اخبار نصيب لابن المرزبان [ ابي عبد الله محمد بن خلف ]

٣٢١ — اخبار وهيب بن الورد

٣٢٢ — كتاب اخلاق النبي (صلى الله عليه وسلم ) لإسماعيل [ بن إسحاق ] القاضي

٣٢٣ — كتاب اسماء رسول الله ( صلى الله عليه وسلم )

٣٢٤ — أسماء الرواة عن الشافعي [ محمد بن أدريس ]

٣٢٥ — كتاب الأسماء المفردة للبرديجي

٣٢٦ — كتاب الأسماء والكنى لمسلم [بن الحجاج القشيري : الفهرست ٢٣١]

٣٢٧ — الألوية

٣٢٨ — تاريخ ابن أبي الاحوص (؟)

٣٢٩ — تاريخ ابن البراء [ محمد ابن أحمد العبدي ]

٣٣٠ — كتاب تاريخ ابن البرقي [ محمد بن خالد ]

٣٣١ — تاريخ ابن حراش

٣٣٢ — تاريخ ابن عقدة [ أبي العباس أحمد بن محمد ]

٣٣٣ — تاريخ ابن قانع [ عبد الباقي ]

٣٣٤ — تاريخ أبي بكر بن أبي الأسود (؟)

٣٣٥ — تاريخ ابي بكر [ عبد الله بن محمد ] بن ابي شيبة

٣٣٦ — تاريخ ابي حسان [الحسن] الزيادي

٣٣٧ — تاريخ ابي الحسين [ جعفر ] بن المنادي

٣٣٨ — تاريخ ابي العباس الأبار [ احمد بن علي : الرسالة المستطرفة ، ٨٣]

٣٣٩ — كتاب التاريخ لأبي عبيد [ القاسم بن سلام ]

٤٤٠ — تاريخ ابي مسلم بن صالح

٣٤١ — تاريخ ابي موسى الزمر

٣٤٢ — تاريخ احمد بن حنبل

٣٤٣ — تاريخ اصبهان

٣٤٤ — تاريخ البخاري [ محمد ابن إسماعيل ]

٣٤٥ — تاريخ الجزريين

٣٤٦ — تاريخ الحمصيين

٣٤٧ — تاريخ حنبل بن إسحاق

٣٤٨ — تاريخ الخلفاء لابن ابي الدنيا

٣٤٩ — تاريخ الخلفاء لأبي بشر الدولابي

٣٥٠ — تاريخ الخلفاء لأبي معشر المدني [ نجيح ]

٣٥١ — تاريخ الخلفاء لعمرو بن حفص [ السدوسي

٣٥٢ — تاريخ الرقة [ لمحمد بن سعيد القشيري ]

٣٥٣ — تاريخ عبيد الله بن يحي ابن بكير

٣٥٤ — تاريخ عثمان بن ابي شيبة

٣٥٥ — تاريخ عمرو بن علي [ لعله الفلاس ]

٣٥٦ — تاريخ الفضل بن غسان الغلاّبي

٣٥٧ — تاريخ محمود بن عيلان

٣٥٨ — تاريخ مُطيّن [ لعله محمد ابن عبد الله الحضرمي ]

٣٥٩ — تاريخ المواصلة

٣٦٠ — تاريخ نفطويه [ إبراهيم ابن محمد ]

٣٦١ — تاريخ هراة

٣٦٢ — تاريخ الهيثم بن عدي [ ابي عبد الرحمن الثُعَلي ]

٣٦٣ — تاريخ يحي بن بكير

٣٦٤ — تاريخ يحي بن معين من طريق إبراهيم بن الجنيد عنه

٣٦٥ — تاريخ يحي بن معين من طريق الحسين بن حسان عنه

٣٦٦ — تاريخ يحي بن معين من طريق عباس الدوري عنه

٣٦٧ — تاريخ يحي بن معين من طريق عبد الخالق بن منصور عنه

٣٦٨ — تاريخ يحي بن معين من طريق يزيد بن المبارك عنه

٣٦٩ — تاريخ يعقوب بن سفيان

٣٧٠ — تسمية من روي عنه من اولاد العشرة للدارقطني [علي بن عمر]

٣٧١ — تسمية من روي عنه من اولاد العشرة لعلي بن [عبدالله] المديني

٣٧٢ — تسمية من شهد مع علي حروبه

٣٧٣ — حديث وفاة ابي بكر

٣٧٤ — حديث وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم )

٣٧٥ — حديث وفود العرب على كسرى

٣٧٦ — كتاب الحرة للمدايني [ ابى الحسن علي بن محمد ]

٣٧٧ — خبر ابي زبيد في صفة الأسد

٣٧٨ — خبر إرم ذات العماد

٣٧٩ — خبر استسقاء عبدالملك ابن مروان

٣٨٠ — خبر تزويج فاطمة

٣٨١ — خبر الجمل عن الصولي

٣٨٢ — خبر الزبا وجدعة

٣٨٣ — خبر غزاة سلمة بن عبد الملك

٣٨٤ — خبر فيهش اليهوذي في ابتداء الخلق

٣٨٥ — خبر مدينة العفر وقبة الرصاص (؟)

٣٨٦ — الدولة الهاشمية للهيثم بن عدي [ أبي عبد الرحمن الثعلي ]

٣٨٧ — كتاب الربذة للمدايني [ أبي الحسن علي بن محمد ]

٣٨٨ — كتاب الردة للواقدي [ أبي عبد الله محمد بن عمر ]

٣٨٩ — الرواة عن عبيد الله بن عمر للبرقاني [ أبي بكر أحمد بن محمد ]

٣٩٠ — كتاب الزهاد الثمانية

٣٩١ — كتاب السير [ في الأخبار والأحداث ] لأبي إسحاق الفزاري [ إبراهيم بن محمد : فهرست ٩٢ ]

٣٩٢ — سؤالات ابن أبي شيبة ليحي بن معين

٣٩٣ — سؤالات الدارمي ليحي ابن معين

٣٩٤ — شيوخ أبي عبد الرحمن النسائي

٣٩٥ — كتاب صفين ليحي بن سلمان الجعفي

٣٩٦ — الضعفاء لابن شاهين [ عمر بن أحمد ]

٣٩٧ — كتاب الضعفاء للبخاري [ محمد بن إسماعيل ]

٣٩٨ — الضعفاء للجوزجاني

٣٩٩ — الضعفاء لعلي [ بن عبد الله ] بن المديني

٤٠٠ — الضعفاء لعمرو بن علي [ لعله القلاس ]

٤٠١ — طبقات أهل همذان

٤٠٢ — كتاب الطبقات لشباب العصفري [ : الفهرست ٢٣٢ ]

٤٠٣ — الطبقات لعلي بن [ عبد الله ] المديني

٤٠٤ — كتاب الطبقات لمحمد ابن سعد [ كاتب الواقدي ]

٤٠٥ — الطبقات لمسلم بن الحجاج [ القشيري : الفهرست ٢٣١ ]

٤٠٦ — الطبقات للهيثم بن عدي [ أبي عبد الرحمن الثُعلي ]

٤٠٧ — كتاب الغارات للمدايني [ أبي الحسن علي بن محمد ]

٤٠٨ — الفتن لحنبل بن إسحاق

٤٠٩ — الفتن والملاحم لحماد بن سلمة

٤١٠ — كتاب الفتوح لأبي بكر بن أبي شيبة [ عبد الله بن محمد ]

٤١١ — كتاب الفتوح لأبي حذيفة البخاري

٤١٢ — فضائل الصحابة الأربعة لأحمد بن حنبل

٤١٣ — فضائل معاوية لابن رزقويه [ محمد بن أحمد البزاز ]

٤١٤ — فضائل العباس لابن رزقويه [ محمد بن أحمد البزاز ]

٤١٥ — كتاب قضاة الكوفة لعمر بن شبّة

٤١٦ — كتاب مسلم [ بن الحجاج القشيري ] في عمرو بن شعيب

٤١٧ — كتاب مسلم [ بن الحجاج القشيري ] في معرفة شيوخ مالك والثوري وشعبة

٤١٨ — كتاب مسلم [ بن الحجاج القشيري ] في معمر

٤١٩ — المبتدأ لأبي حذيفة البخاري

٤٢٠ — المتفردون بالروايات للأزدي (؟)

٤٢١ — محنة أحمد بن حنبل

٤٢٢ — محنة الشافعي

٤٢٣ — كتاب المدينة وصفة قبر النبي ( صلى الله عليه وسلم ) ومسجده

٤٢٤ — كتاب مشتبه النسبة لعبد الغني [ بن سعيد ]

٤٢٥ — مشيخة يعقوب بن سفيان

٤٢٦ — معرفة أزواج النبي ( صلى الله عليه وسلم ) وأولاده لأبي عبيدة [ معمر بن المثنى ]

٤٢٧ — كتاب المعمّرين لأبي حاتم السجستاني

٤٢٨ — معجم شيوخ أبي يعلى الموصلي

٤٢٩ — معجم شيوخ الاسماعيلي [ أبي بكر أحمد بن إبراهيم ]

٤٣٠ — كتاب معجم شيوخ الطبراني [ سليمان بن أحمد ]

٤٣١ — كتاب معجم الصحابة للبغوي

٤٣٢ — مغازي أبي معشر المدني [ نجيح : الفهرست ٩٣ ]

٤٣٣ — مغازي سعيد الأموي

٤٣٤ — مغازي سلمان التيمي

٤٣٥ — مغازي عبدالرزاق [ بن همام : ابن خليفة ٢٣٦ ]

٤٣٦ — مغازي محمد بن إسحاق من طريق يونس بن بكر عنه

٤٣٧ — مغازي ابن إسحاق [ محمد ] أيضاً من طريق محمد بن سلمة الحراني عنه

٤٣٨ — مغازي موسى بن عقبة

٤٣٩ — مقتل حجر بن عدي

٤٤٠ — مقتل الحسين للجعابي [ لعله أبو بكر عمرو بن محمد ]

٤٤١ — مقتل الحسين للمدايني [ أبي الحسن علي بن محمد ]

٤٤٢ — مقتل عثمان

٤٤٣ — مقتل عمر لأبي بكر الشافعي [ محمد بن عبد الله البزاز ]

٤٤٤ — الملاحم لابن رزقويه [ محمد بن احمد البزاز ]

٤٤٥ — الملاحم لأبي الحسين [ جعفر ] بن المنادي

٤٤٦ — مناقب الشافعي لابن أبي حاتم

٤٤٧ — مناقب الشافعي لزكريا الساجي

٤٤٨ — الموالي من اهل المدينة

٤٤٩ — المؤتلف والمختلف لعبد الغني [ بن سعيد ]

٤٥٠ — كتاب مولد علي ( رضي الله عنه )

٤٥١ — كتاب مولد النبي ( صلى الله عليه وسلم )

٤٥٢ — مولد النبي ( صلى الله عليه وسلم )

٤٥٣ — نسب إلى ابي طالب

٤٥٤ — نسب تنوخ [ لعله للمبرد ]

٤٥٥ — نسب عدنان وقحطان للمبرد [ محمد بن يزيد ]

٤٥٦ — كتاب نسب قريش للزبير ابن بكار

٤٥٧ — كتاب النسب للمسيبي ومعرفة اسلاف رسول الله ( صلى الله عليه وسلم )

٤٥٨ — النسب لمؤرج بن عمرو [ السدوسي ]

٤٥٩ — كتاب النهروان للمدايني [ ابي الحسن علي بن محمد ]

## تفسير الأحلام

٤٦٠ — عبارة الرؤيا لابن سيرين [ محمد ]

٤٦١ — عبارة الرؤيا لاسحاق ابن سنيز

٤٦٢ — كتاب عبارة الرؤيا لابن قتيبة [ عبد الله بن مسلم ]

## مجهول الموضوع

٤٦٣ — كتاب الخواتيم لابن ابي حيّة

٤٦٤ — كتاب الديباج لاسحاق ابن سنيز [ ولعله إسحاق بن إبراهيم الختلي فقد قال عنه في ميزان الاعتدال: صاحب كتاب الديباج ( ١ : ٨٥ ) ]

٤٦٥ — الرد على اهـــل الري للحميدي [ لعله محمد بن فتوح ولعل الكتاب الرد على اهل الرأي ]

٤٦٦ — رسالة الثوري [سفيان] إلى عباد بن عباد

٤٦٧ — فتيا فقيه العرب لابن فارس [أبي الحسين أحمد : ابن خليفة ٣٧٤]

٤٦٨ — فصول في الاشارات

٤٦٩ — كتاب القلاع للمدايني [ أبي الحسن علي بن محمد ]

٤٧٠ — كتاب الكافي للزبيري

٤٧١ — كتاب المنير لابن مسروق

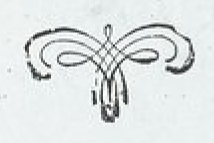
٤٧٢ — كتاب النحول والذهول لابن المرزبان [ أبي عبـد الله محمد بن خلف ]

٤٧٣ — كتاب المواقف

٤٧٤ — كتاب يوم وليلة لأبي علي المعمري [ الحسن بن علي ]

# أسماء المؤلفين الذين ورد الخطيب

## بمؤلفاتهم دمشق مع الإحالة إلى أرقام كتبهم



# فهرست مصنفات الخطيب البغدادي[1]

## مصادر هذا الفهرست

إعتمدنا في تعداد هذه المصنفات على

(١) الفهرست الذي ذكره محمد بن أحمد بن محمد المالكي الأندلسي في مجموع ١٨ (٦) من مجاميع دار الكتب الظاهرية وقد ذكر فيه أربعة وخمسين تصنيفاً وهي مصنفات الخطيب إلى سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة

(٢) ما ذكره ابن قاضي شهبة نقلاً عن الذهبي في تاريخ الاسلام بالمخطوط ظاهرية تاريخ ٥٧ ، ١٣٩[1] وقد أخذ الذهبي ذلك عن السمعاني وابن النجار

(٣) ما ورد في تذكرة الحفاظ للذهبي وهو نفس ما ذكره ابن قاضي شهبة مع اختلاف في حصر عدد أجزاء كل مصنف

(٤) ما ورد في المنتظم لابن الجوزي ٨ : ٢٦٦

(٥) ما ذكره ياقوت في الارشاد ٤ : ١٩ — ٢١ نقلاً عن ابن الجوزي وزاد عدداً عليه لعله نقص في النسخة المطبوعة للمنتظم .

وذكرنا ما ورد عرضاً من أسماء تصانيف الخطيب في

(١) فهرسة ما رواه أبو خير بن خليفة

(٢) ما رواه ابن طولون الصالحي فعدده بخطه في أول كتاب الكفاية للخطيب ظاهرية حديث ٣٩٣ بقوله : وقفت له على ...

(٣) ما ذكره ابن الصلاح في مقدمته

---

(١) عدد معظم مصنفات الخطيب على الحروف الأستاذ حسام الدين القدسي في مقدمة كتاب التطفيل ص ١ ـ ٣ وفاته بعضها ولم يذكر مصادره .

(٤) ما ذكره حجي خليفة في كشف الظنون ولم نشر إلى رقم الصفحة منه إلا إذا ورد الاسم في لفظة كتاب من حروف المعجم

(٥) ما ذكره الكتاني في الرسالة المستطرفة

(٦) « ابن حجر في النخبة

(٧) « ابن كثير في البداية ١٢ : ١٠٢

(٨) « العراقي

(٩) « بروكلمن في تاريخه بالأصل والذيل واشرنا إلى عدد النسخ التي ذكرها فقط مع الرقم الذي عـــدها به وألحقنا به ما وجدناه إضافة على النسخ التي ذكرها

وذكرنا سوى ذلك ما وجدناه في بعض المصادر الأخرى

وكذلك اشرنا إلى عدد الأجزاء باختلاف المصادر

## الأحاديث والمسانيد

١ ــ الأمالي ذكر منه الجزء السابع والثامن جمال الدين بن عبد الغني المقدسي في ثبت مسموعاته ظاهرية مجموع ٩٢ (٩) ١٧[١] وذكر بروكلمن نسختين منه رقم ١٩ ويضاف إليه الخامس من الأمالي : ظاهرية مجموع ٢٧ ( ١٥ )

٢ ــ كتاب فيه حديث : « الامام ضامن والمؤذن مؤتمن » ذكره المالكي

٣ ــ حديث عبد الرحمن بن سمرة وطرقه في جزئين كما ذكره المالكي

٤ ــ حديث النزول ذكره المالكي

٥ ــ كتاب فيه حديث : « نضر الله امرءاً سمع منا حديثاً » ذكره المالكي

٦ ــ طريق حديث قبض العلم في ثلاثة أجزاء كما عده المـالكي وشيبة وذكره أيضاً التذكرة والرسالة المستطرفة ٨٢

٧ ــ « طلب العلم فريضة على كل مسلم » ، ذكره المالكي

٨ ــ مجموع حديث أبي إسحاق الشيباني في ثلاثة أجزاء كما ذكره المالكي

٩ — مجموع حديث محمد بن جحاره وسان بن بشر وصفوان بن سليم ومطر الوراق ومسعر بن كدام ، ذكره المالكي

١٠ — مجموع حديث محمد بن سوقه في ثلاثة أجزاء كما عده المالكي وفي أربعة كما عده شهبة بقوله : حديث محمد بن سوقه وذكره أيضاً تذكرة بقوله : مسند محمد بن سوقه

١١ — مختصر السنن من أصل الخطيب ذكر بروكلمن منه نسخة واحدة رقم ٢١ . ألف المختصر هذا زكي الدين بن عبد العظيم المنذري ، ويلوح لي أن كتاب السنن هو مما رواه الخطيب لا مما ألفه ، وأن المنذري اختصر هذا الكتاب من نسخة الخطيب

١٢ — مسند أبي بكر الصديق رضي الله عنه على شرط الصحيحين ، في جزء كما ذكره المالكي

١٣ — مسند صفوان بن عسّال ، ذكره المالكي

١٤ — مسند نعيم بن هماز العصفاني في جزء كما ذكره المالكي وشهبة وذكره أيضاً ابن الجوزي وياقوت وتذكرة .

١٤ ب — حديث جعفر بن حيان ، منه نسخة في الظاهرية حديث ٣٩٠

## الأحاديث المخرّجة

١٥ — جزء فيه أحاديث مالك بن أنس عوالي تخريج أبي بكر الخطيب مخطوطة الظاهرية مجموع ١٠١ ( ٤ ) في ٢٢ صفحة

١٦ — أمالي الجوهري تخريج أبي بكر الخطيب رواية محمد بن البزاز ، منه مجلسان في الظاهرية مجموع ١٠٥ ( ٦ ) في ١٦ صفحة

١٧ — فوائد أبي القاسم النرسي تخريج الخطيب في ٢٠ جزء ، ذكره شذرات ٤ : ٢٣

١٨ — فوائد عبد الله بن علي بن عياض الصوري تخريج الخطيب في أربعة أجزاء ، ذكره نجوم ٥ : ٦٣

١٩ ـ الفوائد المنتخبة الصحاح والغرائب انتقاء الخطيب من حديث الشريف أبي القاسم علي بن إبراهيم بن العباس بن أبي الجن الحسني ، منه قطعة من الثامن في الظاهرية مجموع ٤ ( ٤٦/٢ ) والثالث عشر في الظاهرية مجموع ١٤٠ (١٣٩) والجزء الرابع عشر في الظاهرية مجموع ٤٠ (١٧٨) وجزء آخر لم يعرف عدده في الظاهرية مجموع ٤٠ ( ١٧٢ ) . وقال ابن عساكر في تاريخ دمشق ظاهرية تاريخ ١٠، ٤٣٠ — ٤٣١ : خرجها أبو بكر في عشرين جزءاً

٢٠ ــ الفوائد المنتخبة الصحاح والغرائب تخريج الخطيب لأبي القاسم المهرواني ذكره ابن الجوزي في المنتظم ٨ : ٣٠٤ بقوله مشيخته ، منه الثاني حتى الخامس وهو الأخير في الظاهرية حديث ٣٥٣ والأول في الظاهرية مجموع ٤٧ ( ٤ )

٢١ ــ الفوائد المنتخبة الصحاح العوالي تخريج الخطيب لجعفر بن أحمد ابن الحسين السراج القارئ ذكره ابن الجوزي في المنتظم ٩ : ١٥١ وابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة ، ظاهرية تاريخ ٦١ ، ٤٠/٢ بقوله السراجيات منه الأول في الظاهرية مجموع ٣١ (١٢) والثاني والرابع والخامس في الظاهرية مجموع ٢٧ ( ٨ ) والخامس أيضاً في الظاهرية مجموع ٩٨ ( ٣ ) و ٩٨ ( ١٤ )

٢١ ب ــ مجلس من إملاء أبي جعفر محمد بن أحمد بن المسلمة تخريج الخطيب في الظاهرية مجموع ١١٧ ( ٢١ )

## في المسند والمصطلح

٢٢ ــ بيان حكم المزيد في متصل الأسانيد ، ذكره المالكي

٢٣ ــ الرباعيات ، في ثلاثة أجزاء كما عده شهبة وذكره تذكرة

٢٤ ــ الفصل للوصل المدرج في النقل في تسعة أجزاء كما عده المالكي وابن طولون وفي مجلد كما عده شهبة وذكره أيضاً تذكرة وابن الجوزي وياقوت ـ وقالا : كتاب في الفصل والوصل ـ وابن كثير وابن خير ص ١٨٢

ـــ وقال : وهو من كتب العلل التي لا مثيل لها في معناها ـــ وتدريب الراوي ص ٩٨ ـــ وقال : شفى وكفى على ما فيه من إعواز وقد لخصه شيخ الاسلام وزاد عليه قدره مرتين وأكثر في كتاب سماه تقريب المنهج بترتيب المدرج .

٢٥ ـــ الكفاية في معرفة أصول علم الرواية في ثلاثة عشر جزءاً كما عده المالكي وشهبة وذكره تذكرة وابن الجوزي وياقوت وابن كثير وابن الدواليبي ظاهرية حديث ٢٨٥ ، ١٤٠ والقلقشندي في صبح الأعشى ١ : ٤٧١ والرسالة المستطرفة ١٢٣ و ١٠٧ ـــ وقال : وهو غاية في بابه ـــ وحجي خليفة وعدد ذكره ابن الصلاح وذكر بروكلمن منه ١٣ نسخة وقال : إن دائرة المعارف النظامية بحيدرأباد تعمل على إخراجه .

٢٦ ـــ كتاب فيه الكلام في الاجازة للمجهول والمعدوم والمعلقة بشرط في جزء واحد كما عده شهبة وذكره أيضاً المالكي وتذكرة وابن الجوزي وياقوت وحجي خليفة ٢ : ٢٥٨ وابن خير ٤٥٥ و ٢٢٦ ومنه نسخة في الظاهرية مجموع ٦٦ ( ١١ ) في ١٠ ص واسمه فيها : جزء فيه إجازة المجهول والمعدوم وتعليقهما بشرط

٢٧ ـــ المسلسلات ، في ثلاثة أجزاء كما عده شهبة وذكره أيضاً تذكرة

٢٨ ـــ المكمل في بيان المهمل في ثمانية أجزاء كما عده المالكي وشهبة وسبعة كما عده ابن طولون ومجلد كما عده تذكرة وذكره أيضاً ابن الجوزي وياقوت وحجي خليفة وابن خير ص ١٨١ ـــ وقال : وهو من كتب العلل التي لا مثيل لها في معناها .

## آداب المحدّث والفقيه

٢٩ ـــ اقتضاء العلم العمل في جزء كما عده شهبة وفي جزء ضخم حديثي كما عده ابن طولون وذكره أيضاً تذكرة والمالكي وابن الجوزي وياقوت وابن

كثير وكشف الظنون والرسالة المستطرفة ص ٤٣ ، ومنه نسخة في الظاهرية أدب ٢٥٧ وأخرى تفسير ١٥١ ( ٣١ ) وذكر في فهرس الكواكب الدراري الذي يحوي هذه النسخة الأخيرة أن اسم الكتاب « وصية طالب العلم » . وقد أوردنا نصوصاً من هذا الكتاب وخلاصة عنه حين البحث عن صفة الخطيب في أخلاقه .

٣٠ — تقييد العلم في جزئين كما عده المالكي وفي ثلاثة كما عده شهبة وهو الصحيح وذكره أيضاً تذكرة وابن الجوزي وياقوت وابن خير ص ٢٦٠ وفي ص ٢٦١ قال : وهو من جيد الكتب وذكر بروكلمن منه ٦ نسخ . وقد باشرنا في إخراجه في مجموعة النصوص الشرقية للمعهد الافرنسي في دمشق .

٣١ — الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع في خمسة عشر جزءاً كما عده المالكي وذكره أيضاً ابن الجوزي وياقوت وابن كثير والرسالة المستطرفة ص ١٢٣ و ص ١٠٧ — وقال : وهو غاية في بابه وذكره ابن خير ص ١٨٢ و ص ٢٦١ — وقال : من جيد الكتب بيّن فيه آداب أهل هذه الصناعة وطرائقهم المختارة وذكره عفيف الدين بن الدواليبي ظاهرية حديث ٢٨٥ ، ١٤٠ وذكره بروكلمن رقم ١٥ عن تاريخ بغداد ٦ : ٢٣١ ولم يذكر منه نسخة ما ، وفي الظاهرية منه قطعة : مجموع ٥٥ ( ١٢ ) وفي المكتبة البلدية بالاسكندرية نسخة منه في عشرة مجلدات رقم ( ن ٣٧١١ — ج ) وقال لي الأستاذان راغب الطباخ وحامد عجان الحديد إنها كاملة .

٣٢ — الرحلة في طلب الحديث في جزء كما عده المالكي وشهبة وذكره أيضاً ابن الجوزي وياقوت وتذكرة والرسالة المستطرفة ٤٣ وابن خير ص ١٨١ ، ومنه نسختان في الظاهرية : مجموع ٧٥ ( ١٢ ) في ٢٤ ص ومجموع ١٠١ ( ٢٠ ) في ٤٠ ص .

٣٣ — شرف أصحاب الحديث في ثلاثة أجزاء كما عده المالكي وابن طولون وابن خير وفي مجلد كما عده شهبة وذكره أيضاً ابن الحوزي وياقوت

وتذكرة وابن كثير وابن خير ص ١٨١ و ص ٢٦١ — وقال : وهو من جيد الكتب بيّن فيه شرف هذه الصناعة — وذكره حجي خليفة والغزي في حسن التنبه ( ظاهرية ١ و ب ١٠٩ ) ٩٤ والرسالة المستطرفة ص ٤٣ ، وذكر بروكلمن ٣ نسخ منه رقم ( ٤ ) ويضاف إليه ظاهرية مجموع ١١٧ ( ٢ ) في ١٣٢ ص . وقد أوردنا نصوصاً منه وخلاصة عنه في البحث عن مذهب الخطيب .

٣٤ — الفقيه والمتفقه في اثني عشر جزءاً كما عده المالكي وشهبة وذكره أيضاً ابن الجوزي وياقوت وتذكرة وحجي خليفة ٢ : ٢٩٣ وروضات الجنات ص ٧٨ — وقال : أدب الفقيه والمتفقه ، ينقل عنه النووي في تهذيب الأسماء — وذكر بروكلمن نسختين منه رقم ( ١٨ )

٣٥ — جزء فيه النصيحة لأهل الحديث وفيه رسالة في الاجازة المجهولة وتنويعها وانقسامها ذكره ابن خير ص ٢٢٦ . ولعل النصيحة لأهل الحديث هذه هي اقتضاء العلم العمل رقم ٢٩

## موضوعات أخرى مستخرجة من الحديث

٣٦ — القول في علم النجوم في جزء كما عده المالكي وشهبة وذكره أيضاً ابن الجوزي وياقوت وتذكرة والرسالة المستطرفة ص ٤٠ — وأسماه النجوم — والسبكي في طبقاته ٣ : ٩٣ و ٢ : ٣١٩ — ٣٢٠ وأورد منه نصاً وذكر منه بروكلمن نسخة رقم ( ٨ )

## الفقه

٣٧ — نهج [ أو منهج ] الصواب في أن التسمية آية من فاتحة الكتاب في جزئين كما عده المالكي وفي جزء كما عده شهبة وذكره أيضاً ابن الجوزي

وقال : لهج الصواب وياقوت وتذكرة — وقال : كتاب أن البسملة من الفاتحة

٣٨ — إبطال النكاح بغير ولي في جزء كما عده المالكي

٣٩ — إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة ، ذكره المالكي

٤٠ — الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم في الصلاة في جزئين كما عده المالكي وشهبة وفي جزء كما عده تذكرة ، أو ذكره أيضاً ابن الجوزي وياقوت وسماه الجهر بالبسملة والأسنوي في طبقاته ( ظاهرية تاريخ ٥٦ ) — وقال : أثنى عليه الأئمة والعلماء — وضعف بعض أحاديث وردت فيه ابن الجوزي ٨ : ٢٦٨ ونقل ذلك عنه الملك المعظم في الرد على أبي بكر ص ١٧٨ ومنه مختصر بخط الذهبي في دار الكتب الظاهرية بمجموع ٥٥ ( ١٢٨ — ١٣١ ) وله فيه تتبعات عليه وذكر أن الأصل في ثلاثة أجزاء .

٤١ — الحيل في أربعة أجزاء كما عده المالكي وشهبة وتذكرة وذكره أيضاً ياقوت — وقال : الحيل

٤٢ — الدلائل والشواهد على صحة العمل بخبر الواحد ذكره المالكي وياقوت ولم يذكره ابن الجوزي الذي ينقل عنه ياقوت

٤٣ — صلاة التسبيح والاختلاف فيها في جزء كما عده شهبة وذكره أيضاً المالكي وابن الجوزي وياقوت وتذكرة . ومنه نسخة في الظاهرية ( حديث ٢٧٩ ) ١٩٤

٤٤ — الغسل للجمعة في جزئين كما عده المالكي وثلاثة كما عده شهبة وذكره أيضاً تذكرة .

٤٥ — القضاء باليمين مع الشاهد في جزئين كما عده المالكي وفي جزء كما عده شهبة وذكره أيضاً ابن الجوزي وياقوت وتذكرة وأسماه : صحة العمل باليمين مع الشاهد .

٤٦ — القنوت والآثار المروية فيه على اختلافها وترتيبها على مذهب الشافعي في ثلاثة أجزاء كما عده المالكي وفي مجيلد كما عده شهبة وذكره أيضاً ابن

الجوزي وياقوت وتذكرة وسماه المفتون . وضعف بعض أحاديثه ابن الجوزي ٨ : ٢٦٨ ونقل ذلك عنه الملك المعظم في الرد على أبي بكر ص ١٧٨

٤٧ — مسألة الاحتجاج للشافعي فيما أسند إليه والرد على الطاعنين بعظم جهلهم عليه في جزء كما عده المالكي وشهبة وذكره أيضاً ابن الجوزي وياقوت وتذكرة وسبكي ١ : ١٨٥ وذكر منه بروكلمن نسخة واحدة رقم ( ١٣ )

٤٨ — النهي عن صوم يوم الشك في جزء كما عده المالكي وشهبة وذكره ابن الجوزي وياقوت وتذكرة وسماه المالكي : مسألة في صيام يوم الشك في الرد على من رأى وجوبه وأسماه ابن الجوزي ٨ : ٢٦٨ مسألة صوم يوم الغيم ، وانتقد حديثاً ورد فيه .

٤٩ — الوضوء من مس الذكر ، ذكره المالكي .

## الزهد والرقائق

٥٠ — كتاب فيه خطبة عائشة في الثناء على أبيها من تخريج الخطيب من رواياته عن شيوخه ، ذكره ابن خير ص ١١٦ ، وفي ص ١٧٩ منه قال : في ذكر أبيها وعمر بن الخطاب وأحاديث غريبة ومنامات ورقيق وإنشاءات في الزهد والرقائق تخريجه .

٥١ — المنتخب من الزهد والرقائق ، ذكر منه بروكلمن نسخة رقم (١٥)

## الأدب

٥٢ — البخلاء في ثلاثة أجزاء كما عده المالكي وفي أربعة كما عده شهبة وفي مجلد كما عده تذكرة ، وذكره أيضاً ابن الجوزي وياقوت والاعلان بالتوبيخ ص ١٠٧ — وقال : وهو ظريف — وذكر بروكلمن نسختين منه رقم ( ١٠ ) ومنه نقول في كتاب وقوع البلاء في البخل والبخلاء لابن عبد الهادي ( ظاهرية ، أدب ٤٠ )

٥٣ — التنبيه والتوقيف على فضائل الخريف ، ذكره ياقوت وحده .

٥٤ — التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم في أربعة أجزاء كما عده المالكي وفي ثلاثة كما عده شهبة وفي مجلد كما عده تذكرة . وذكره أيضاً ياقوت والاعلان بالتوبيخ ص ١٠٧ — وقال : وهو ظريف — وذكر بروكلمن نسختين مخطوطتين منه ونسخة مطبوعة رقم ( ٩ )

## أسماء رجال الحديث ونقدهم

٥٥ — الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة في جزء كما عده شهبة وذكره أيضاً المالكي وتذكرة وابن الجوزي وياقوت وابن طولون والتهذيب للنووي في ترجمة أفلح ، وذكر بروكلمن منه ثلاث نسخ ويضاف إليه ظاهرية مجموع ١٠١ ( ١٩ ) في ٤٠ ص قدمه المؤلف بقوله : « أوردت فيه أحاديث تشتمل على قصص متضمنة ذكر جماعة من الرجال والنساء أبهمت أسماؤهم وكني عنها وجاءت في أحاديث أخر بينة محكمة فجمعت بينها »

٥٦ — الأسماء المتواطئة والأنساب المتكافئة ذكره المالكي

٥٧ — بيان أهل الدرجات العلى ، ذكره المالكي

٥٨ — تالي التلخيص في أربعة أجزاء كما عده المالكي وذكره أيضاً شهبة وتذكرة وابن الجوزي وأسماه باقي التلخيص وياقوت ونخبة ص ٦١ وقال : وهو ذيل على التلخيص [رقم ٦١] بما فاته أولا وهو كثير الفائدة .

٥٩ — التبيين لأسماء المدلسين في جزئين كما عده المالكي وأربعة كما عده شهبة ، وذكره أيضاً تذكرة — وأسماه : أسماء المدلسين — وابن الجوزي وياقوت .

٦٠ — التفصيل لمبهم المراسيل في جزء كما عده المالكي وفي مجلد كما عده تذكرة ، وذكره أيضاً شهبة وابن الجوزي وياقوت وابن الصلاح ٢٤٩ و ٣٥٧ والرسالة المستطرفة ص ٩١ — وقال : في مبهم الأسانيد

والمتون من الرجال أو النساء . . . مرتباً على حروف المعجم معتبراً اسم المبهم ، ولكن تحصيل الفائدة منه عسير ، لأن العارف بالمبهم لا يحتاج إلى كشفه ، والجاهل به لا يعرف موضعه ؛ واختصر النووي كتاب الخطيب بحذف أسانيده مع نفائس وأحاديث يسيرة ضمها إليه ، ورتبه على الحروف في راوي الخبر ، وسماه الاشارات إلى المبهمات وهو أسهل للكشف ، لكنه قد يصعب ايضاً لعدم استحضار اسم صحابي ذلك الحديث ، وفاته الجم الغفير . وذكر بروكلمن من مختصره للنووي نسخة رقم ( ١٢ )

٦١ — تلخيص المتشابه في الرسم وحماية ما أشكل منه عن بوادر التصحيف والوهم في ستة عشر جزءاً كما عده المالكي وفي خمسة عشر كما عده ابن طولون وفي مجلد كبير كما عده شهبة ، وذكره أيضاً تذكرة وابن الجوزي وياقوت وابن كثير ونخبة ص ٦١ — وقال : كتاب جليل — وابن الصلاح وقال : وهو من أحسن كتبه ، وموضوعه تميز الأسماء التي تشابهت في رسمها واختلفت في تهجيتها — وكشف الظنون وذكر مختصراً له لعلاء الدين بن عثمان الماريني التركماني المتوفى سنة ٧٥٠ ، وذكر منه بروكلمن ٣ نسخ رقم ( ٦ )

٦٢ — تميز المزيد في متصل الأسانيد في ثمانية أجزاء كما عده شهبة ، وذكره أيضاً تذكرة وابن الجوزي وياقوت .

٦٣ — رافع الارتياب في المقلوب من الأسماء والأنساب في مجلد كما عده شهبة وسماه مقلوب الأسماء والأنساب ، وذكره أيضاً المالكي وابن الجوزي وياقوت وقال : في المقلوب من الأسماء والألقاب — وابن الصلاح ٣٧٢ وابن حجر ٣٤ وكشف الظنون وقال في أسماء رجال الحديث ، وذكر منه بروكلمن نصاً عنه في التهذيب لابن حجر ٢ : ١٥٥

٦٤ — الرواة عن شعبة في ثمانية أجزاء كما عده شعبة ، وذكره أيضاً المالكي وتذكرة — وأسماه معجم الرواة عن شعبة —

٦٥ — الرواة عن مالك بن أنس وذكر حديث لكل واحد منهم في تسعة أجزاء كما عده المالكي وستة كما عده شهبة ، وذكره أيضاً تذكره وابن الجوزي وياقوت وابن خير — وقال : اسماء من روى عن مالك بن انس مبوباً على حروف المعجم — والرسالة المستطرفة — وقال : في تراجم رواة مالك . . . . ذكر فيه من روى عن مالك الامام فبلغ بهم الفاً إلا سبعة وزاد عليه غيره كثيراً فأوصلهم إلى أزيد من ألف وثلاثمائة راو —

٦٦ — روايات الستة من التابعين بعضهم عن بعض في جزء كما عده شهبة وذكره أيضاً تذكرة وابن الجوزي وياقوت ، ومنه نسخة في الظاهرية مجموع ١١٥ ( ٢ ) في ١٨ ص واسمه جزء فيه حديث الستة من التابعين وذكر طرقه واختلاف وجوهه .

٦٧ — روايات الصحابة عن التابعين في جزء كما عـــده المالكي وشهبة وذكره ايضاً تذكرة وابن الجوزي وياقوت والعراقي ص ٦٠ ونخبة ص ٥٢ — وقال : جزء لطيف —

٦٨ — رواية الآباء عن الأبناء في جزء كما عده المالكي وشهبة وقال : روايات الأبناء عن آبائهم ، وذكره أيضاً تذكرة وقال : رواية الأبناء عن الآباء — وابن الجوزي وياقوت وابن كثير وابن الصلاح ص ٣٠١ ونخبة ص ٥٢

٦٩ — السابق واللاحق في تسعة أجزاء كما عده المالكي وفي عشرة كما عده شهبة ، وذكره ايضاً تذكرة وابن الجوزي وياقوت وابن كثير وكشف الظنون ٢ : ١٨ و ٢ : ٢٧٩

٧٠ — غنيـــة الملتمس في إيضاح الملتبس في مجلد كما عده تذكرة . وذكره ايضاً المالكي وابن الجوزي وياقوت واسموه : غنية الملتمس في تميز الملتبس وشهبة ، وذكر منه بروكلمن نسختين رقم ( ٢٢ )

٧١ — المتفق والمفترق في ستة عشر جزءاً كما عـده المالكي ، وذكره

ايضاً ابن الجوزي وياقوت وابن كثير وابن الصلاح ص ٣٥٦ — وقال : وهو كتاب حفيل ولكنه غير مستوف للأقسام التي يذكرها المؤلف — والسيوطي في التدريب ص ٢٤٢ — وقال : كتاب نفيس — وكشف الظنون والرسالة المستطرفة ص ٨٦ — وقال : وهو في المتفق لفظاً وخطاً من الأسماء والألقاب والأنساب ونحوها وهو مفترق معنى ، وهو كتاب نفيس في مجلد كبير ، وشرع الحافظ ابن حجر في تلخيصه مع استدراك ما فاته فكتب منه أشياء يسيرة ولم يكمله — وذكر منه بروكلمن ثلاث نسخ رقم ( ١١ )

٧٢ — من حدث ونسي في جزء كما ذكره المالكي وشبية وذكره أيضاً ابن الجوزي وياقوت وتذكرة وابن الصلاح ص ١٣٠ — وأسماه : أخبار من حدث ونسي —

٧٣ — من وافقت كنيته اسم ابيه مما لا يؤمن من وقوع الخطأ فيه في ثلاثة اجزاء كما عده المالكي وتذكرة وفي جزئين كما عده ابن طولون وفي مجلد كما عده شهبة ، وذكره ايضاً ابن الجوزي وياقوت — وقال ابن طولون وعليه تمات بخط الحافظ ابي بكر بن المحب .

٧٤ — المؤتنف في تكملة المختلف والمؤتلف في اربعة وعشرين جزءاً كما عده ابن شهبة وفي مجلد كبير كما عده تذكرة ، وذكره أيضاً المالكي — وأسماه : المؤتنف في تكميل المؤتلف والمختلف — وابن الجوزي وياقوت والاصابة لابن حجر ١ : ٢٣٧ ونخبة ص ٦٠ وقال : هو ذيل على الدارقطني وتذكرة ٤ : ٤ — وقال : لابن ما كولا كتاب اسمه مستمر الأوهام يأخذ فيه على مؤتنف الخطيب — وكشف الظنون ٢ : ٤٠٧ وقال: المختلف والمؤتلف في أسماء الرجال للدارقطني ضبطها فيه وأخذ منه الخطيب من مشتبه النسبة وزاد عليها وجعله كتاباً سماه المؤتنف تكملة المختلف وجاء أبو نصر علي بن هبة الله بن ما كولا فزاد عليه وجعله كتاباً حافلاً سماه الاكمال ، أجاد فيه

وذكر عفيف الدين بن الدواليبي : اسمه المؤتلف والمختلف ، ظاهرية حديث ٢٨٥ ، ١٤٠[١] — وذكره بروكلمن رقم (٥)

٧٥ — الموضح لأوهام الجمع والتفريق في أربعة عشر جزءاً كما عده شهبة وفي مجلد كما عده تذكرة ، وذكره أيضاً تاريخ بغداد ١١ : ٤٢٩ والمالكي وابن الجوزي وياقوت وابن خير — وقال : الموضح لأوهام ابي عبد الله البخاري في التاريخ الكبير — والنخبة ص ٣٧ — وقال : اجاد فيه — وذكره بروكلمن عن تاريخ بغداد ولم يذكر نسخة ما منه ؛ على ان منه مخطوطة في احمدية حلب رقم ٣٣٦

## التواريخ

٧٦ — تاريخ بغداد في ستة ومائة جزء كما عده المالكي وابن الجوزي وشهبة وغيرهم كثير انظر ما يقوله فيه بروكلمن رقم (١) وما يعدده من نسخة وذيوله المخطوطة والمطبوعة ويضاف إليه جزء في الظاهرية عام ٣٩٦٤ . أما نسخته المطبوعة ففيها خروم في محال عديدة . وانظر ما يقوله في هذا الكتاب الأب أنستاس ماري الكرملي : لغة العرب ٣ : ٣٣٨ وانظر طبقات السبكي ١ : ١٧٣ عن مقارنته بتاريخ الحاكم وتذكرة الحفاظ ٤ : ٨ ولسان الميزان ١ : ١٥٥ عما ألحق بهذا التاريخ بعد وفاة الخطيب . ومما ذيل به على تاريخ الخطيب فلم ينته إلينا منه نسخة ماذيل هبة الله بن المبارك السقطي(ذيل ابن رجب ظاهرية تاريخ ٦١ ، ٤٤[٢] ) وذيل شجاع بن أبي شجاع الذهلي ، ولكن مؤلفه غسله قبل وفاته ( المنتظم ٩ : ١٧٦ )

٧٧ — مناقب أحمد بن حنبل ، ذكره المالكي وتاريخ بغداد ٤ : ٤٢٣ وقال : قد ذكرنا مناقب أبي عبد الله أحمد بن حنبل مستقصاة في كتاب أفردناه لها .

٧٨ — مناقب الشافعي ، ذكره المالكي وسبكي ١ : ١٨٥ ، وقال

الخطيب في تاريخ بغداد ٢ : ٧٣ : ونحن نورد معالم الشافعي ومناقبه على الاستقصاء في كتاب نفرده لها « إن شاء الله » .

٧٩ — كتاب الوفيات ، ذكر منه بروكلمن نسخة مطبوعة رقم ( ٧ ) ولم يذكره أحد من القدماء .

## المجهول

٨٠ — كشف الأسرار ، ذكره كشف الظنون ٢ : ٣١٧ ، ولم يذكره غيره .

٨١ — رياض الأنس إلى حضاير القدس ، كتاب في الوعظ ظاهرية تفسير ١٢٢ ( ١٤٤ ) وليس فيه شيء من نفس الخطيب ويبعد أن يكون له .

# مصنفات الخطيب على الحروف

## مع إحالة إلى فهرستها

| | |
|---|---|
| إبطال النكاح | ٣٨ |
| إجازة المجهول | ٢٦ |
| أحاديث مالك | ١٥ |
| الاحتجاج للشافعي | ٤٧ |
| أخبار من حدّث ونسي | ٧٢ |
| أدب الفقيه | ٣٤ |
| إذا أقيمت الصلاة | ٣٩ |
| أسماء المدلسين | ٥٩ |
| أسماء من روى عن مالك | ٦٥ |
| الأسماء المبهمة | ٥٥ |
| الأسماء المتواطئة | ٥٦ |
| اقتضاء العلم | ٢٩ |
| أمالي الخطيب | ١ |
| أمالي الجوهري تخريج الخطيب | ١٦ |
| باقي التلخيص | ٥٨ |
| البخلاء | ٥٢ |
| البسملة من الفاتحة | ٣٧ |
| بيان أهل الدرجات | ٥٧ |
| بيان حكم المزيد | ٢٢ |
| تاريخ بغداد | ٧٦ |

| | |
|---|---|
| تالي التلخيص | ٥٨ |
| التبيين | ٥٩ |
| التطفيل | ٥٤ |
| التفصيل للمبهم | ٦٠ |
| تقييد العلم | ٣٠ |
| تلخيص المتشابه | ٦١ |
| تمييز المزيد | ٦٢ |
| التنبيه والتوقيف | ٥٣ |
| الجامع لأخلاق الراوي | ٣١ |
| الجهر بسم الله | ٤٠ |
| حديث الامام | ٢ |
| حديث الستة | ٦٦ |
| حديث عبد الرحمن | ٣ |
| حديث محمد بن سوقة | ١٠ |
| حديث النزول | ٤ |
| حديث نضر الله | ٥ |
| الحيل | ٤١ |
| خطبة عائشة | ٥٠ |
| الخيل | ٤١ |
| الدلائل والشواهد | ٤٢ |



# مقدمة البحث عن ثقافة الخطيب وأثره

الآن وقد فرغنا من تصفح ثبت مصادر ثقافة الخطيب وفهرسة تصانيفه ، حانَ أن نستخرج خلاصةً من هذه الأسماء العديدة — وهي ، إن كان أتيح للقارئ معرفة بعضها فيما مرَّ بقراءته عنها ، فقد فاته أكثرها — ثم حقّ علينا أن نحللها إلى أجزائها ، ونجمع شتاتها ، لننشئ منها صورةً عن ثقافة الخطيب وأثره . على أن الشك قد يستوقفنا قبل ذلك ، فنرتاب بأسلوب يعتمد على التعداد ، وبمعرفة تقوم على التسمية ، وبنتائج تُستنبط مما جُهل مضمونه وعُرف ظاهره . وحقيقي أن لهذا الشك قوة قد تزعزع يقين الإيمان بعلم الإحصاء . غير أنا لا نلتمس علماً فقدنا أصوله ، ونتائج عزّت أسبابها ، بل نقتصر على خلاصة ثبتت عندنا تفاصيلها ، وتحققنا عللها .

فأي شيء يكوّن العلم وينشئ الثقافة أكثر من التخرج بأستاذ والقراءة في كتاب ؛ ولئن كان للأستاذ الواحد تلامذة يختلفون بالمدارك ، وللكتاب أثر في نفس قارئه يختلف قوة باختلاف ذكائه ومزاجه ، فلا ريب في أن من اشتركوا في الدروس ، أو اتحدوا في القراءة ، تشابهت معرفتهم وتماثل علمهم ؛ فقديماً طبع

الأستاذ التلميذ بطابعه ، وطالما أحدث المؤلف الأثر الذي يلتمسه في نفس قارئه . ومن ثَمّ جاز لنا الاستئناس بالثبت الذي رأيناه ، حتى إذا وافقت معرفتنا للخطيب نتائجه ، أصبح الاستئناس ثبتاً ، يقوم مقام التوسع في الدرس ، إن فات ذلك .

أما حصر آثار المصنفين فواسطة إلى كشف غايتهم من التأليف ، ومعرفة مدى جهدهم فيه ، وثمرة أتعابهم منه ، ويكمل ذلك ويتضح إن اقترن بالاستفادة من أقوال من عرف المصنفات ، فنقدها أو قرّظها

ألا إننا نبغي من بحث مصادر ثقافة الخطيب معرفة تكوّن تلك الثقافة ، والأسس التي قامت عليها ، والاتجاه الذي استمدته منها . ونرمي من بحث فهرسة مصنفاته وما قيل عنها إلى معرفة ما أفاد من ثقافته وعلمه ، وتفصيل الموضوعات التي ألف بها ، وإظهار الغاية التي نشدها ، وضبط النتيجة التي أفضى إليها .

## ثقافة الخطيب في نشأتها واكتمالها

### كمال الخطيب في علم الحديث

اقترن كمال أبي بكر الخطيب في الخَلق والخُلق بكماله في العلم والمعرفة ، بل لعله كان محظوظاً في علمه أكثر من أي شيء آخر ؛ فهو الذي رفع أصول علم الحديث إلى ذروتها ، وقادها إلى كمالها . ولئن أكبّ المحدثون بعده على العمل لرفع شأن مصطلح الحديث ، فإنما كانت هديتهم به ، وغايتهم التقرب من درجته . وليس يعني ذلك أنه وضع وحده تلك الأصول ، أو أنه استخرجها من نفسه . لا ! بل تلقى علم الحديث خصباً ممتعاً جنياً ، فأقبل عليه يستنطقه ، ليستخرج القواعد التي قام عليها ، ويفصلها ويضبطها ، معتمداً فيها على ما ظهر له من طرائق المحدثين وأسلوب جمعهم ونهج روايتهم . والغاية من هذه المقدمة وضع أبي بكر الخطيب في موضعه الذي يليق به ، حتى إذا تجاوزنا إلى الكلام عن نشأة معرفته وتكوّن ثقافته ، اعتبرنا تلك الدرجة ، وبحثنا عن تعليل لها وإظهار لمكنونها .

### تفضيله الحديث على الفقه

قرأتَ في سيرته جمعه بين الدرس للفقه والحديث والأخذ عن مشايخ هذين العلمين . ولعلك تساءلت عن سبب تركه الفقه وأخذه

بالحديث ، بعد كان همه أن يصبح فقيهاً . والجواب عن ذلك تراه في محبته للعلم ، فقد تصوَّرت حين تعرّف مزاجه شخصية العالم بميوله وأخلاقه وآرائه في الناس والحياة ، ومن كانت هذه صفته فضل الحديث على الفقه ، لأن المحدث يحيا حياة العالم ويتصف بمزاجه أكثر من الفقيه ؛ فهو يقضي حياته في علمه بين كتبه وأساتذته أو تلامذته ، أما الفقيه فعليه أن يختلط بالناس ، فيفهم أخلاقهم وعاداتهم ليتمّ له فهم سرّ الشريعة ودواعي القضايا وليضع حداً للخصومات . ألا إن المحدث يتخذ العلم غاية حياته ومعيشته . أما الفقيه فيتخذه واسطة للحكم بين الناس والفتوى لهم . ولعل هذا تعليل ما ذكره ابن خلكان[1] من أنه كان فقيهاً فغلب عليه الحديث ، فالخطيب ، كما رأيت ، لا يفضل على العلم الخالص شيئاً .

سر نجاحه في علمه

وكذلك تمّ اتصاله بالحديث رغبة من نفسه لا إجهاداً لها ، وحباً به لا افتقاراً إليه . وكفى المرء نجاحاً أن يطلق لمواهبه العنان ، فتسيره حيث هي خليقة أن توجهه . وسر نجاح الخطيب إنما هو انطلاقه في علم دفعته إليه نفسه وقاده ميله وأرشده حبه .

---

(١) وفيات ١ : ٢٧

ما أفاد من درسه على الفقهاء

على أن أخذه عن الفقهاء لم يذهب دون جدوى ؛ ومنهم خمسة أعلام لزمهم[1] ، فأخذ عنهم حسن الاستنباط والاستخراج ، ووضع المسائل وإيجاد حلول لها ؛ فتلك صفة الفقهاء يستنبطون مسائل الشرع ، ويعللونها ويضعون أصولها . ولعل الفقيه الذي كان له بين شيوخ الخطيب في الفقه أقوى الأثر فيه ، هو أبو الطيب الطبري الذي لم يرَ أبو إسحاق الشيرازي المشهور « أكمل اجتهاداً وأشد تحقيقاً وأجود نظراً منه[2] » .

مشايخه في الحديث

ثم نشأ الخطيب بين المحدثين ، يتنقل من واحد إلى آخر ، أو يجمع بينهم . واختياره يوقعه على أعلاهم رتبةً وأوثقهم حديثاً . ولزم منهم بصورة خاصة خمسة وعشرين محدثاً[3] وهم أعلام الحديث في عصره ، وتأثر بالدرجة الأولى منهم بإمام كبير من أئمة الحديث في

---

(١) انظر تعدادهم في رقم ٨ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٥١ ، ٥٧

(٢) تهذيب الأسماء واللغات ١ : ٢ : ٢٤٧

(٣) انظر تعدادهم في رقم : ٤ ، ٥ ، ٧ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ — ٤١ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦

عصره ، هو أبو بكر أحمد بن غالب البرقاني ( ٣٣٦ — ٤٢٥ ) فأخذ عنه حبَّ الاستكثار من الحديث[١] ، والرحلة البعيدة فيه .

شيوخه الآخرون

أما الأساتيذ الذين تلقف عنهم العلوم الأخرى ، فهم قلائل في التعداد الذين بين أيدينا ؛ فإما أن يكون المحدثون أهملوا ذكر أساتذته في غير الحديث ، أو أنه هو لم يُعن بالوقوف كثيراً عند غير المحدثين . وأياً كان فإنا نجد في تعدادنا أدبيين ومتكلمين ومؤرخاً ومتصوفين وقارئاً[٢] . ونستلخص من ذلك جمعه الدرس على غير مشايخ الحديث مع هؤلاء ، وإن غلب عليه الأخذ من المحدثين ، والتطبع بنفسيتهم والعناية بطرق روايتهم .

ولعه بالقراءة

وأثر المحدثين يظهر في نفسه واضحاً ، فهو يتابع أسلوبهم حتى في غير الحديث ، ولا يرتضي أخذ كتاب إلا بالرواية بالسند ، شعراً حواه ذلك الكتاب أو أدباً أو فقهاً ؛ ناهيك عن الحديث .

---

(١) انظر في كثرة جمع البرقاني للحديث

(٢) رقم ١ ، ٢ للأدب ؛ ٣ ، ١٣ للكلام ؛ ١٥ للتاريخ ؛ ٦ ، ٥٣ للتصوف ٤٧ للقراءة

ذلك إلى شديد ولعه بالقراءة ، فقد كان كما قال ابن الأبنوسي : « يمشي في الطريق ، وفي يده جزء يطالعه »[1] . ومن كان هذا شأنه غلب عليه خلاف ما غلب على الخطيب من الاقتصار على الكتب المقروءة بالسماع .

## الخطيب أديب في ثقافته

ومن حسن الحظ أن انتهت إلينا تسمية الكتب التي سمعها ، وكان يقرأها في دروسه في دمشق ؛ وعدتها (٤٧٢) كتاباً بين مصنف ضخم ، وسفر متوسط ، وجزء صغير . وأول شيء يوحي به النظر في هذه التسمية أن الخطيب الذي اقتصر بالإجمال على الدرس على المحدثين ، أخذ من كل العلوم الإسلامية بطرف واسع . وهاك قراءاته للعلوم :

علوم القرآن ٥٧ كتاباً وأكثرها من الأسفار الكبيرة منها ١٠ تفاسير و ١١ في القراءات

الفقه ٤٨ كتاباً متوسطاً .

الكلام والزهد والرقائق ٦٩ مجلداً .

علوم اللغة العربية ١٨ كتاباً متوسطاً

---

(١) شهبة ١٤٠' تذكرة ٣ : ٣١٧ وانظر المنتظم ٨ : ٢٦٧

الأدب ٤٤

التاريخ ١٥٨

الحديث ٦٥

والذي يؤخذ من هذا الثبت بادئ الرأي أنه أخذ من كل من العلوم بطرف فلم يهمل منها شيئاً ، ولو أنه فضل بعضها على بعض . فهو إذن مشارك في علوم العرب مشاركة هي من صفات الأديب في ذلك العصر الذي يجب عليه « أن يأخذ من كل علم بطرف » على حد تعبير ابن خلدون [١] .

تتبعه لتاريخ الحديث

ولكننا نرى من هذا الثبت أن المادة التي طغت على غيرها ، هي التاريخ . فقد ورد فيها أكثر من ثلث ما حدث به من الكتب . وإذا أمعنا النظر في كتب التاريخ ألفينا معظمها في تاريخ المحدثين ونقد رجالهم . وهاك ما خصص لذلك بالجملة وبالنظر إلى اسم الكتاب :

التواريخ أو تاريخ رجال الحديث ٤٢

أسماء رجال الحديث والرواة ١٦

طبقات رجال الحديث ٦

الضعفاء منهم ٥

(١) المقدمة المطبعة الأزهرية سنة ١٣٤٩ ، ٤٨٨

ومجموع ذلك (٦٩) كتاباً، ضمنت البحث عن الرواة والمحدثين. وليس عبثاً عنايته بجمع الكتب في هذه المواد مع تشابهها بالأسماء والمادة والغاية. فقد كان يقصد استقصاء تلك المادة للتخصص في تاريخ الحديث. وتلك ظاهرة لم نرها حين البحث عن أساتذته، فقد عُرف عنهم جميعاً العناية بالحديث، ولم يخُصوا بنقد الرجال أو التأليف في ذلك. على أن إقبال الخطيب على كتب الحديث الخالصة واضح فقد قرأ منها (٦٥) كتاباً.

المصنفون الذين عني بهم الخطيب

أما المؤلفون الذين رغب فيهم فتتبع مؤلفاتهم، وحرص على روايتها، واستكثر منها، فهم:

| | | | |
|---|---|---|---|
| المؤرخون | المدائني | قرأ له | ١٠ تصانيف |
| المحدثون المؤرخون | يحيى بن معين | 〃 〃 | ٧ 〃 |
| المؤرخون الأدباء | ابن المرزبان | 〃 〃 | ١٤ مصنفاً |
| 〃 〃 | 〃 قتيبة | 〃 〃 | ١٠ تصانيف |
| المحدثون | الدارقطني | 〃 〃 | ١١ مصنفاً |
| 〃 | مسلم | 〃 〃 | ٧ تصانيف |
| 〃 الأدباء | أبو عبيد القاسم بن سلام | 〃 〃 | ٩ تصانيف |

| | | | |
|---|---|---|---|
| المحدثون المتصوفون | ابن أبي الدنيا | قرأ له ٣٩ | مصنفاً |
| الفقهاء | الشافعي | 〃 〃 ٧ | تصانيف |
| الفقهاء المتكلمون | الفريابي | 〃 〃 ٧ | 〃 |
| القراء | نفطويه | 〃 〃 ٧ | 〃 |

وجلهم ممن عني إما بالحديث أو التاريخ ، فاهتمّ الخطيب بهم لأحد هذين الأمرين ؛ وفيهم الفقيه والمتكلم والقارئ ، وذلك رمز إلى ميل في نفسه لهذه الفروع ، لا إلى اختصاص يقصده ، واستقصاء يتعمده . ومما يلاحظ أنهم كلهم من أجلة العلماء ورؤسائهم ، وممن تركوا أثراً في العلوم التي كتبوا بها ، وممن اشتهروا بالتصنيف شهرتهم بالعلم وتفردهم بالأثر . ولعل القارئ انتبه إلى مكانة ابن أبي الدنيا عند الخطيب ، وحرصه على جمع رواية كل آثاره ، حتى كاد يستوفيها جميعاً . ولعل أبا بكر الخطيب أقبل عليه لسعة اطلاع وجده عنده ، وحسن معرفة لمسها في مؤلفاته ، وتعرض لموضوعات انفرد بها عن غيره .

زبدة القول في ثقافته

وزبدة القول أن الخطيب أديب أخذ من كل علم من علوم الإسلام : تثبت في علوم العربية فعُدَّ أديباً ، وقرأ على الفقهاء وعلماء

الأصول ، فقوي استنباطه للمسائل . ثم استهواه علم الحديث ، وراق له أسلوبه في النقل والضبط ، وأراد التوثق فيه ، فأقبل على رجاله يتتبع تاريخهم ، فوجد في نفسه ميلاً إلى التاريخ فأمعن في درسه ، وصار يستقصي كتبه يضيفها إلى رواياته ، ويتتبع آثار من أجاد فيه واشتهر به . وبكل ذلك تكوّنت ثقافته ونتج علمه .



# آثار الخطيب وأهدافه فيها إجمالاً

شرفه بتصانيفه

تلك الثقافة وذلك العلم صرفهما الخطيب مصرفاً حسناً ، فأبقى للعصور من بعده أثرهما الخالد في مصنفات قيمة . وليس شيء عند الخطيب أبعد أثراً وأعظم فائدة من تلك المصنفات ، حتى إن مترجميه كانوا يرمزون شرفه إليها ، وينسبون مكانته إلى قيمتها ، فيقولون حين التعريف به : « صاحب التصانيف[1] المنتشرة[2] » « التي تبلغ غاية المراد »[3] و « أحد الأئمة المشهورين » « المصنفين المكثرين[4] » و « إمام مصنف حافظ[5] » « سارت بتصانيفه الركبان[6] » و « صنف الكتب الحسان البعيدة المثل[7] » « وأعجز الناس في تصنيفه الكتبا[8] »

---

(١) تذكرة ٣ : ٣١٢

(٢) سبكي ٣ : ١٢ ، مختصر تاريخ الاسلام لابن حجر ، احمدية حلب ١٢٢٠ سنة ٤٦٣

(٣) من كلام عفيف الدين ابن الاوالبي ظاهرية حديث ٢٨٥ ، ١٤٠[1]

(٤) تاريخ دمشق ١ : ٣٩٨ وعنه ارشاد ٤ : ١٤

(٥) ابو غالب شجاع الذهلي في شهبة ١٣٩[2] تذكرة ٣ : ٣١٧ ، سبكي ٣ : ١٣ ووصفه بالتصنيف ابن حاتم المقدسي ٨٧[2]

(٦) تذكرة ٣ : ٣١٣

(٧) ذكر كبار الحفاظ لابن الجوزي ( ظاهرية مجموع ١٠٠ ، ١٣٦[1] )

(٨) من رثاء ابي الخطاب بن الجراح في تاريخ دمشق ١ : ٤٠٠ ، ارشاد ٤ : ٤٣ شهبة ١٤١[2]

مدح السلفي لمؤلفاته

وعمَّ ذلك حتى انتقل إلى الشعر ، فمدحه الحافظ السلفي ( ٤٧٢ — ٥٧٦ ) بعد أن قرأ تصانيفه واستفاد منها بقوله[١] :

تصانيف ابن ثابتٍ الخطيب ... ألذ من الصبا الغضّ الرطيب
يراها إذ رواها من حواها ... رياضاً للفتى اليقظ اللبيب
ويأخذ حسن ما قد صاغ منها ... بقلب الحافظ الفطن الأريب
فأية راحــةٍ ونعيم عيشٍ ... يوازي كتبها أم أي طيب

رأيه في التصنيف

ولعمري إنهم وصفوه ومدحوه بما حبب إليه ، وبما كان يجلّ أثره حين يقول[٢] :

إن التصنيف « يثبت الحفظ ، ويذكي القلب ، ويشحذ الطبع ، ويجيد البيان ، ويكشف الملتبس ، ويكسب جميل الذكر ، ويخلده إلى آخر الدهر . وقلّ ما يمهر في علم الحديث ، ويقف على غوامضه ، ويستبين الخفيّ من فوائده إلا من فعل ذلك . وحدّث الصوزي الحافظ محمد بن علي قال : رأيت أبا محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ

(١) إرشاد ٤ : ٣٤ ، شهبة ١٣٩^٢ سبكي ٣ : ١٣ وفي نصها اختلاف وقد اثبتنا نصها من شهبة

(٢) مقدمة ابن الصلاح ٢١٣

في المنام ، فقال لي : يا أبا عبد الله خرّج وصنف قبل أن يحال بينك وبينه . هأنذا تراني قد حيل بيني وبين ذلك » .

عدد مصنفاته

ألا إن أبا بكر لم يحل بينه وبين التصنيف رحلة أو عمل أو سعي لكسب ؛ فقد ألف كثيراً ، حتى قيل إنه « صنف قريباً من مائة مصنف [(١)] » . وحصر ابن النجار عدد مؤلفاته بنيف وستين مصنفاً ، وجدها في فهرسة لها خاصة [(٢)] . وحصرها محمد بن أحمد المالكي بستة وخمسين ألفها قبل سنة ٤٥٣ [(٣)] . وبهذا العدد أخذ السمعاني [(٤)] وابن حاتم المقدسي [(٥)] . وابن الأثير [(٦)] . وقال ابن شافع إنه « مات عن نيف وخمسين مصنفاً سوى ما وُجد في الرقاع غير مفروغ منه [(٧)] » .

والذي انتهى إليه جمعنا لشتات أسمائها تسعة وسبعون مصنفاً . أما

---

(١) الأنساب ٢٠٣[٢] ، وفيات الاعيان ١ : ٢٧ البداية ١٢ : ١٠١ وعن ابن الاهدل : شذرات ٣ : ٣١٢

(٢) شبهة ١٣٩[١] تذكرة ٣ : ٣١٦ — ٣١٧ ؛ سبكي ٣ : ١٣

(٣) ظاهرية مجموع ١٨ (٦)

(٤) في شبهة ١٣٨[٢] وتذكرة ٣ : ٣١٦

(٥) الاربعين له ٨٧[٢]

(٦) جامع الاصول ٥٠[٢]

(٧) في ابن نقطة ؛ الاول من الاستدراك ؛ ظاهرية حديث ٤٢٣ ؛ ٥[١]

ما حصرناه من عدد أجزائها فستة وثلاثون وأربعمائة جزء . ونحن في ذلك منقصون لا مزيدون ، فقد اعتبرنا المصنف الذي لم ينوه بعدد أجزائه جزءاً واحداً ، وما ذكر أنه مجلد أربعة أجزاء . وقد وقفنا عند آخر جزء وقع لنا مما عثرنا عليه في دور الكتب ، ولو أن هذا الجزء ليس آخرها ، اللهم إلا إذا حدد في فهرس مصنفاته[1] .

هذه الأجزاء هي أجزاء حديثية ، إذا طبعت بالقطع المتوسط والحرف المعتدل دون هامش قاربت صفحاتها الخمسين أي كونت سدس مجلد . وكذلك فعدد المجلدات التي ألفها الخطيب بحصرنا أكثر من اثنين وسبعين مجلداً . وهو عدد ضخم يفوق عدد سني حياته ، فكأنه نذر على نفسه أن يخرج أكثر من مجلد عن كل سنة قضاها في هذا العالم .

جودة تصنيفه

هذه الكثرة في التصنيف ، وهي حسنة من حسناته ، تتضاءل أمام جودة تصنيفه . فانظر في فهرسة مصنفاته ما ذكره عن معظمها كبار المؤلفين وعن إجلالهم لها . ذلك أن أبا بكر كان يدرك أن المؤلَّف رمز المصنِّف ، ودليل علمه ومعرفته ، بل دليل على عقله ،

---

(١) آثرنا الاخذ بتعداد شبهة للاجزاء على تعداد المالكي لما صح عندنا من حسن ضبط الاول

فكان يقول[1] : « من صنف فقد جعل عقله على طبق ، يعرضه على الناس » فما أحراه أن يجيد ، فيعرض عقلاً كاملاً ، ويؤيد بذلك اتصافه بالإتقان وأخذه بأسباب الكمال . وقليل هم أولئك الذين أكثروا في الكتابة وأجادوا في التصنيف . وقد عدهم أستاذنا محمد بك كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي[2] ، فذكر في عدادهم الخطيب ، وقال : « وهو من المجيدين على إكثارهم » .

اعتراف خصومه بجلالة آثاره

ولقد كبت الخطيب بجودة تصانيفه وكثرتها خصومه وأعداءه وحساده ، فلم يستطيعوا أن ينقصوا من قيمتها ، أو يحطوا من قدرها ؛ بل اعترف بعضهم بجلالتها ، فقال ابن الجوزي[3] : « ومن نظر فيها عرف قدر الرجل وما هيئ له ، مما لم يهيأ لمن كان أحفظ منه كالدارقطني وغيره » . على أنهم قلبوا الأمر من جميع وجوهه ، فلم يجدوا إلا الحط من صاحبها ، بنسبتها إلى حفظه ، والخفض من ذلك الحفظ ، يفعلون ذلك تارة ، وينفون عنه تلك المصنفات تارة أخرى : ينسبونه إلى سرقتها ونقلها عن غيره .

---

(١) شهبة ١٤٠ أ ؛ تذكرة ٣ : ٣١٨

(٢) في مقالة له بمجلة المجمع العلمي العربي ١٧ : ٦٣-٧٧ اسمها « المكثرون من التأليف والمجودون فيه » ذكر فيها الخطيب ص ٦٨

(٣) المنتظم ٨ : ٢٦٦ وإرشاد ٤ : ٢١

مقارنة حفظه بتصنيفه

وأول التهم التي تنسب إليه في علمه ضعف حافظته . وهاك محمد بن طاهر المقدسي الذي رأينا تحامله عليه وخلقه الروايات الباطلة فيه يقول : سألت هبة الله عبد الوارث الشيرازي ( – ٤٨٦ ) « هل كان الخطيب كتصانيفه في الحفظ ؟ قال : لا ! كنا إذا سألناه عن شيء أجابنا بعد أيام ، فإن ألححنا عليه غضب . وكانت له بادرة وحشة . ولم يكن حفظه على قدر تصانيفه [١] . » والإيقاع بالخطيب ظاهر في هذا القول . وإذا كان فيه شيء من الصحة ، فهو إرجاء الخطيب الجواب عن مسائل العلم التي تنقل عنه إلى ما بعد الرجوع إلى الكتاب ، يؤيد ذلك قول الحميدي [٢] : « ما راجعت الخطيب في شيء إلا وأحالني على الكتاب ، وقال حتى أكشفه ؛ وما راجعت ابن ماكولا في شيء إلا وأجابني حفظاً ، كأنه يقرأ من كتاب » . وليس في هذا طعن عليه ، بل تثبيت لعلمه وحبه للتوثق . فلم تكن سرعة الجواب في مسائل العلم العويصة التي تعرض على الأستاذ ، لتدل على مكانته عند المحدثين ، فالتثبت عندهم هو المعرفة بعينها . والتحديث من الكتاب والرجوع إليه حتى عند الحفظ والمعرفة

(١) إرشاد ٤ : ٢٧ الرد على ابي بكر ١٧٦ شهبة ١٤٠ أ تذكرة ٣ : ٣١٩

(٢) تذكرة الحفاظ ٤ : ٤ شذرات ٣ : ٣٨١ والاربعين لابن حاتم ٢٩٤

واجب عندهم استنه إمامهم أحمد بن حنبل ، فقد كان لا يحدث إلا من كتاب ، وكان يحض على ذلك[١] وهاك تأييد قولنا في الخطيب ماذكره أبو طاهر السلفي قال[٢] : « سألت أبا الغنائم النرسي عن الخطيب » ، فقال : « جبل لا يسأل عن مثله ، ما رأينا مثله ، وما سألته عن شيء فأجاب في الحال » انظر كيف كان إجلاله له ، حتى أقر بأنه لم ير مثله ، ثم لم ير نقصاً لما قال بل تأييداً له في ذكر تأجيل الخطيب الجواب عن المسائل .

جودة حفظه لأصول العلم

على أنا لا نريد بذلك أن نقول إن الخطيب كان حافظاً لكل ما جمع وألف وكتب ، كما روى عن بعضهم ، فذلك مالا يطلب منه ؛ إنما نقصد به أن علمه لم يكن في كتابه فقط بحيث لا يجيد إلا حين يكون معه . كلاّ ! فهنالك مسائل العلم وأصوله الأولى يحفظها أبو بكر ، ويناقش بها ، ويعلو بمعرفتها . عرض في مجلس أبي إسحاق الشيرازي[٣] اسم بحر بن كنيز السقاء ، فقال أبو إسحاق

(١) المجلد الأول من الكمال لعبد الغني المقدسي مخطوطة الظاهرية حديث ٣٦٦ ، ١٢١

(٢) تذكرة ٤ : ٥

(٣) شهبة ١٣٩٢ ؛ سبكي ٣ : ١٤

للخطيب ما تقول فيه ، فقال الخطيب : إن أذنت لي ذكرت حاله ، فأسند الشيخ ظهره من الحائط ، وقعد كالتلميذ ، وشرع الخطيب يقول : قال فيه فلان كذا ، وقال فيه فلان كذا ، وشرح أحواله شرحاً حسناً . » لم يكن أبو بكر يشحن ذاكرته بغريب المسائل ، ونوادر العلم التي لا فائدة منها إلا فيما ندر ؛ إنما كان يحفظ ما يثبت به علمه ، ويوثق به روايته . ولعله بذلك زاد في حسن تصنيفه ، فقديماً كان الحفظ الغزير مخففاً لإجادة التفكير وحسن الاستنباط ، لِما تطعن به الذاكرة الفكر ، وتخمد به القريحة .

## اتهامه بسرقة تصانيفه

غير أن تهمته بقلة حفظه ليست شيئاً ، إذا نسبت إلى اتهامه بسرقة تصانيفه . فخصومه يحاولون بهذه التهمة الأخيرة أن يفقدوه أعزّ ما عنده . وما أسهل ما يستطيع المرء اتهام الناس بالباطل ، لأن أبوابه كثيرة . ومبتدع هذه التهمة على ما ظهر لنا أحد تلامذته المبارك بن عبد الجبار أبو الحسين بن الطيوري ( — ٥٠٠ ) فقد قال : « أكثر كتب الخطيب سوى تاريخ بغداد مستفاد من كتب الصوري [ أبي عبد الله محمد بن علي ] : كان الصوري ابتدأ بها ، وكانت له أخت بصور مات أخوها ، وخاف عندها عدلاً محزوماً من الكتب

فلما خرج الخطيب إلى الشام حصل من كتبه ماصنف منها كتبه[١]» .
ويذكر بعضهم أن ابن الطيوري روى هذه التهمة بقوله : «يقال[٢]»
ولكن النص الأول أقوى وأثبت . ومما يؤيده إعجاب ابن الطيوري
بالصوري ونسبة علم الخطيب إليه حيث يقول : كتبت عن جماعة
أكثر من أن تحصى ، فما رأيت فيهم أحفظ من أبي عبد الله الصوري
... وعنه أخذ أبو بكر الخطيب علم الحديث[٣]» .

ردّ هذه التهمة

وليس ردّ هذه التهمة بالأمر الشاق ، فهي ضعيفة من وجوه .
أولها أن مبتدعها لم يحسن وضعها التاريخي ، ولو أنه أحسن اختيار
الصوري كصاحب للمؤلفات التي نسب سرقتها للخطيب . فقد
عرف أن الصوري لم يتمم ، ولم يخرج أكثر مصنفاته . ولعل ذلك

---

(١) بهذا التفصيل في الارشاد ٤ : ٢٧ وبحذف بعض الكلمات في المنتظم ٨ : ١٤٤ شهبة ١٤٠^٢ وباقتضاب في مرآة الزمان لسبط بن الجوزي دار الكتب الوطنية بباريس ١٥٠٦ ؛ ٣^٢ وفي النجوم الزاهرة ٥ : ٦٣ مع غلط في سرد اسم الصوري وتاريخ وفاته فقد ذكر أنه ابو محمد عبد الله بن علي بن عياض وذكر انه توفي سنة ٤٥٠ وهذا شخص آخر .

(٢) البداية ١٢ : ٦٠ ويستبعد ياقوت هذه التهمة فيقول زعم بعض العلماء : معجم البلدان ٣ : ٤٣٤

(٣) ابن حاتم ١٨٥^١ ؛ تذكرة ٣ : ٢٩٥

كان شيئاً معروفاً في عصره ، فقد ذكره السمعاني بقوله : « جمع الصوري جموعاً وتصانيف ، ولم يتمم أكثرها ، لأن المنية عاجلته[١] » ولكن ابن الطيوري لم يعرف أن الخطيب صنف كتبه ، قبل أن يخرج إلى دمشق ، ودُوِّنت فهرسة تلك المصنفات قبل سنة ٤٥٣ دوّنها محمد بن أحمد المالكي . وحدث بها المؤلف قبل ذلك التاريخ . فكان خطأً تاريخياً ما ذكره ابن الطيوري من أنه سرقها بعد خروجه إلى دمشق ، ولو فرضنا أنه يقصد بخروج إلى الشام خروجه إلى الحج عن طريق الشام . وهذا تساهل منا لا يقره مفهوم كلامه ويثبت خلافه من رووا هذه القصة يدينون بها الخطيب كصاحب عقد الجمان حيث يقول : « ثم خرج من البلد ( أي دمشق ) فأقام بمدينة صور فكتب شيئاً كثيراً من مصنفات أبي عبد الله الصوري كان يستعيرها من زوجه »[٢] . لو فرضنا مـا لا وجود له ، لوجدنا الخطيب نفسه يرد التهمة عن نفسه ، دون أن يكون عرف أنها ستحاك له . فيقول في ترجمة الصوري : « قدم علينا في سنة ثمان عشرة وأربعمائة » ثم يقول بعد كلام يمتدحه به : « ولم يزل ببغداد حتى توفي بها في يوم

---

(١) الأنساب ٣٥٦ب

(٢) عقد الجمان ؛ دار الكتب المصرية تاريخ ٧١ م القسم الثاني من الجزء ١٥ في سنة ٤٦٣

الثلاثاء التاسع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٤٤١ ودفن من الغد في مقبرة جامع المدينة ، وحضرت الصلاة عليه ، وكان قد نيف على الستين»[١] ونقل المؤرخون والمحدثون عنه هذا القول[٢] .

وبعد فإن واضع التهمة لم يفطن الى أن الصوري لم يكن ليخلف كتبه وتصانيفه عند أخته بصور ، وهو قاصد أن يقيم ببغداد ، وإنه لو تخلفت تلك الكتب عنه لمانع ما ، كان حرياً بأن يستقدمها ، وقد أقام ثلاثاً وعشرين سنة في بغداد ، وهي كتبه وتصانيفه ، لا يستطيع الاستغناء عنها بحال . وإذا أضفنا إلى ما تقدم أن ابن الطيوري مضعف برواياته عند المؤتمن الساجي من معاصريه[٣] ، اتضح لنا أنه اتهم الخطيب فيما هو براء منه .

على أن الماحك قد يجد فيما أوردناه سبيلاً إلى الجدل ، فله نقول : إن في حياة الخطيب ومزاجه ، وما نشأ عليه من علم ، وما ذكره في تاريخ بغداد من طعن على من يستجيز الرواية من غير سماعه ، لأكبر دليل على استحالة سرقة مؤلفات غيره ، رويت بسند غير سنده ،

---

(١) تاريخ بغداد ٣ : ١٠٣

(٢) السمعاني في الانساب ٣٥٦ ابن حاتم المقدسي ١٨٤ الذهبي في التذكرة ٣ : ٢٩٤

(٣) لسان الميزان ٥ : ٩

وبطرق لم يتصل بها . وفي هذا على مـا نعتقد إقناع بالحق ، إلا لمن أغرق في البحث عن الاحتمالات البعيدة ، يماري بها وجوه الحق ، مما هو ظاهر ، فلهذا أن يعتقد ما يشاء .

نهجنا وغايتنا في البحث عن أثره

وبعد فما هي الموضوعات التي طرقها الخطيب ، ومـا هو الجديد الذي أحدثه فيها ، والأثر الذي خلده بها ؟ يخيل إلينا أن لا جواب عن هذا السؤال إلا في دراسة مصنفاته كلها ، ومقارنتها بما كتب في موضوعاتهـا قبل أن تخرج . وبديهي أن شيئاً من ذلك صحيح ، فلا يضبط أثر المؤلف ، ولا تعرف قيمة ما أحدث إلا بقراءة كتبه ، وتفهم ذلك منها . غير أنا قدمنا بين يدي البحث في ثقافته وأثره قولنا : إنا لا نرمي إلى مـا لا تخولنا إياه النصوص التي علقنا عليها — وهي تعداد مصنفاته ، وما قال فيها أصحاب المعرفة – وبعدُ أليست هذه النصوص بليغة في تحديد الموضوعات التي صنف فيها أبو بكر ، ومعرفة الهدف الذي رمى إليه . ثم أليس في وُسعنا أن نقدّر من أقوال العارفين الأثر الذي خلدته ؟ كل ذلك على أن لا ننشد ضبطاً وثيقاً أو تحديداً عميقاً ، فهذا هو سرّ الأيام المقبلة .

حصر الموضوعات التي طرقها

ولنحصر بادئ بدء تصانيفه بموضوعاتها وتنوعها و كثرتها وإليك جدولاً يظهر ذلك :

| | | عدد المصنفات | عدد الاجزاء | إجمال المصنفات | إجمال الاجزاء |
|---|---|---|---|---|---|
| الحديث : | المسندات والأحاديث | ١٤ | ٣٢ | | |
| | الأحاديث المخرّجة | ٧ | ٥٦ | | |
| | علم السند | ٥ | ٢٤ | | |
| | أصول علم الرواية | ٢ | ١٤ | | |
| | آداب المحدث والفقيه | ٧ | ٣٦ | | |
| | موضوعات أخرى | ١ | ٢ | | |
| | مجموع ما ألفه في الحديث | ٣٦ | ١٦٤ | ٣٦ | ١٦٤ |
| التاريخ : | نقد رجال الحديث ( رقم ٥٩ و ٢٧٢ ) | ٢ | ١٣ | | |
| | إيضاح المبهم من أسماء رجال الحديث | ١٣ | ١٠٢ | | |
| | الرواة عن المشايخ | ٧ | ١٩ | | |
| | التواريخ | ٤ | ١٠٩ | | |

| | عدد المصنفات | عدد الاجزاء | إجمال المصنفات | إجمال الاجزاء |
|---|---|---|---|---|
| مجموع ما ألفه في الحديث | | | ٣٦ | ١٦٤ |
| مجموع ما ألفه في التاريخ | | | ٢٥ | ٢٤٢ |
| العلوم الأخرى : الفقه | ١٣ | ٢٠ | | |
| الزهد | ٢ | ٢ | | |
| الأدب | ٣ | ٨ | | |
| مجموع ما ألفه في العلوم الأخرى | ١٨ | ٣٠ | ١٨ | ٣٠ |
| المجموع العام | | | ٧٩ | ٤٣٦ |

والذي يستنتج من هذا الثبت أن المادة التي استرعت انتباهه ، وأصابت رغبته ، هي التاريخ : من تراجم وأسماء ، فقد ألف فيها أكثر من نصف ما كتب ، ثم عني بالحديث وضبطه وتخريجه ، فكان مجموع ما ألفه من ذلك أكثر من ثلث مؤلفاته . أما ما بقي من تصانيفه فشيء صغير .

تصنيفه في الفقه دفاعاً عن الشافعي

غير أن هذا الشيء الصغير عدداً عظيم بما توخاه منه مؤلفه . فإذا أنعمنا النظر في التصانيف الفقهية وموضوعاتها ، نرى أنه توخى في جمعها الدفاع عن مذهب الشافعي ، وذلك بأن عمد إلى مسائل خالف

فيها الشافعي المذاهب الأخرى أو بعضها ، فأفرد فيها الخطيب تأليفا في جزء أو بضعة أجزاء ، وسند الشافعي في رأيه ، وبرهن على صحة زعمه . ومن تتبع المسائل التي وردت في أسماء مصنفاته الفقهية ألفى محمد بن أحمد بن رشد يشير في كتابه « بداية المجتهد » إلى اختلاف الفقهاء فيها . ونحن نورد أمثلة من ذلك ، نعدّد بها أهم تلك المسائل .

قال ابن رشد [1] : اختلفوا في قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في افتتاح القراءة في الصلاة ، قال الشافعي يقرأها ولا بد في الجهر جهراً وفي السر سراً . » ويؤلف الخطيب كتيباً في ذلك ( رقم ٤٠ ) يدعم ما قاله الشافعي ، ويعنونه بالجهر قمعاً لقول المعارضين .

ويقول ابن رشد [2] : « اختلفوا في القنوت ، فذهب مالك إلى أن القنوت في صلاة الصبح مستحب ، وذهب الشافعي إلى أنه سنة ، وذهب أبو حنيفة إلى أنه لا يجوز القنوت في صلاة الصبح » وإذا بأبي بكر ينشئ ثلاثة أجزاء في القنوت والآثار المروية فيه على اختلافها وترتيبها على مذهب الشافعي ( رقم ٤٦ ) . ويصنف في بعض مسائل الاختلاف الأخرى رسائل [3] يقرر بها رأي الشافعي . ثم لا

---

(١) بداية المجتهد ونهاية المقتصد ( دار الكتب العربية الكبرى ١٣٣٥ ) ١ : ٧٢

(٢) البداية السابقة ١ : ٧٧

(٣) انظر اختلاف الفقهاء عن المسائل التي عرضت في تصانيفه كما يلي : —

يقتصر على ذلك ، بل يرمي إلى الدفاع عنه فيما نسب إليه ، فيؤلف جزءاً في « مسألة الاحتجاج للشافعي فيما أسند إليه والرد على الطاعنين بعظم جهلهم عليه » ( رقم ٤٧ ) وبذلك يظهر تعلقه بمذهب الشافعي ، واستخدامه لعلمه في الذود عنه . ولا شك أن جلالة معرفته للحديث ، وعلمه بطرقه وأسانيده ، وكثرة ما روى منه ، تسعفه في تأييد آراء الشافعي وتخوله إثبات رأيه من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكفى بذلك عند أصحاب الحديث مؤيداً .

جمعه لبعض الأحاديث إظهاراً لصحيحها وفوائدها أو إتماماً لنقص فيها

وبديهي أن تلك المعرفة بالحديث لا بدّ أن تتجلى في تصانيف حديثية خالصة ، غير أن الخطيب لا يؤلف كتبه دون غاية أو في سبيل إظهار معرفته ، بل يتطلب النقص ، فيسدُّ عوزه . وهو إذا وجد « الإكثار من طلب الأسانيد الغريبة والطرق المستنكرة » يفعل ذلك « الأحداث فيتحفظونها ، ويذاكرون بها ، ولعل أحدهم لا يعرف من الصحاح حديثاً ، وتراه يذكر من الطرق الغريبة

— البداية ١ : ٩٦ للمصنف رقم ٤٤ و ١ : ٧٢ لرقم ٣٧ و ١ : ٢٣ لرقم ٤٩ و ١ : ١٦٧ لرقم ٤٨ و ٢ : ٦ لرقم ٣٨ و ٢ : ٢٨٢ لرقم ٤٥ . أما ما لم نجد له ذكراً في الاختلاف فرقم ٣٩ ، ٤١ ، ٤٢ ولعل أبحاثها من دقائق الخلاف أو من غيره .

والأسانيد العجيبة التي أكثرها موضوع ، وجلها مصنوع ، ما لا ينتفع به . وقد أذهب من عمره جزءاً في طلبه »[١] إذا وجد ذلك عمد إلى الموضوعات التي يتحرون فيها الوصول إلى ذلك ، فكشف عن هذه الأسانيد ، وحررها كما فعل في كتابه « طريق حديث قبض العلم » ( رقم ٦ ) وكما لعله فعل في كتب أخرى[٢] . ويؤلف في المسانيد عدداً من الكتب[٣] ولعله يظهر فيها ما خفي على ذوي المعرفة .

ثم يقبل عليه جامعو الحديث ، يرجون منه أن يخرّج مما جمعوا فوائد منتخبة ، تؤثر عنهم ، فيجيب من حسنت روايته منهم ، وكثر جمعه ، وعُرف بجلالة قدره[٤] . وقد يتمّ مادة كتاب قرأه ككتاب مسلم بن الحجاج في معرفة شيوخ مالك والثوري وشعبة[٥] فيجد الحاجة إلى ذكر من روى عن مالك وشعبة ، بعد ما ذكره مسلم من شيوخهم ، فيفرد مصنفين لذلك[٦] . ويعمد إلى كتاب آخر قرأه وهو « التوقيف على فضل الخريف للأمير أبي محمد بن المقتدر »[٧] ،

---

(١) كما يقول هو في شرف أصحاب الحديث ، ظاهرية مجموع ١١٧ (٢) ، ١٥٨

(٢) رقم ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٧

(٣) رقم ٨ — ١٤ دون ١١

(٤) رقم ١٦ — ٢١

(٥) رقم ٤١٧ من تسمية ما ورد به

(٦) رقم ٦٥ و ٦٤

(٧) رقم ٢٦٧ من تسمية ما ورد به دمشق

فيتمه بكتاب يسميه « التنبيه والتوقيف على فضائل الخريف »[١] .
وقد يُطلب إليه تأليف كتاب في التطفيل[٢] أو البخل ، فيفعل للفائدة المطلوبة ولتيسره على ذلك .

غايته الأولى في التصنيف واختصاصه

على أن الفائدة ، وإن حصلت في هذه المصنفات ، فهو إنما يؤلفها عرضاً ، أو لمسيس حاجة ، ومآل هذا القول إنه كان يعمل لنوع من التصنيف خاص ، وقف نفسه عليه ، لا يأخذه في ذلك كلل أو نصب ؛ ذلك هو جمع تاريخ بغداد وضبط أصول الحديث .

أما تاريخ بغداد فقد كان ديدنه طول حياته وأساس شهرته ، وسبب مكانته في العلم . وقد طُبع هذا الكتاب . فصار حقاً علينا أن نفرد له باباً خاصاً نصفه به ونذكر مزاياه ونبين شأنه ، وسيأتي هذا الباب تلوه .

أما كتبه في أصول علم الحديث ، وآداب روايته ، وإيضاح ملتبس أسماء رجاله ، فلا تقل شأناً عن تصنيفه لتاريخ بغداد ، إذا لم ندع أن صفاء قريحته وحسن استنباطه وجودة تأليفه تظهر فيها أكثر مما تظهر في تاريخ بغداد .

---

(١) رقم ٥٣
(٢) انظر مقدمة هذا الكتاب المطبوع

علم مصطلح الحديث قبله

وضع المحدثون طرائق لنقد الحديث ولتمييز صحيحه من معلوله ، وشفعوا ذلك بالأساليب التي يجب أن ينتقل بها من أفواه الرجال إملاءً أو سماعاً . وكان إمامهم في ذلك البخاري صاحب الصحيح ، ثم جمع الرامهرمزي ما وضعوا في كتاب أسماه المحدث الفاصل ، وتبعه الحاكم النيسابوري ، ففصل البحث في معرفة رجال الحديث ، حتى عُدّ واضع تقسيمهم إلى أنواع وتمييزهم بأصناف ، أثر ذلك عنه ، فبقي على ما وضعه .

وألف مسلم والدولابي والدارقطني وعبدالغني بن سعيد في الإبهام الذي وقع في أسانيد الحديث ورجاله .

حاجتان ملحتان فيه

غير أن كلتا الفئتين وضعت كتباً مجملة ، عممت أحكامها ، واختصرت فصولها . وبقيت مسائل عديدة وقع الاختلاف فيها ، وسرى الالتباس والشك إليها ، وذلك أن علم الحديث اتسع اتساعاً هائلاً ، لم يشهد مثله علم آخر ، وكثرت رُواته كثرة كادت تفوق الحصر ، وتعددت لذلك ولأسباب أخر أساليب نقله وطرق روايته ، فخرج على ما كان عليه من الدقة والضبط . وأسفر الأمر

عن حاجتين ملحتين : أولاهما تحرير الاختلاف ، والنظر في الأساليب المستحدثة ، وثانيتهما إيضاح الالتباس والإبهام والإشكال التي تسرّبت إلى أسماء الرجال و كناهم وأنسابهم ، ونتجت عن كثرة الرواة وطول السند .

قيمة تصانيفه فيه

شعر الخطيب بهاتين الحاجتين ، حين طلبه للحديث مرةً وحين جمعه لتاريخ بغداد مرةً أخرى . وقرأ مصنفات المصنفين في ذلك ، فوجدها لا تفي بحاجة ذلك الاتساع ، فعزم على سدّ عوزها ، وفكر بالأسلوب ، فرأى أن خير طريقة تبلغه غايته أن يفصّل في كتب مفردة ما أوجزت فيه بكتاب جامع تفادياً من الاختلاف وللإحاطة بأسباب الالتباس . وانقطع لهذا العمل وطفق يجمع مواده ، فتوفر له منه في ذلك الوضوح ، فصار يخرج تصانيفه الواحد تلوَ الآخر ؛ وإذا به يبلغها عدداً كبيراً .

هذه التصانيف العديدة ، التي رأينا حين تسميتها مديح أصحاب الشأن لها ، تظهر فضل الخطيب ومكانته ، فهي ليست جليلة بكثرتها وتفصيلها ، بل بتحقيقها وضبطها وحسن استنباطها ؛ فيها تظهر قريحة الخطيب نقية وضاءة ، وتبدو جودة تفكيره ، ويعلو كعبه في حسن التصنيف وسهولة المأخذ .

طريقته فيها

والذي ظهر لنا بقراءة تقييد العلم والكفاية وأخلاق الراوي وشرف أصحاب الحديث والفقيه والمتفقه والإجازة للمجهول أن الطريقة التي يتبعها في هذه التصانيف استنطاق النصوص ، وإيضاح ما ورد فيها ، وتسوية الخلاف الواقع بينها . وذلك بأن يبوبها تبويباً هو من خير ما وجدناه ، فيما بلغنا من كتب العرب ، ينبئ عن تعمق وحسن فهم للأشياء ثم يورد النصوص بعضها تلو بعض ، تنطق بما وصل إليه المؤلف بعد الجهد والتفكير والعلم الوثيق ، يتخلل كل ذلك بعض جمل منه ، تجلب الفكر إلى ما قد لا يدركه القارئ من النصوص نفسها ؛ على أن المؤلف لا يحب الظهور كثيراً ، وكأنه يريد أن يتمّ الاستنتاج والاستنباط من النصوص نفسها ؛ وكأنه يقول : إنها هي التي تعطيه الفكر ، وتقدم له النتائج . وإذا وجد اختلافاً بينها لم يحاول تضعيف بعضها وتوثيق الآخر إلا قليلاً ، بل يبذل كل ما في وسعه لتعليل الاختلاف وإظهار صحة الرأي في كل منها ، لعلة أوجبت الاختلاف ، ومنعت الاتفاق . وهو يبدأ كتابه بذكر الغاية من تأليفه ، ويلخص موضوعه بلغة بليغة بحسن معانيها ، فصيحة بظرافة تركيبها ، وحسن اختيار ألفاظها . وإذا انتقل من فصل إلى فصل أو من باب إلى باب ، أفهم القارئ الشوط الذي

قطعه ، والمكان الذي وصل إليه ، والطريق الذي سوف يسلكه ، غير أنه مقل في ذلك إقلاله في التحليل والتعليل عند تعارض النصوص أو إيضاح الملتبس .

أما كتبه في أسماء الرجال وإيضاح ملتبسها فهي تدل على سعة الاطلاع ، وكثرة التقييد للشوارد ، وتنبئ عن إرادة في تبسيط حمل العلم ، ورفع الدس فيه . وهي في جلها مرتبة على الحروف ، لا يظهر المؤلف إلا في مقدمة الكتاب ، أو حين اعتراضه على الخطإ والأوهام .

هذا وصف سريع مقتضب ، توصلنا إليه شعوراً لا تتبعاً وتحقيقاً . وعسى أن تؤيده الدراسات المقارنة التحليلية .

المحدثون عيال على الخطيب

على أننا ، إن لم نوفق إلى استقصاء طريقته ، أو أخطأنا تفصيل بعض أجزائها ، فإن لنا من أقوال المحدثين تصديقاً لمجمل مضمونها : وهو أن الخطيب حرر أصول علم الحديث بأجزائها وتفاصيلها ، وأظهر ملتبس الأسماء ، فلم يترك لغيره إلا سبيل تلخيص ما قال أو نقل ما أورد . وهذا ابن الصلاح يؤلف مقدمته ، وهي أجمع مختصر في أصول الحديث ، فيكتفي بتلخيص أقوال الخطيب ، أو عرض النتائج التي أفضى إليها خلال كتبه العديدة المفصلة . ويؤيد الحافظ أبو

بكر بن نقطة ( — ٦٢٩ ) رأينا حيث يقول : « كل من أنصف علم أن المحدثين عيال على كتب الخطيب »[١] . وقال في محل آخر : « لا شبهة عند كل لبيب أن المتأخرين من أصحاب الحديث عيال على أبي بكر الخطيب »[٢] .

توفقه بمجموع ما صنف

وبعدُ فقد وفق الله الخطيب بتصانيفه خير توفيق ، فلم يكتب للهو أو عبث ، بل أحسّ بالنقص فسدّ فراغه ، وعرف أحسن الموضوعات فطرقها ، ومما ساعده على ذلك ثقافة عامة وثيقة ، واطلاع واسع ، ودرس لاختلاف الفقهاء ، واستنباطهم للمسائل ، وجمع بين التاريخ بإيضاحه للنصوص وتعليلها وبين الحديث وتتبعاته وحسن ضبطه . أضف إلى كل ذلك حبّ أبي بكر للعلم ، وجده المتواصل ، ونياته الحسنة ؛ والله الموفق للصواب .

---

(١) في نخبة الفكر لابن حجر ، طبعة كالكوتا ص ١ وتدريب الراوي للسيوطي ص ٩ والرسالة المستطرفة ص ١٠٧

(٢) الاستدراك له ، ظاهرية حديث ٤٢٣ ، ٤/٢ — ١٥

# تاريخ بغداد

حريٌ بنا ، وقد فرغنا من ذكر أهداف الخطيب في تصانيفه إجمالاً ، أن نتعرّض ببعض التفصيل إلى وصف تاريخ بغداد ، أعظم مؤلفاته ، وأكثرها شهرةً ، وأبعدها أثراً[1] .

## باكورة آثاره الكبرى تاريخ بغداد

أرى استئناساً أن التأليف في تاريخ بغداد هو مبتدأ عمله . وتأييد ذلك نجده في فراغه من تاريخ بغداد سنة ٤٤٤[2] ، وعمره اثنتان وخمسون سنة . وانظر الآن كم يتطلب هذا الكتاب العظيم من وقت ، أفكان يكفيه أقلّ من ثلاثين سنة ، أو كان في وسع الخطيب أن ينقطع إلى تآليف أخرى معه تعادله خطورةً ؟ ألا إن كتاباً كتاريخ بغداد يتطلب عمراً ؛ والخطيب موفقٌ ومجدّ في جمعه بأقلّ من ثلاثين سنة .

---

(١) يعود الفضل في تنبيهي إلى إفراد باب مفصل خاص عن تاريخ بغداد الى العلامة الأستاذ أحمد أمين بك . وكنت أدرجت خلال البحث عن آثار الخطيب بحثاً مجملاً عن التاريخ ، فتفضل الأستاذ الكريم بلفت نظري الى أن كتابي يعدُّ ناقصاً إذا لم أتعرض فيه بشيء من التفصيل إلى تاريخ بغداد . فللأستاذ العلامة شكري الجزيل على هذه الملاحظة التي أفدت منها فائدة جلى . ولطالما أفاد العلم وهدى إلى طريقه .

(٢) انظر ص ٢٦ — ٢٧ أعلاه .

وعلى ذلك فأكثر الظن في أن أبا بكر شعر حين طلبه للحديث بفراغ في كتب تراجم الرجال ، وهو خلوُّها من تاريخ لبغداد ، مع أنها محط الرحال ، ومجمع الرجال . وقلما نبه عالم إلا فكر في الرحلة إليها والأخذ عن مشايخها . زدْ إلى ذلك أنها مركز الخلافة ، ومقر السلطنة ، ومثابة الحضارة ، ومجمع العلماء ، ومرجع المسلمين . وقد أدرك أن كثيرين غيره فكروا بما فكر به ، فلم يوفقوا إلى جمع ذلك التاريخ ، لما يقتضي من علم وسعي وانقطاع[1] . ولكنه عاد فحبب إليه تصنيف ذلك التاريخ حبه الشديد لبغداد ، ورغبته في خدمة شهرتها ، وتحقيق علوّ كعبها . وأسعفه في ذلك جمع طويل على خير رجال العصر ، وقراءة لكتب لم تكد تجتمع لغيره بالسماع ، وهمة سامية لا تعرف الراحة ولا تشعر بالنصب ؛ فانقطع إلى ذلك انقطاعاً شاهدنا في درس حياته أثره ، فقد ألفينا أخباره تنقطع معه . وإذا به يبقى سنين دائباً على التدوين والتصنيف ، آخذاً في تحرير ما دوّن وصنّف . وإذا بتاريخ بغداد يخرج من ذلك في حلة قشيبة ، واضح المرمى ، ظاهر الفصول ، مستقيم النهج .

---

(١) كتب قبله في تاريخ بغداد أحمد بن أبي طاهر وابن أسفنديار : الاعلان بالتوبيخ ص ١٢٣

## وصفه لمدينة المنصور وتاريخه للمدائن

يبتدئ تاريخ بغداد بوصف المدينة ، فتظهر لنا عظمتها ، ويرتضي المؤلف برواية أخبار غالت في تعداد مساجدها وحماماتها وسككها ومساحتها القديمة ، فهو مقتنع لمحبته لها أنها خير البلدان ، فلا يستبعد غرائب ما يروى عن سالف مجدها ، وإن كان لا يعتقد صحة كل ما رواه[1] ، حتى إنه لا يستوحش من إدخال بلدة المدائن فيها ، فيتبع وصف بغداد بتراجم الصحابة الذين دخلوا المدائن ، ويدرج خلال تراجم البغداديين التابعين والخالفين ممن أمها تراجم أهل المدائن ؛ على أنه لا يخالف بذلك الغاية التي اختطها لنفسه ، والتي تلقفها من طرائق غيره ممن كتب في تاريخ البلدان قبله كالقشيري في تاريخ الرقة ، وابن الحبال في تاريخ مصر ، والحاكم في تاريخ نيسابور . فهم جميعاً ، وهو من بعدهم ، يذكرون في تاريخ البلدة من دخلها من الرجال إلى جانب أهلها . ولما كان لا يعقل أن يقيم بالمدائن إنسان دون أن يختلف إلى بغداد ، لأنها قريبة منها متصلة بها ، أجاز العلم للخطيب إدخال المدائن بتاريخ بغداد . قال في تاريخه[2] :

---

(١) انظر ما يقوله في ذلك أمير البيان الأستاذ شكيب أرسلان في مجلة « الثقافة » التي صدرت في دمشق الجزء الأول السنة الأولى ص ٤ — ١٤

(٢) تاريخ بغداد ١ : ١٢٧

« إنا أوردنا ذكر المدائن في كتابنا لقربها من مدينتنا ، وذلك أن المسافة إليها بعض يوم ، فكانت في القرب منها كالمتصلة بنا .
وسنورد في هذا الكتاب أسماء من كان من أهل العلم بالنواحي القريبة من بغداد كالنهروان وعكبرا والأنبار وسرّ من رأى وما أشبه ذلك عند وصولنا إلى ذكرها إنشاء الله ، فأما تقديمنا ذكر المدائن ، فإنما فعلنا ذلك تبركاً بأسماء الصحابة الذين وردوها والسادة الأفاضل الذين نزلوها . وقد قبر بالمدائن غير واحد من الصحابة والتابعين رحمة الله عليهم . »

ترتيب التراجم

وأسلوبه في ترتيب التراجم بعيد عن إظهار شيء من نفسيته . وما قصد به إلا تسهيل إخراج الترجمة ، فتابع من سبقه من أصحاب هذا الفن في ترتيب أسماء المترجمين على الحروف . غير أنه لم يقنع بذلك ، بل ابتدع أسلوباً أكمل به هذا النهج ، دعاه إليه كثرة التراجم وتشابه الأسماء ؛ وذلك أنه عرف أن الباحث عن ترجمة لا يحفظ عن هوية صاحبها إلا اسمه واسم أبيه[1] ، وأنه لو تعمد حفظ

---

(١) بل لعله لا يعرف اسم الأب أو لا يذكره بالضبط فيقتصر المؤلف على اسم المترجَم فقط ، ويرتب من حملوا الاسم على طبقاتهم وموتهم كما فعل بمن سموا باسماعيل : تاريخ بغداد ٦ : ٢١٢

اسم جده لوجد الاضطراب بوقفه تارةً وعدم توسع العلماء في ذكر الأجداد بمنعه تارةً أخرى ، اللهم إلا فيمن تسموا بمحمد أو أحمد وهم كثيرون ، فلزم ضبط أسماء أجدادهم ، كيلا يحول تشابه الأسماء دون معرفة الشخص : عرف ذلك الخطيب ، فابتدع أسلوباً جديداً ، فرتب التراجم التي تشابهت فيها أسماء الأشخاص وآباؤهم حسب تواريخ وفياتهم ، فسهل البحث على الراغب وحدد بذلك بالتقريب عصر بعض المترجمين ممن لم يستطع ضبط وفياتهم ، فصرت تجد تراجمهم بين ترجمتين عرفتَ تاريخهما ، فكانت بينهما ، فعرفتها بالتقريب . وهو النهج الذي اتبعه الأستاذ خير الدين الزركلي في كتابه « الأعلام » . وهو نهج ينصح أصحاب التراجم في اتباعه .

مادة الكتاب إجمالاً

والكتاب مستقيم النهج أيضاً فيما سوى ذلك ، ونسق المؤلف فيه واضح سليم ، لا يخرج عليه ولا يزلق إلى سواه ، ولو أنه لا ينبهنا إليه إلا بكلمات قليلة ، لا توفي الأمر حقه . قال في مقدمته :

« وهذه تسمية الخلفاء والأشراف والكبراء والقضاة والفقهاء والمحدثين والقراء والزهاد والعلماء والمتأدبين والشعراء من أهل مدينة السلام الذين ولدوا بها أو بسواها من البلدان ونزلوها ، وذكر من انتقل منهم عنها ، ومات ببلدة غيرها ، ومن كان بالنواحي القريبة

منها ، ومن قدمها من غير أهلها ، وما انتهى إليّ من معرفة كناهم وأنسابهم ، ومشهور مآثرهم وأحسابهم ، ومستحسن أخبارهم ، ومبلغ أعمارهم ، وتاريخ وفاتهم ، وبيان حالاتهم ، وما حفظ فيهم من الألفاظ عن أسلاف أئمتنا الحفاظ من ثناء ومدح »[١] .

هذا الوصف مقتضب يحتاج إلى التفصيل والتدقيق . وهذا ما سنعمد إليه معتذرين إلى القارئ عن اضطرارنا إلى إغفال التوسع وكثرة السرد والشواهد ، نفادياً من إحداث الملل وإيراد ما يثقل البحث إيرادُه . ووصفنا الآتي هو للنسخة المطبوعة ، على نقص فيها عن الأصل ، لا ندري مقداره على الضبط[٢] .

## عدد التراجم ومتوسط سعتها

صفة الكتاب الأولى كثرة التراجم الواردة فيه ، فقد ترجم فيه لنحو ( ٧٨٣٠ ) عالماً . كل ذلك في أربعة عشر مجلداً تقع في نحو ( ٦٠٠٠ ) صفحة ، مما يشير إلى أن متوسط التراجم لا يبلغ ثلثي الصفحة . وهو أمر يدعو إلى الأسف ، فالتاريخ يصبح بذلك

---

(١) تاريخ بغداد ١ : ٢١٢ — ٢١٣

(٢) ذكر بروكلمن في ذيله ١ : ٥٦٣ نقلاً عن ريتر ( Isl. XX, 85 ) إن النقص في تراجم المحمدين في النسخة المطبوعة يبلغ ( ٣٠٠ ) ترجمة . وقد لاحظنا حين البحث عن مصادر تراجم مشايخ الخطيب البغداديين أن عدة منهم لم يترجموا فيه .

شذرات لا تغني ، وتعداداً يقصد منه كثرة المترجمين ، لا استيفاء أخبارهم ، لا سيما وأسانيد المؤلف في رواية أخبار المترجمين تستغرق من التراجم ما يقرب من ثلثها .

على أن هذا الأسف يقصر حبله إذا عرفنا أن المصنف لم يلتزم الاختصار في كتابه التزاماً دائماً ، فقد عددنا له (٣٧٩) ترجمة (سوى تراجم الصحابة) تتعدى كل واحدة منها صفحتين على الأقل ، وعددنا ما استوعبته من الكتاب ، فبلغ نحو أربعة مجلدات ، وحساب متوسط الواحدة منها نحو أكثر من خمس صفحات .

### نسبة الاختصاص في التراجم

وعندنا أن التاريخ الحق هو في هذه التراجم التي عددناها . أما سواها فحصر وتعداد ، وحكم سريع ووصف مقتضب ، وإن لم تخلُ من الفائدة بل ولو شُحنت بالفوائد .

أجرينا حساباً حصرياً تناسبياً على هذه التراجم لنتبين منها جهة الاستقصاء في الكتاب ونوع الأخبار والتراجم الواردة فيه . فشرعنا نوزع هذه التراجم على نوع الفن الذي اشتهر به أصحابها ، حتى بلغنا بجهد عظيم أوائل الجزء السابع من الكتاب ، فوجدنا النسبة لا تتغير كثيراً خلال الأجزاء ، فوقفنا عند آخر الجزء السادس . وهاك ما انتهى إليه إحصاؤنا وتوزيعنا لما يقرب من خمسة أجزاء ونصف :

| صفة المترجمين | عدد تراجمهم | عدد الصفحات المخصصة لهم |
|---|---|---|
| المحدثون | ٥٦ | ٢٩٧ |
| القضاة | ١٠ | ٧٥ |
| الخلفاء وأرباب الحكم | ١٢ | ٦١ |
| الإخباريون | ٤ | ٥٣ |
| الزهاد والمتصوفون | ١١ | ٤٧ |
| الفقهاء | ٥ | ٣٤ |
| الأدباء | ٧ | ٢٩ |
| الكتاب | ٣ | ١٩ |
| القراء | ٣ | ١٣ |
| المتكلمون | ٢ | ٨ |
| الندماء والمغنون | ٢ | ٨ |
| الشعراء | ٢ | ٧ |
| المفسرون | ١ | ٦ |
| | ١١٨ | ٦٥٧ |

ويرى من هذا الإحصاء أن الخطيب خصّ المحدثين بقريب من نصف ما خصّ به كبار المترجمين ، وخصّ علماء الدين الآخرين بأكثر من ربعه . أما الربع الأخير فهو يكاد يقسم إلى ثلاثة أقسام

متساوية يتوزعها أهل الأدب والإخباريون وأرباب الحكم .

وفي هذا الإحصاء رمز صريح إلى مادة الكتاب وموضوعه ، يجيز لنا أن ندعي أن تاريخ بغداد هو قبل كل شيء تاريخ محدثيها . وأنه بالجملة تاريخ علماء الدين فيها . أما سواهم فلهم فيه مكان لا يعادل أهميتهم وأثرهم .

إحصاء الكتب المقروءة في التاريخ

وهذه النتيجة ليست بعيدة عما يؤخذ من توزيع مواد كتب التاريخ التي ورد بها الخطيب دمشق ، وتلقاها بالسماع من مشايخه ، وهاك مجمل توزيعها :

| عدد الكتب | نوع المادة |
|---|---|
| ٧١ | تاريخ رجال الحديث ونقدهم : ٤١ للرجال ، ٦ للشيوخ ، ٦ للضعفاء ، ١٠ لأسماء الرواة ، ٨ للبلدان |
| ٨ | تاريخ رجال الدين الآخرين : ٢ للقضاة ، ٦ للمتصوفة |
| ١١ | تاريخ أهل الأدب : ١٠ للشعراء ، ١ للأدباء |
| ٢٢ | تاريخ أرباب الحكم |
| ٣٦ | التواريخ الأخرى : تاريخ قبل الإسلام (٧) والرسالة (١٢) والصحابة (٧) والأنساب (٦) والملاحم والفتن (٤) |
| ١٤٨ | |

ويظهر فيها بوضوح أن عدد كتب تاريخ الحديث التي تلقاها يقارب النصف ، وأنه لم يسمع من تاريخ أرباب الحكم والأدب إلا أقل من ثلث ما رواه من الكتب .

أصل التاريخ للمحدثين

وبعدُ فالخطيب قصد عمداً أن يجعل تاريخه مورداً لأهل الحديث يجدون فيه أخبار أصحابهم ، فجمع من الكتب ما يسعفه بذلك ، وخصص أكبر قسم من كتابه للمحدثين ولعلماء الدين ، وعلماء الدين لا بد أن يعنوا بالحديث . وهو في هذا لا يبدع الجديد أو يخالف القديم . فالمحدثون قبله قصدوا ما قصده في تواريخهم للبلدان . وهو قد روى من مصنفاتهم في ذلك سبعة تواريخ ، وجدنا تعدادها في تسمية الكتب التي ورد بها دمشق[1] . وما كثرة التراجم المقتضبة التي أوردها وأخرجناها من مفهوم التاريخ الحق إلا فرع من نظرة المحدثين للتاريخ .

فمعرفة أخبار المحدثين ولو بالشيء القليل ، أمر لا بد منه لطالب الحديث حتى يتبين حال من يروي عنهم ، وينقل الأحاديث بأسناد

---

(١) هي تاريخ أصفهان ( رقم ٣٤٣ ) وتاريخ الجزريين ( رقم ٣٤٥ ) وتاريخ الحمصيين ( رقم ٣٤٦ ) وتاريخ الرقة ( رقم ٣٥٢ ) وتاريخ المواصلة ( ٣٥٩ ) وتاريخ هراة ( ٣٦١ ) وطبقات أهل همذان ( ٤٠١ )

تدرج فيها أسماؤهم . وأول من يجب أن يروي عنهم أهل بلده أو من أمّوه . وقد روى الخطيب في أول تاريخه(١) ما يؤيد ذلك عن أبي الفضل صالح بن أحمد بن محمد التميمي الحافظ حيث قال : « ينبغي لطالب الحديث ومن عني به أن يبدأ بكتب حديث بلده ومعرفة أهله وتفهمه وضبطه ، حتى يعلم صحيحه وسقيمه ، ويعرف أهل التحديث وأحوالهم معرفةً تامةً ، إذا كان في بلده علم وعلماء قديماً وحديثاً ، ثم يشتغل بعد بحديث البلدان والرحلة فيه » .

والخطيب ينبهنا إلى أنه قصد بتاريخه أن يورد بالاستقصاء محدثي بلدهم ، فهو يعتذر(٢) عن عدم ذكر من لم يصحّ عنده روايته في بغداد ، وقد وردوها ولم يستوطنوها ، فيقول :

« ولم أذكر من محدثي الغرباء الذين قدموا مدينة السلام ولم يستوطنوها سوى من صحّ عندي أنه روى العلم بها ، فأما من وردها ولم يحدث بها ، فإني اطرحتُ ذكره ، وأهملتُ أمره ، لكثرة أسمائهم وتعذر إحصائهم غير نفر يسير عددهم ، عظيم عند أهل العلم محلهم ، ثبت عندي ورودهم مدينتنا ، ولم أتحقق تحديثهم بها .

---

(١) تاريخ بغداد ١ : ٢١٤

(٢) تاريخ بغداد ١ : ٢١٣

إجادته لفهم تاريخ المحدثين

ولا ريب أن الخطيب أجاد فهم تاريخ المحدثين كلَّ الإجادة ، بل وصل في ذلك إلى الذروة . وحقٌّ أنه لم يأت بجديد في فهمه له ، وأنه اتبع فيه أسلوب السابقين . لكنه أتقن الفهم وأحسن التطبيق ، فأتى بما أصبح قدوةً للخالفين .

استيفاؤه لتراجم محدثي بغداد

وتاريخ بغداد مستوفٍ لتراجم المحدّثين البغداديين أو الذين أمُّوا بغداد استقصاءً تاماً في كثرة عددهم أولاً ، وفي سعة تراجمهم ثانياً .

يبلغ عدد المحدّثين الذين ترجم لهم حوالى خمسة آلاف شخص ، ومعظم التراجم الصغيرة التي لم نعرها التفاتةً في حصرنا السابق هي لرجال الحديث . ولنوزّع الآن هذا العدد الضخم على عشرة أجيال من الرجال توالت في مدينة بغداد منذ تأسيسها حتى عصر المؤلف ، أي في زمن يبلغ ثلاثمائة عام ، نجد أن لكل جيل خمسمائة محدّث وردت تراجمهم في الكتاب . وبعدُ فمهما كان اتساع العلم وحلقاته عظيماً ، فلا يزيدُ عدد أصحاب النباهة والأثر من المحدّثين في بلدة ما على خمسمائة نفر ، يعيشون في جيل واحد . فالخطيب مستقصٍ إذن لتراجم المحدّثين . وإذا حدث ولم نعثر في تاريخه المطبوع على ترجمة

محدّث نبيه من البغداديين ، فذلك يعني أن الترجمة سقطت من النسخة المطبوعة لأنها فاتت المؤلف .

### استيفاؤه لأخبار المحدثين

والمؤلف مستوفٍ أيضاً لأهم أخبار المحدثين ، أدرك شأن كل واحدٍ منهم ، فخصه بما يستحقه ، وأورد فيه أحسن أخباره وأصدقها تعريفاً به . وما تركه منها مما يعرفه أكثر مما أورده ، على أن ما أورده منها كافٍ وافٍ .

وشأنه في كل ذلك الاطلاع الواسع وحسن الانتقاء ، وهما صفتان ملازمتان للمؤرّخ المجوّد .

### حسن ترتيبه واتساقه

وقد أضاف إليهما الخطيب مزيةً ثالثةً لها شأن كبير ، وهي حسن العرض والترتيب ، ولعل اتصافه بهذه المزية أسعفه كثيراً بالصفتين الأوليين . فالترجمة عنده تتألف من أقسام لا بد منها ، إذا قصدت استيفاء حال المترجم ، وهذه الأقسام مرتبة ترتيباً متسقاً ، لا يغيره المؤلف ، ولا يرضى عنه بديلاً .

### أقسام الترجمة

يبتدئ باسم المحدث بالتفصيل ، ثم يصفه بعبارة من عنده أحكم

تركيبها ، فصوّرت لنا غاية أمر المحدث في معرفته واتساع أفق علمه ومكانته . ثم ينتقل إلى رحلته في طلب الحديث وذكر كبار المشايخ الذين أخذ عنهم ، وكبار من نقلوا عنه . وبذلك يكون قد أجمل حال المترجم إجمالاً عاماً . ومن ثم يعرض لنسبه وبلده ونشأته وهيأته ، ويصفه في علمه بأخبار ينقلها عن معاصريه . ثم يورد من حوادث حياته أخباراً تكثر وتقلُّ تبعاً لمكانته وعظم شأنه . وبها تتضح صورته وحياته وصفاته ، حتى إذا انتهى من ذلك عرض لنا أقوال الناقدين أو المقرظين له ، وكأن ذلك خلاصة نتصور بها أمر الرجل ، وهي صورة يجب أن تستقرّ في ذهننا عنه . ولا يعبأ المؤلف فيها بما يثيره التكرار أو التطويل أو التعداد ، لأنها بيت القصيد في الترجمة ، حتى إذا فرغ منها أشرفت مهمته في الترجمة على الانتهاء ، ولم يعدْ عليه إلا أن يسدل الستار عليها بذكر وفاة المترجم وتحديد زمنها وكيفية حدوثها ومكان وقوعها ، وقد يقودنا إلى مكان دفن المترجم لنودّعه وداعاً أخيراً . وقد يذكر لنا ما رؤي عنه من منامات تعطينا فكرة المعاصرين وما يتخيلونه عنه .

فأقسام الترجمة بالترتيب هي :

١ — إجمال أمر المترجم

٢ — حياته ووصفه

٣ — أقوال الناقدين فيه

٤ — وفاته

وليس حتماً عليه أن يدرج هذه الأقسام الأربعة دون أن يغفل أحدها ، ولكن ما لا بد منه له هو أن لا يخالف ترتيبها وتتابعها ، فإذا أهمل أحدها فلأنه لم يجد مهماً يقوله فيه ، دون أن يخرج الكتاب عن حدّ التوسع الذي رسمه له .

الأحاديث الواردة في التراجم

ولما كان الكتاب تاريخاً للمحدثين كان للحديث فيه مكانه . ولكن الخطيب لم يشأ أن يباهي بكثرة روايته له فيه بإيراده أحاديث متصلة السند بالمترجم في كل تراجم الكتاب ، إنما يروي الحديث بعد إجمال أمر المترجم ، إذا كان له صفة خاصة ، تجعل إيراده موضحاً لحال المترجم ، إما في الدلالة على طبقته أو اسمه أو سنده أو قوته في أحاديثه أو غير ذلك .

دقة الأسلوب

ويتضح مما تقدم أن للكتاب أسلوباً تاريخياً صحيحاً لا غبار عليه ، يدل على حال المترجمين دلالة كافية ، حين يستوفي المؤلف أجزاءه ، وهو يستوفيها فيمن يرى فيه وجوب الاستيفاء . ومما

يزيدنا إعجاباً بهذا الأسلوب أنه دقيق غاية الدقة ، بعيد عما نشكو منه في كتب الأدب والتاريخ العربية : من أن صورتين من الخبر الواحد متقاربتين قد تردان مفصولتين بصور أخرى ، تنهك القارئ والباحث وتشتت أفكارهما . فالخطيب لا يفعل ذلك ، بل يدرج الأخبار المتقاربة بمكان واحد تتتابع فيه ، فلا ينفصل بعضها عن بعض ، ولو اضطره ذلك إلى اقتطاعها من النص الأصلي الكامل التي تكوّن قطعةً متماسكةً به . ولا جرم أن ذلك يقتضي من المؤلف جهداً عظيماً ومعرفةً كبيرةً ، يتوقف عليهما عدم تشويه النص أو إيراده ناقصاً غير واضح حين اقتطاعه من أصله .

فن الترجمة عند الخطيب

وقد يخيل للمرء الذي لا يسبر غور الترجمة أن الخطيب لا يتكلف أكثر من أن يتخذ مقصاً يقصُّ به كل خبرٍ يعجبه ، فيلحقه بها . ولعمري لئن كان عمل المؤرخ ذلك فأسهِل به من عمل . وهو ولا شك كان عمل المؤرخين المسلمين المتأخرين ، حتى شحنت تواريخهم بالمتناقضات ، بل بالتوافه من الأخبار .

أما الخطيب فأمره غير ذلك : كان عمله شاقاً محكماً يباشره بتبصر وتفكير ، فالترجمة عنده فنٌّ دقيق متعب ، يقتضي الذوق والعلم والفهم ، لا سيما وهو يتعمد أن تخرج واضحةً جليةً ولو أنه يقتصر

على نقل أقوال غيره دون شرحها أو تغييرها أو الزيادة عليها ، ولو أنه يتقيد برواية السند الذي رَوَى به أخبارها ، يكرره كل ماروى قطعةً منه مهما صغرت . وبالرغم من أنه اقتصر عمداً على نقل أقوال غيره ، فنفسه تشع خلالها بما يرتضي من نقلها ، وعقله يبرز فيها بما يعتمده من إيرادها للكشف عن حال المترجم ، وذوقه يحل فيها محلاً عظيماً بحسن تنسيقها ، ومجموعة فنه تبدو فيها بالصورة التي تعطيها مجموعة الترجمة للقارئ المفكر الذي يجهد نفسه في النظر فيها إجهاد المؤلف في وضعها .

أمثلة على إتقانه للتراجم

لقد أتقن الخطيب تاريخه ، فأخرج لكبار المحدثين صورةً متسقةً واضحةً ، قوية البناء ، متراصة الأجزاء ، متصلة الحلقات تامةً . اقرأ ترجمته للبخاري[1] والواقدي[2] وأحمد بن حنبل[3] وأبي بكر الآجري[4] وإسماعيل بن عُلَيّة[5] وأبي زرعة الرازي[6] وعلي بن عاصم

---

(١) تاريخ بغداد ٢ : ٤ — ٣٤

(٢) التاريخ ٣ : ٣ — ٢١

(٣) التاريخ ٤ : ٤١٢ — ٤٢٣

(٤) التاريخ ٥ : ٢٢٠ — ٢٤١

(٥) التاريخ ٦ : ٢٢٩ — ٢٤٠

(٦) التاريخ ١٠ : ٣٢٦ — ٣٣٧

الصديق [١] وعلي بن عبد الله المديني [٢] والفضل بن دكين [٣] والقاسم بن سلام [٤] ووكيع بن الجراح [٥] تجد مصداق ما أقول . بل اقرأ غيرها دون أن تنفك عن التمعن ، تر أن التاريخ عنـد المحدثين وصل مع الخطيب إلى درجة الفن المتقن والعلم المتين [٦] .

رأي مؤرخي الإسلام بدقة مادة الكتاب

وقد أدرك المحدثون والمؤرخون المتقدمون هذه الحقيقة ، فطفقوا يناقشون الخطيب الحساب عن كل خبر ينقله ، مما لا يستحسنونه أو لا يوافق نزعاتهم ، بل يكيلون له كيلاً جزافاً لخبر يغفله ، مما يرون أنه يزيد في تصويز حال المترجم ؛ ثم يتناولونه بألسنتهم لأنه يستعمل لفظةً دون لفظة أخرى . يفعلون كل ذلك اعتقاداً منهم أن الخطيب مسؤول عن كل ما أورده ، ومتعمد ذكر كل ما دوّنه ، فكأنه مصوّر يُنتقد بكل جزء من أجزاء صورته ، ولا يعذر لأن

---

(١) التاريخ ١١ : ٤٤٦ — ٤٥٨

(٢) التاريخ ١١ : ٤٥٨ — ٤٧٣

(٣) التاريخ ١٢ : ٣٤٦ — ٣٥٧

(٤) التاريخ ١٢ : ٤٠٣ — ٤١٦

(٥) التاريخ ١٣ : ٤٩٦ — ٥١٢

(٦) ولا تستهجن توسع الخطيب في بعض التراجم حين تجريح المترجم أو تعديله وقصوره فيما سوى ذلك حيناً ، فغاية الكتاب الأساسية هي شرح حال المحدثين في صدقهم أو كذبهم .

ريشته اضطربت في بقعـة صغيرة منها ، فظهر أثر اضطرابها فيها .
وسنرى انتقاد هؤلاء المنتقدين حين البحث عن وصف الخطيب في
علمه . وواجب أن نقول منـذ الآن أن شأنهم في ذلك ، على كل
حال ، يدل على أن تاريخ بغداد بلغ من الإتقان بحيث كانت ألفاظه
محطاً للطعن والتتبع ، وقد سلم ما هو أعظم منها من النقد فيه .

### المقياس الأوّلي للتراجم عامة

هـذا وصف تاريخ بغداد في تراجم المحدثين ؛ وتراجم المحدثين
أقوى شيء في الكتاب ؛ حتى إذا انتقلنا إلى وصفه في غير هذه
التراجم ، لاحظنا بادئ ذي بدء أن حسن الترجمة وغزارة مادتها
وسلامة أسلوبها تشتد تبعاً لعلاقة المترجم بعلم الحديث ؛ يستوي في
تلك العلاقة حبُّ المترجم للحديث أو بغضه له . وهذا مقياس أوّلي
صادق ، يستطيع طالب الاستفادة من تاريخ بغداد أن يتخذه دليلاً
له في الرجوع إليه ، يستدل بـه بالتقريب على درجة اعتناء الخطيب
بترجمة علم يود أن يعرفه منه .

### علماء الدين

وبما أن علماء الدين من غير المحدثين يتخذون الحديث أصلاً
ينتفعون به ، ويقبلون عليه ، فقـد أفرد الخطيب لهم مكاناً واسعاً

رحباً في تاريخه ، شغل معظمه في أخبار تعلقهم بالحديث ومعرفتهم له وتعديلهم أو جرحهم به .

خصوم أهل الحديث

وأثر تقيده بتاريخ الحديث يظهر أيضاً في كثرة نقله لأخبار خصومه[١] ، أي المعتزلة وأهل الرأي ، إما تبكيتاً لهم[٢] أو إظهاراً لشأنهم حتى يُعرفوا فلا يروى[٣] عنهم . وهو متشدد عليهم ، جامع لمساوئهم ، ولو أنه لا يقتصر على رواية أخبار السوء فيهم ، بل يجزل لهم المديح في بعض ما أحسنوا فيه[٤] .

الزهاد والمتعبدون

وأياً كان من حرص المؤلف على التقيد بما يتعلق بالحديث ، فهو يميل إلى طرائف الأخبار وجميلها ، مما تستفاد منه الحكمة أو الموعظة فيسرد ذلك ، ولا يعبأ بالتوسع فيه . وعلينا ألاَّ نعجب إذن حين نجده يتوسع في تراجم المتصوفة والعباد والزهاد[٥] ، فهو يرى في خلال

---

(١) انظر الفصلين المخصصين بوصف الخطيب في علمه وبوصفه في مذهبه

(٢) كما فعل في ترجمة أبي حنيفة ١٣ : ٣٢٣ — ٤٥٤

(٣) انظر ترجمته لبشر المريسي ٧ : ٥٦ — ٦٧

(٤) انظر ترجمته لعمرو بن عبيد المعتزلي ١٢ : ١٦٦ — ١٨٨

(٥) انظر ترجمته لبشر الحافي ٧ : ٦٧ — ٨٠ ولأبي إسحاق الخواص ٦ : ٧ — ١٠ ولابن عطاء ٥ : ٢٦ — ٣٠

ذلك حكماً ومواعظ تترى ؛ وهو يعتقد أن أخبارهم تدفع إلى التقى والورع والتعفف . وقد يورد من ذلك ما يأباه العقل ولا يتصوره الحس المجرد .

### أرباب الحكم

وإذا خرجنا عن نطاق ما له علاقة وشيجة بالحديث ، رأينا المؤلف يقتصر على ما لا بدَّ له من إيراد ترجمتهم من أصحاب مكانة لا يغتفر له بوجه من الوجوه إهمالهم : كالخلفاء يورد تراجمهم جميعاً ببعض التوسع ، وككبار رجال الحكم لا يترجم إلا لمن عظمت شهرته ، وكبر أثره منهم ؛ وهو في تراجمهم محسن منصف ، لا يتقرَّب بالمديح ، ولا يخشى الحق .

### الأدباء والشعراء

وللأدباء والشعراء في تاريخه أخبار حسنة وأشعار طريفة . وهو يدري أن الكتاب يَظرُف بأحاديثهم ، ويستلطف بحكاياتهم ، فيوردها ولو أنها لا تزيد في وضوح صورتهم وترجمتهم ؛ وشأنه في انتقاء أخبارهم الإتيان بما يندُر ويستحسن[1] . وإذا وجد في أخبارهم سبيلاً إلى الحكمة أو الموعظة سلكه وأكثر منه[2] .

---

(١) انظر ترجمته للأصمعي ١٠ : ٤١٠ — ٤٢٠

(٢) كما فعل في ترجمته لأبي نواس ٧ : ٤٣٦ — ٤٤٩

لا فلاسفة وحكماء

ولا تتعب نفسك بالبحث فيه عن تراجم الفلاسفة وأصحاب علوم الأوائل ، فالمؤلف لم يعنَ بهم لا قليلاً ولا كثيراً . وكأنهم لا شأن لديهم في تاريخ بغداد . وليس ذلك غريباً من متدين متقيد بالدين .

أسلوب تراجم غير المحدثين

أما أسلوب الكتاب في عرضه لتراجم غير المحدثين ، فمستفاد من نهجه في المحدثين ، يتقيد به فلا يخرج عنه : يرتب الترجمة على الأقسام الأربعة التي رأيناها . وهو عرض لها غير وافٍ ، لأنه لا يحيط إلا بشأن يسيرٍ من أمر المترجمين ، ويدع غالب أمرهم دون ترتيبٍ ونهج سوي . وذلك أن الأقسام الأربعة وإن أصابت في الإحاطة بأجزاء ترجمة المحدثين ، فهي لا تلائم تراجم غيرهم . ولئن كان ضبط حال غير المحدثين في أسمائهم وأقوال الناقدين فيهم ووفاتهم أمر مفيد ، فما هو إلا قطعة صغيرة من حالهم . وقد اضطرّ الخطيب إلى أن يجمع ما سوى ذلك في قسم واحد من أقسامه الأربعة ، وهو حياتهم ووصفهم ، فأتى هذا القسم وافراً واسعاً ، ولم يستطع المؤلف له ضبطاً وحصراً ، فخرج مضطرباً . على أن من الحق القول بأن من

تخصصوا بالتراجم العامة أو الخاصة من المسلمين لم يبدعوا أسلوباً يفوق أسلوب الخطيب .

### سبب التقصير في تراجم غير المحدثين

هذا وصف تاريخ بغداد إجمالاً ، وهو يشير إلى إتقان الخطيب ومزيد عنايته بالحديث . أما في غير الحديث فالإتقان يصبح حيناً إحساناً ، وحيناً آخر تقصيراً . ويحق لنا أن نعجب من ذلك ، فقد عهدنا الخطيب أديباً مشاركاً في ثقافته ، أخذ حظاً وافراً من مجموعة العلوم ، فلا يتوقع منه التقصير . غير أن الذنب ليس ذنبه ، فما هو إلا متبع غير مبتدع . وغاية أمره إتقان الأسلوب الذي تلقنه . وقد تلقى التاريخ عن المحدثين ، فأحسن معرفة أخبارهم ، وأتقن أسلوب عرضهم ، ولم يتلقه كثيراً عن غيرهم ، فتعذر عليه الإكثار من غير تراجم المحدثين ، والإتقان في صياغة ذلك وعرضه .

### مقارنته بكتب التراجم الخاصة قبله

على أنه لم ينِ في هذا الأمر ، بل سعى سعيه . ومهما قيل عن قلة مواد تراجم غير المحدثين ، فهي مشحونة بالفوائد . أحسن المؤلف اختيارها ، وضمنها ، ما لم يتضمنه كتاب آخر ، فصارت مرجعاً للباحثين ، لا يغني عنه مغن . ومهما قيل في اضطراب أسلوبها ، فهو

أسلم من أكثر ما كتب في التراجم العامة . ومجمل القول في ذلك أن التقصير لا يبدو حين القياس بين ما أثبته هو وأدرجه من سبقه من أصحاب التراجم العامة . فإذا قسنا ما أورده في تراجم الشافعية مثلاً بما نقله أبو إسحاق الشيرازي في طبقاتهم [1] لم نشعر بالتقصير ، وكذلك الأمر في مقايسته بأخبار النحاة للسيرافي ، وبالحلية لأبي نعيم وبغيرها من الكتب التي ليس له أن يتوسع توسعها ، فهو إذن بالجملة مجيد بالنسبة إلى عصره ، متقن لما عرفه واقتفى أثره .

### مادة تاريخ بغداد الأولى متوفرة فيه

وبعدُ فمن حقنا أن نتساءل عما هو نصيب تاريخ بغداد من هذا الكتاب ، وهل يعدُّ ما كتبه الخطيب عنه وافياً ؟ يخيل إليَّ أن تاريخ العلوم الإسلامية في بغداد وأعلام هذا التاريخ متوفرة فيه بأصولها الأولى ، وأن من يريد أن يستخرج منه أحوالها ، يجدها فيه مستوفاة استيفاءً يمثلها تمثيلاً واضحاً ، بل يستطيع أن يستخرج منه ما يتصور به حال هذه العلوم بشكل عام .

### تاريخ بغداد نصر لأهل الحديث

وإذن فليس الاسم الذي أطلقه المؤلف على كتابه مبالغاً فيه ،

---

(١) طبع هذا الكتاب في بغداد سنة ١٣٥٦

فتاريخ بغداد بنصوصه الأَصلية متحقق فيه كل التحقق . ولكن المبالغة هي في جعل تاريخ المحدثين أصلاً يقدم التفصيل عنه والاستقصاء له على سواه من الفروع ، بحيث تصبح هذه الفروع جزئية لا أصلية . وهذا الأمر مقصود في الكتاب ، اتخذه المؤلف هدفاً جرى إليه وتعلق به . أراد بذلك أن يجعل أهل الحديث أصحاب الأمر في علوم الإسلام ، وأخبارَهم أهم ما يدوَّن ويقرأُ فيها .

ولا ريب أنه اتخذ تاريخه سبيلاً إلى مناصرة أهل الحديث وتأييد مذهبهم بل تقديمه . وقد أفلح في ذلك فلاحاً كبيراً . ولعله أسدى إليهم بالتاريخ خير خدمة . والنصر دوماً للسابقين وأصحاب الهمة . وأهل الحديث ممن يرتأي رأي الخطيب قد سجلوا لأَنفسهم ظفراً كبيراً بهذا التاريخ الذي اقتصرت عليه بغداد ، ولم تُخرج له مثيلاً . والخطيب قد طبع أخبار بغداد بالطابع الذي أراده . وقد مضى دهر عظيم عليها ، وهو مورد الباحثين عنها ، ولن يستطيعوا أن يتصوروها بما يخالفه أو يتفوَّق عليه إلا بعد دهر أميد [1]

---

(١) لم نستطع في هذا الفصل أن نذكر كل ما له علاقة بتاريخ بغداد بل اضطررنا بحكم النهج الذي اتبعناه إلى أن نوزع البحث عنه في فصول أخرى أهمها : صفة الخطيب في علمه . ولا يستوفي القارئ صورة تاريخ بغداد إلا بعد أن يتم الكتاب ويقرأ خاتمة المطاف منه فبنالك يجد أمره مسدداً .

تاريخ دمشق على نسق تاريخ بغداد

امتد أثر تاريخ بغداد إلى دمشق ، فطبع تاريخها بطابعه . وهذا علي بن الحسن بن عساكر يضع لها تاريخاً حافلاً عظيماً يسير فيه «على نسق تاريخ بغداد» كما يقول ابن خلكان[1] . ولا عبرة في هذا لتفوق تاريخ دمشق في المادة على تاريخ بغداد ؛ فالاثنان قد ذكرا أهم أخبار بلدتيهما . ولئن توسع ابن عساكر أكثر من الخطيب في التراجم ، فذلك شأن آخر ، وإن كان شأناً معظماً .

ومقابلة بسيطة بين التاريخين تطلعنا على أن تفوّق ابن عساكر على الخطيب في غزارة المادة لا يعني أنه أتقن تدوين أهم حوادث تاريخ دمشق أكثر مما أتقن الخطيب لمهم حوادث بغداد .

تفوق تاريخ دمشق بغزارة المادة لا بكثرة التراجم

عددتُ في ابن عساكر حوالى ( ٨٠٠٠ ) ترجمة بالتقريب ، وردت في نسخة دار الكتب الظاهرية ، وهي نسخة تكاد تكون كاملة . وهذا العدد من التراجم معادل بالتقريب لعدد التراجم في الخطيب . على أن ما عددته من المجلدات من تاريخ ابن عساكر يعادل بالحجم ثمانين مجلداً من مجلدات تاريخ بغداد المطبوع . فيكون الأول

(١) وفيات الأعيان ١ : ٣٣٥ واقرأ تحديد ابن عساكر لمادة تاريخه في تاريخ دمشق ١ : ١١

أكبر من الآخر بنحو ست مرات ، يعني ذلك أن ابن عساكر لم يزد على عدد تراجم الخطيب إنما زاد على مادة كل ترجمة ، بحيث كان متوسط كل ترجمة فيه ستة أضعاف متوسط الترجمة في الخطيب ولا عجب بعد ذلك أن يرضي ابن عساكر الباحثين أكثر من الخطيب ، فهم يجدون فيه مادة أغزر .

### ابن عساكر لا يترجم لعدد من غير المحدثين أكثر من الخطيب

أما أن يكون ابن عساكر قد ذكر عدداً من الأدباء والشعراء وأرباب الحكم أكثر مما ذكره الخطيب ، فذلك وهم ناجم من غزارة مادته فيهم ، لا من كثرتهم . ونسبة عددهم إلى عدد المحدثين لا يختلف كثيراً عن النسبة نفسها في تاريخ بغداد . تبين لي ذلك بعد حسابات ابتدائية أجريتها .

وقد يرتاب مرتاب بما أقوله . ولئن فعل ، إني إذن أزيل ريبه ، فأذكر له أن ياقوتاً في معجم الأدباء — وهو الكتاب الذي جمع أخبار الأدباء والشعراء — استشهد بالخطيب مرات تعادل ضعف ما استشهد بابن عساكر [1] . وكان حرياً به أن يستشهد بهذا أكثر ، لو كان للأدباء فيه محل نسبته أكثر منها في تاريخ بغداد ، أو شأن أعظم .

(١) انظر الفهرس العام لطبعة دار المأمون .

الاثنان يتقاربان في ذكر أهم الأخبار

ألا إن الاثنين يوفيان مهمَّ أخبـار بلدتيهما حقهما ، ولا يتفوّق ابن عساكر بذلك على الخطيب . وقد يظن أن قولي هذا ضرب من المجازفة أو المغالاة أو الشطط . ولكن هذا الظن يزول ، ويحل العجب محله ، حين استشهد بابن خلكان . فقد جمع ابن خلكان خلاصة أخبار الأمة الإسلامية وأهمها ، فالاستشهاد به رجوع إلى الثقة . إذا رجعنا إليه ، وجدناه في وفياته ينقل عن تاريخ الخطيب وينسب نقله إليه في ( ٦٦ ) محلاً ، ولا ينقل عن ابن عساكر وينسب إليه نقله إلا في ( ٢٩ ) محلاً [١] . وفي هذا بيان .

التفضيل بينهما

إذا علمنا ذلك وأردنا أن نعطي كلاً من التاريخين حقه ، قلنا إن ابن عساكر يفصل الأخبار ذات الأهمية الثانوية أكثر ، فيتفوّق بذلك على الخطيب . على أن هذا الأخير يثأر لنفسه في إتقانه

---

(١) انظر الفهرس العام لطبعة وستنفلد . وما أقوله في المقارنة بين التاريخين يخالف المعروف المشهور . وقد قال الحسين بن عبد الله بن رواحة يرثي ابن عساكر ( إرشاد الأديب ١٠ : ٥٣ )

وأكمل تاريخاً لجلق جامعاً لمن حلها من كل شهم وكامل
فأزرى بتاريخ الخطيب وقد غدا بخطبته في الكتب أخطب قائل

لأسلوب العرض أكثر من صاحبه . فقد شاهدته يتقيد بترتيب الأخبار وجمعها في نسق موحد لا يخرج عليه أكثر مما يفعل ابن عساكر . ومن يتتبع تاريخ دمشق ، يجد المؤلف لا يتقيد دوماً بجمع الأخبار المتشابهة أو المتماثلة بعضها إلى جانب بعض ، بل يشط به القلم ما لا يشط بالخطيب . وأياً كان فالتاريخ بالإجمال يستفيد من ابن عساكر أكثر مما يستفيد من الخطيب . وللاثنين فضل عليه لا يقدّر .

السبكي وتاريخ بغداد

ومن المستحسن أن نسمع رأي تاج الدين السبكي بمقارنة تاريخ بغداد بأعز التواريخ عنده ، وهو تاريخ نيسابور قال[١] :

« وقد كانت نيسابور من أجلّ البلاد وأعظمها ، لم يكن بعد بغداد مثلها . وقد عمل لها الحافظ أبو عبد الله الحاكم تاريخاً ، تخضع له جهابذة الحفاظ ، وهو عندي سيد التواريخ . وتاريخ الخطيب ، وإن كان أيضاً من محاسن الكتب الإسلامية ، إلا أن صاحبه طال عليه الأمر . وذلك لأن بغداد ، وإن كانت في الوجود بعد نيسابور ، إلا أن علماءها أقدم ، لأنها كانت دار علم وبيت رئاسة

(١) طبقات السبكي ١ : ١٧٣

قبل أن ترتفع نيسابور . ثم إن الحاكم قبل الخطيب بدهر ، والخطيب جاء بعده ، فلم يأت إلا وقد دخل بغداد ممن لا يحصى عدداً ، فاحتاج إلى نوع من الاختصار في تراجمهم . وأما الحاكم فأكثر من يذكره من شيوخه أو شيوخ شيوخه أو ممن تقارب من دهره ، لتقدم الحاكم وتأخر علماء نيسابور ، فلما قلَّ العدد عنده ، كثر في المقال ، وأطال في التراجم واستوفاها . والخطيب واضح العذر الذي أبديناه . »

ابن خلكان وتاريخ بغداد

وبعدُ فالتفضيل بين الأشياء أمر شدّ ما اختلف الناس فيه ، وهو تابع لميل النفس وحاجة العقل . وبحسب تاريخ بغداد أن يكون ابن خلكان قد استشهد به في وفيات الأعيان أكثر من أي كتاب آخر اتخذه مرجعاً [١] . وهذا يشير إلى فضل فيه يرفع من شأنه إلى درجة عيون الكتب الفريدة .

(١) راجع الفهرس العام له في طبعة وستنفلد تر تحقيق ذلك .

# الآخذون عن الخطيب

## وخاتمة القول في أثره

مزاياه في التعليم

اجتمع في أبي بكر من المزايا مـا هو حقيق بأن يجعل أهل العلم يحدقون به للأخذ عنه وللإفادة منه . فقد كان حسن الإلقاء والقراءة . وذلك أول ما يحبب المبتدئ بالشيخ ، ويرفع من قيمته عنده . وكان متواضعاً محباً للعلم وأهله ، مما يزيد الملتفين حوله حباً به . وكان صاحب جرأة في رأيه وتحمس لمذهبه ، مما يبعث بتلاميذه إلى الشغف بـه والتحمس له ، وبالناس إلى التقاط أقواله والتبرع بإذاعتها ، وإذا أضفنا إلى كل هذا سعة اطلاعه ، وحسن تصانيفه ، وانقطاعه للعلم ، أدركنا المعنى الذي قصده السمعاني ، حيث قال : « كان إمام عصره بلا مدافعة[1] » . وفهمنا الغاية التي رمى إليها أبو الفداء بقوله : « كان إمام الدنيا بزمانه[2] » .

---

(١) الأنساب ٢٠٣

(٢) تاريخ أبي الفداء ٢ : ١٨٧

## كثرة طلابه

الحق إننا قلَّ أن نجد ترجمةً لأحد من أهل الطبقة التي أتت بعده إلا وفيها : سمع من الخطيب أو أخذ عنه أو قرأ عليه : ومع أن أبا بكر رحل في طلب العلم رحلاته الواسعة التي رأيناها ، فتهيأ له الأخذ عن عدد كبير عظيم من الناس . فقد أثبت المؤرخون له عدداً من الآخذين عنه في العراق والشام يعادل عدد مشايخه في معظم أقطار الإسلام ، فذكروا له خمسين شيخاً من كبار مشايخه ، كما ذكروا له خمسين راوٍ من كبار من روى عنه .

## متى حدث ؟

هذا ، وهو لم يتفرَّغ للإملاء والإقراء إلا بعد عودته من الحج سنة ٤٤٥ ، ولم ينقطع إليهما إلا بعد دخوله دمشق هاربا من بغداد سنة ٤٥١ ، أي أن الزمن الذي أطلق نفسه فيه للتصدر في حلقات العلم لم يتجاوز ثمانية عشر عاماً . وكان قبل ذلك منقطعاً للجمع ثم التصنيف . وأصاب بما فعل ، فلم يلتمس التحديث إلا بعد أن استوفى حظه من العلم بالجمع ، وأخذ نصيبه من التفهم والبحث بالتصنيف . وحسن بذلك ملتمساً .

### تحديثه بكتب غيره وكتبه

وكان لديه ضربان من المعرفة يذيعهما ، أولهما الكتب التي قرأها على مشايخه ، فصحح نسخها ، وضبط ألفاظها ، وفقه معانيها ، وصار حرياً بتلقينها ؛ وثانيهما تصانيفه التي وضعها فأحسن وضعها .

### السامعون منه والمتخرجون به

والآخذون عنه فريقان ، ففريق يقصده ليروي عنه مما سمع أو صنف ، وفريق آخر يلازمه ليتخرّج به . والفريق الأول صاحب علم يبغي التوسع ، والثاني مبتدئ يعمد إلى التعلم ؛ ولذلك وجب التمييز بينهما . فكان أن أفردنا تعداد كل منهما على حدة في ثبت مصادر الآخذين عنه فذكرنا في الفريق الأول أقران الخطيب ممن أخذوا عنه وأخذ عنهم ، وفي الثاني ملازميه وطلابه ، ممن تشربوا روحه ، ونقلوا عنه . والذي يهمنا في بحثنا بصدد ثقافته وعلمه أن نرى مصرف ذلك لدى الفريقين معاً .

### من أخذ عنه من المؤرخين والمحدثين

تقدم البحث عن الكتب التي كان يرويها وعن تصانيفه . ورأيت في ذلك شدة عنايته بالحديث والتاريخ وانكبابه عليهما دون غيرهما من العلوم . وبديهي بعد ذلك أن يلتف المحدثون والمؤرخون حوله ، يقتبسون من علمه ويستقون من مورده . ونرجع إلى ثبت أسماء

الآخذين عنــه ، فنجد بينهم نحو سبعة وعشرين محدثاً بين خمسين رجلاً . ولكننا لا نلقى إلا مؤرخاً واحداً ( رقم ٩٤ ) . على أن هذا المؤرخ يحمل إلى جانب التاريخ صفة المحدث . فنعجب لانتفــاء المؤرخين من ثبتنا . ولكننا نذكر أن الأمر نفسه تقدّم في ثبت شيوخه ، فيدعونا ذلك للتريث والتفكر فنقول : إن المحدث لا بدّ أن يجمع التاريخ إلى الحديث ، ليكمل علمه وتنضج معرفته . فلا يذكر بالتاريخ إلا إذا اختصّ به من دون الحديث ، والاختصاص به دونه نادر في القرن الرابع والخامس والسادس[1] . فمؤرخو هذه العصور محدثون على الغالب . ونتأمل الثبت مرّة أخرى فنجد بين من ذكر لنا أنهم محدثون عدة ألفوا في التاريخ ( كرقم ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٨٨ ، ٩٥ ، ٩٦ ) ونقلنا عنهم في كتابنا هذا .

من أخذ عنه في غير ذلك

وكذلك فمعظم الآخذين عن الخطيب محدثون ومؤرخون ، يتلوهم في العدد الفقهاء ، وعددهم في ثبتنا عشرة أفراد ، وبينهم ثلاثة من الحنابلة ( رقم ٩٣ ، ٩٧ ) . أما بقية من أخذ عنه ف ( ٣ ) صوفيون

---

(١) يلاحظ أن أصحاب الطبقات مع أنهم مؤرخون لم يفردوا للمؤرخين كتباً في التراجم اكتفاء بما ورد من ذلك في كتب الرجال وغيرها . ولعل أول من جمع أسماءهم السخاوي في الاعلان بالتوبيخ ص ١٥٣ — ١٦٠

و (٤) مقرئون وتاجر وأديب ووراق . وهذه النسبة العددية توافق ما رأينا من ثقافته وتصانيفه ، وتؤيد نتائجها .

حظ الشام منه

ويلاحظ أن معظم الآخذين عن الخطيب من أهل العراق والشام ، ففي هذين القطرين انتشر علمه ؛ ولم يظهر فيهما محدث له شهرة أو مكانة إلا اعتزّ بأخذه عنه . ويبدو أن الشام أخذت بحظها الواسع من علمه . وما أودع من رواياته وتصانيفه في دار الحديث الضيائية من خط تلامذته أو الناقلين عنهم كثير ، انتقل بعضه إلى دار الكتب الظاهرية ، وهو فيها ينبئ عن كثرة تحديث الخطيب في دمشق والآخذين عنه فيها .

أثر تعليمه في المائة السادسة

وبالجملة فمحدثو النصف الثاني من المائة الخامسة ، والنصف الأول من المائة السادسة ، هم من أصحاب الخطيب والناقلين لعلمه بقي منهم كثيرون رآهم السمعاني وروى عنهم ابن عساكر .

وواجب القول ، وقد انتهينا إلى حيث نحن ، بأن أبا بكر الخطيب تلقى علم المائة الرابعة ، فنقله إلى المائة الخامسة ، وأضاف إليه مما أنتجته قريحته ، ونظمه منه حسن فهمه ، فحمله تلامذته إلى المائة السادسة خيراً مما كان وجده هو ، حين تلقاه .

أحسن شهادة بأثره

وإنا لنجد قولاً في إجلال أثره في عصره يدلي بأجمل حجة مؤيدة ، هذا ابن ماكولا خير من خلفه ببغداد يقول : « وقد استفدنا كثيراً من هذا اليسير الذي نحسنه به وعنه ، وتعلمنا شطراً من هذا القليل الذي نعرفه بتنبيهه [(١)] » ولعمري إن هذا أحسن شهادة له . ولو لم يكن له من أثر إلا ه لكان سبباً للفخر .

انتشار تصانيفه

على أن أثره في العلم خلال العصور يفوق هذا . فتصانيفه ما برحت تنتشر وتجوس خلال الديار ، فيتخلل منها أثره ، ويخلد عمله . أما قول ابن الجوزي أنه « لم يُبارك في كتبه ، ولا يكاد يُلتفت إليها [(٢)] » فمكابرة عجيبة من ابن الجوزي ؛ أفليس هو الذي أفرغ شطراً كبيراً من تاريخ بغداد في كتابه المسمى بالمنتظم رواية عن القزاز . أوَليس هو الذي ذكرنا في هذا الكتاب أن محمد بن مرزوق الزعفراني ( — ٥١٧ ) كتب تصانيف الخطيب ، وسمعها منه [(٣)] ؛ أوَلم يقل هو أيضاً أن محمد بن فتوح الحميدي ( — ٤٨٨ )

---

(١) في تاريخ دمشق ١ : ٣٩٩ والتبيين ٢٦٨

(٢) في الرد على أبي بكر للملك المعظم ١٧٩

(٣) المنتظم ٩ : ٢٤٩

« كتب تصانيف الخطيب ... ووقف كتبه على طلبة العلم[1] » أو غفل عن باله أنه قال عن إبراهيم بن مياس القشيري ( — ٥٠١ ) أنه « أكثر عن الخطيب وكتب من تصانيفه[2] » بل ما قوله في رجل من كبار أصحابه الحنابلة أعني عبيد الله بن محمد بن أبي يعلى الفراء (٤٤٣ — ٤٦٩ ) يتبرع بنشر هذه التصانيف ، فيكتبها بخطه[3] . وإذا كان يشير إلى أن معاصريه من الحنابلة لا يلتفتون إلى تصانيف الخطيب ، ويقصد بها غير تاريخه الذي طبق الخافقين ، فكلامه بعيد أيضاً عن الصحة ، فهذا الشيخ محيي الدين بن عربي شيخ المتصوفة يحدثه شيخ حنبلي من شيوخه ، وهو البرهان نصر بن أبي الفتوح ابن علي البصري ، أمام مقام الحنابلة بمكة المشرفة ، بكتب ابن ثابت الخطيب عن أبي جعفر السجستاني[4] . بل إن مصنفات الخطيب كانت قد بلغت في عصر ابن الجوزي أقصى بلاد الإسلام ، ألا وهي الأندلس . فذكر أجلها ابن خير الأندلسي في فهرسته ، وامتدحها

---

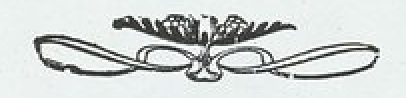
(١) الكتاب السابق ٩ : ٩٦ . وقال ياقوت روي عن الخطيب البغدادي وكتب عنه أكثر مصنفاته ( إرشاد ١٨ : ٢٨٣ )

(٢) المنتظم ٩ : ١٥٨

(٣) ذيل تاريخ بغداد لابن النجار ظاهرية تاريخ ٤٢ ، ١٠٥ ١

(٤) صورة إجازة ابن عربي للملك المظفر ابن العادل ، ظاهرية عام ، ١٦٢ ١

خير امتداح [١] . ولعل أقوى دليل على خلود آثار الخطيب أنه بلغنا نقلاً عن فهارس دور الكتب واحدة وسبعون نسخة من تآليفه سوى تاريخ بغداد . أمـا مصنفاته التي انتهت إلينا فثلاثون كتاباً ولعل هذا أكبر عدد بلغنا لمصنف قبل القرن السادس . وهو يشير إلى عظم إقبال الناس على آثار الخطيب ، وخلود أكثرها .



(١) انظر ذلك فيما ذكرناه منها في فهرست تصانيف الخطيب .

## مذهب الخطيب ونزعاته

### صعوبة البحث

هذا فصل صعب المأخذ ، ولو أنه جليل الفائدة . عظم الاضطراب في مصادره ، وبدا التناقض في أخباره ، مع أنها كلها من الأهمية في مكان : تصور الرجل في آرائه ونزعاته ومذهبه وعاطفته ، فصرنا بين شك يوقفنا ، واهتمام يثير رغبتنا ، حتى بدا لنا من التناقض فهمٌ لعلته ، خيل إلينا أنه صائب في أحكامه موضح لما نحن بصدده ، فأوردناه على ما تجلى لنا . والله الموفق للصواب .

### صراع العقل والنقل

ما برح العقل في صراع مستمر مع النقل ، يريد قوم أن يعللوا به الشرع ، ويتخذوه أساساً يستنتجون منه أحكامه ، ويزنون به صحتها . وتريد طائفة أخرى أن لا تدع له مجالاً لسلطان ، فهي تخشى منه مخالفته أحكاماً ثبتت عندها صحة روايتها ، وأيقنت بصدورها عن الوحي المنزل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

### المعتزلة والأشاعرة

وكان أصحاب الكلام يحملون علم العقل ، وأصحاب الحديث

يضربون بسيف النقل ، يستهزيء كل منهم بخصمه ، ويثير عليه الحجج والعلل ، ليكبت بها صوته ، وكلٌّ مسترسل إلى نزعاته ، شديد في خصومته ؛ حتى خرج أبو الحسن الأشعري ، فخاف على الدين من هذا الخصام ، فعمد إلى تسوية الخلاف ، بتحديد سلطان العقل تارةً ، وتثبيته تارةً أخرى ، والأخذ بنصوص الشرع ، يقف عن تعليلها حيناً ، ويؤولها حيناً آخر . وأسعفه إخلاصه ، فأفحم معارضيه ، وقضى على الخصومة ، وانضمَّ إليه سلطان السياسة ، يقضي بمذهبه ، ويفتي برأيه .

وعدم أصحاب الكلام النصير ، وتحفز الناس يودون القضاء عليهم ، فلم يروا لهم منفذاً إلا الأخذ برأي الأشعري ، فانتموا إلى طائفته ، وعدّلوا بعض رأيه ، فعدوا من أهل السنة والجماعة . وعكف بعض أصحاب النظر من الخلفاء والسلاطين على مذهبهم يشجعونه ، ويسلكون سبيله . لكن ذلك لم يرق لأصحاب الحديث ، فصاروا يرمونهم بالبدعة ، ويصفونهم بالكلام ، كما كانوا يفعلون مع المعتزلة أول مرة ، ولو أن سلاحهم أصبح مع الأشاعرة مبتوراً .

### إبهام في موقفه

ولما نشأ الخطيب ألفى الأمر على ما ذكرناه وكان عليه بحكم اختصاصه أن يأخذ بناصر أهل الحديث ، وأن يرد رأي الأشاعرة

فما ذا فعل ؟ هنا يبدو الاضطراب ، ويعلو الشك ، فها هوذا يتعصب على الكلام ، وينحو عليه باللوم ، ويصفه بالبدعة ، بعد أن يرفع من شأن الحديث ، ويحله المكان الأسمى في الأخذ بناصر الحق ، والهيمنة على سلطان الدين . ثم تراه بعد ذلك يرمى باتخاذه الأشعري حجةً وإماماً ، ويطعن عليه لتعصبه على مخالفي مذهبه تعصباً شديداً ، أوشك أن يوقعه بالفتنة . فما تأويل ذلك وتعليله ؟ نرى أن خير واسطة لذلك إظهار رأيه في الحديث والكلام ، معتمدين على نصوص من كلامه ، نبسطها أمام القارئ ، ثم نعرض ما قيل عن مذهبه وعقيدته ، لنفضي من ذلك إلى الجمع والتوفيق ، إن كان إليهما سبيل .

## شرف أصحاب الحديث

وضع الخطيب كتاباً في شرف أصحاب الحديث ، ذكر فيه سلطانه ومكانة أصحابه وحسن رأيهم وصواب عقيدتهم . ونحن نورد من هذا الكتاب أقوال الخطيب نفسه ، لا ما استشهد به ، ليظهر رأيه واضحاً ، وكلامه مبسوطاً .

هم حراس الدين

يرى الخطيب أن حفظ الشريعة والإسلام موكول إلى أهل الحديث ، فيقول[1] :

« جعل الله ربّ العالمين الطائفة المنصورة حراس الدين .. فشأنهم حفظ الآثار ، وقطع المفاوز والقفار ، وركوب البراري والبحار ، واقتباس ما شرع الرسول المصطفى ... قبلوا شريعته قولاً وفعلاً ، وحرسوا سنته حفظاً ونقلاً ، حتى ثبتوا بذلك أصلها ، وكانوا أحقّ بها وأهلها ، وكم ملحدٍ يروم أن يخلط بالشريعة ماليس منها ، والله تعالى يذبّ بأصحاب الحديث عنها ، فهم الحفاظ لأركانها والقوامون بأمرها وشأنها ، إذا صدف عن الدفاع عنها ، فهم دونها يناضلون ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون » .

أركان الشريعة

« وقد جعل الله تعالى أهله أركان الشريعة ، وهدم بهم كل بدعة شنيعة ، فهم أُمناء الله من خليقته ، والواسطة بين النبي صلى الله عليه وسلم وأُمته ، والمجتهدون في حفظ ملته ؛ أنوارهم زاهرة ، وفضائلهم

---

(١) شرف أصحاب الحديث ظاهرية مجموع ١١٧ (٢) ، ٤٠ ب

سائرة ، وآياتهم باهرة ، ومذاهبهم ظاهرة ، وحججهم قاهرة[1] » .

وهم إنما يفلحون باتخاذهم الكتاب والسنة ، وعدولهم عن غيرهما ، اسمع قوله[2] :

« وكل فئة تتحيز إلى هوى ترجع إليه ، وتستحسن رأياً تعكف عليه ، سوى أصحاب الحديث ؛ فإن الكتاب عدتهم ، والسنة حجتهم ، والرسول فئتهم ، وإليه نسبتهم ؛ لا يعرجون على الأهواء ولا يلتفتون إلى الآراء ، يقبل منهم ما رووا عن الرسول ، وهم المأمون عليه العدول ، حفظة الدين وخزنته ، وأوعية العلم وحملته ؛ إذا اختلف في حديث كان إليهم الرجوع ، فما حكموا به فهو المقبول المسموع . منهم كل عالم فقيه ، وإمام رفيع نبيه ، وزاهد في قبيلة ، ومخصوص بفضيلة ، وقارئ متقن ، وخطيب محسن . وهم الجمهور العظيم ، وسبيلهم السبيل المستقيم ؛ وكل مبتدع باعتقادهم يتظاهر ، وعلى الإفصاح بغير مذهبهم لا يتجاسر . »

ذلك لأن الله نصيرهم . وفي قوله الآتي بيان ، قال[3] :

« من كادهم قصمه الله ، ومن عاندهم خذله الله ؛ لا يضرهم من

---

(١) المصدر السابق ٢ب

(٢) المصدر السابق ٣أ

(٣) المصدر السابق ٣أ

خذلهم ، ولا يفلح من اعتزلهم ؛ المحتاط لدينه إلى إرشادهم فقير ، وبصر الناظر بالسوء إليهم حسير ، وإن الله على نصرهم لقدير . »

الشواهد لعظمتهم

ولا ينتهي من أقواله هذه ، حتى يعرض الشواهد من أقوال الرسول وصحبه والعلماء ، فيذكر وصية النبي صلى الله عليه وسلم بإكرام أصحاب الحديث[1] ، ووصفه لإيمانهم[2] ، وأنهم أولى الناس بالنبي صلى الله عليه وسلم لدوام صلاتهم به[3] . وينتقل إلى سرد ما ذُكر من أنهم حماة الدين ، بذبهم عن السنن[4] ، وكونهم الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر[5] . ويستنتج من ذلك أنهم خيار الناس[6] ، لولاهم لاندرس الإسلام[7] . ويورد قول من قال بالاستدلال على أهل السنة بحبهم للحديث ، وبالاستدلال على المبتدعة ببغض الحديث وأهله[8] .

---

(١) المصدر السابق ٢٧

(٢) = = ١١ ٢

(٣) = = ١٢ ١

(٤) = = ١٤ ٢

(٥) = = ١٥ ٢

(٦) = = ١٥ ٢

(٧) = = ١٦ ٢

(٨) = = ٢٨ ١ — ٢٨ ٢

هذا رأيه ، وهو فيه أقرب إلى المغالاة منه إلى الاعتدال . ولعله قصد به ردّ كيد المعاندين والقضاء على حجتهم قضاءً مبرماً . فقديماً كان أهل الجدل يغالون في الرأي ، ويعنفون الخصم ، ويقطعون عليه طرق القول . وأبو بكر الخطيب مخلص لعلمه ، يحبه ويرى فيه الخير ، فيثور على أعدائه بكل ما عنده من قوة . وكيف لا يفعل ذلك ، وقد انتهى إليه طعنهم على الحديث ، ووقف على ما ذُكر « من عيب المبتدعة أهل السنن والآثار ، وطعنهم على من شغل نفسه بسماع الأحاديث وحفظ الأخبار[1] » فثار ثائره « فنظر في الأمر ، فإذا هو الحديث والرأي . فوجد في الحديث ذكر الرب تعالى وربوبيته وجلاله وعظمته ، وذكر العرش وصفة الجنة والنار ، وذكر النبيين والمرسلين والحلال والحرام ، والحث على صلة الأرحام ، وجماع الخير فيه ، ونظر في الرأي ، فإذا فيه المكر والخديعة ، والغدر والحيل ، وقطيعة الأرحام ، وجماع الشر فيه[2] » فهل يسكت عمن كان شأنه هكذا ، وعمن يعتقد فيه هذه العقيدة السيئة .

---

(١) شرف أصحاب الحديث ، ٢

(٢) الكتاب السابق ، ١٢٩

مساوئ أهل الرأي

ثم هو لا يرى لأهل الرأي إلا المساوئ التي لا تغتفر من «صدوفهم عن النظر في أحكام القرآن ، وتركهم الحجاج بآياته الواضحة البرهان ، واطراحهم السنن من ورائهم ، وتحكيمهم في الدين بآرائهم[1]» أضف إلى ذلك قوله[2] :

«ولو أن صاحب الرأي المذموم شغل بما ينفعه من العلوم ، وطلب سنن رسول رب العالمين ، واقتفى آثار الفقهاء والمحدثين ، لوجد في ذلك ما يغنيه عن سواه ، واكتفى بالأثر عن رأيه الذي يراه . لأن الحديث يشتمل على معرفة أصول التوحيد ، وبيان ما جاء من وجوه الوعد والوعيد ، وصفات رب العالمين تعالى عن مقالات الملحدين» .

هذا قوله في أهل الرأي ، يجمع فيه أعظم المآخذ عليهم ، فيظهرهم آخذين بالبدعة ، طاعنين على الدين .

مساوئ أهل الكلام

أتراه بعد ذلك يحجم عن الطعن على أهل الكلام ، وهم أشد خصاماً من أهل الرأي ، وأعنف قولاً منهم في أهل الحديث . على أنه كفي القول فيهم بما أورده في أهل الرأي . وخير ما يفعل بهم

---

(١) الكتاب السابق ٢
(٢) الكتاب السابق ٣

التهكم على أقوالهم وازدراء حججهم ، فيقول : والمتكلم[1] « يفتخر على العوام بذهاب عمره في درس الكلام ، ويرى جميعهم ضالين سواه ، ويعتقد أن ليس ينجو إلا إياه ، لخروجه — زعم — عن حب التقليد ، وانتسابه إلى القول بالعدل والتوحيد . وتوحيده إذا اعتبر كان شركاً وإنداداً ، وعدله عدولاً عن نهج الصواب إلى خلاف محكم السنة والكتاب »

قوة جدله

الحق إن قريحة أبي بكر تظهر في خصامه مع أهل الرأي والكلام أكثر مما تظهر في أي شيء آخر ؛ ذلك أنه جمع إلى حسن المعرفة قوة الأدب ، وإلى متانة الجدل قناعة النفس وعواطف القلب ، فكان قوله بليغاً ، وحجته دامغة ، ونفسه شفافة . ولو تعاطى هذا النوع من الكتابة أكثر مما فعل ؛ ولو تخلص من النقل إلى الإبداع في الأدب ، لأبقى لنا صحائف بديعة خالدة تؤثر . غير أنه لا يرى هذا الرأي ، ولا يحب هذا المذهب ؛ ولولا أن نفسه ملأى بالغضب على أهل الرأي والكلام ، لما أجاز لنفسه أن يذكر شيئاً من هذه ، بل لكان اختفى وراء أقوال غيره من الأئمة . وذلك

(١) الكتاب السابق ١٢

كان وعده في أول كتابه في شرف أصحاب الحديث . فقد ذكر أن ابن قتيبة كفى ووفى في الرد على أهل البدع في «تأويل مختلف الحديث»، وأنه هو لم يبق عليه إلا أن يورد ما رُوي في شرف أهل الحديث[1]. غير أن نفسه أبت إلا أن تظهر، فوقفنا بذلك على قوة خصامه، وسيء اعتقاده في الرأي والكلام .

وبعدُ فمن كان هذا شأنه أليس حقيقاً بأن يتخذ مذهب الحنابلة مذهباً له فهم أعداء الرأي وأصحاب الحديث، ولكنه يخطئ ظننا فلا ينتمي إليهم بل ينتسب إلى مذهب فيه الأخذ المعتدل بالرأي والتقيد بالحديث الموثوق، ألا وهو مذهب الشافعي .

دعوى ابن الجوزي في تركه لمذهب الحنابلة

ويدعي ابن الجوزي أنه كان «قديماً على مذهب أحمد بن حنبل، فمال عنه أصحابنا [الحنابلة] لما رأوا من ميله إلى المبتدعة وآذوه، فانتقل إلى مذهب الشافعي[2]» على أن ابن الجوزي فريد في هذا الادعاء؛ والنصوص التي بين أيدينا تخالف قوله؛ فما بال الخطيب يدرس على فقهاء الشافعية منذ صغره، ويأخذ الفقه عنهم، وهو حنبلي . أوليس عجيباً أن لا يكون بين أساتذته في الفقه شيخ حنبلي

(١) الكتاب السابق ٤ آ

(٢) المنتظم ٨ : ٢٦٧ وعنه إرشاد ٤ : ٢٥ ، بداية ١٢ : ١٠٢

واحد ، مع أنه كان على مذهب أحمد . الذي يغلب على الظن أن ابن الجوزي واهم فيما أورده من ذلك ، وإلا كان في أقوال المؤرخين أو نصوص المحدثين ما يقرب سبيل تصديق قوله .

شافعي في الفروع

ومهما يكن ، فأبو بكر شافعي فيما أخذه عن أساتذته ، وقرأه من كتب ، وصنفه من تصانيف فقهية . وهو إذن يتباعد في فقهه عن فقه أهل الحديث ، ويدل بذلك على أنه لا يكره الرأي لمجرد أنه رأي ، بل يكرهه حين يكون له التقدم على ما صح من أقوال الشارع .

أشعري في الأصول

وليس في هذا ، أن فهم على حقيقته ، سبيل إلى الاستنكار من تناقض في أقوال الخطيب ، أو تغير في نزعاته . ولكن صوت الاستنكار يعلو ، حين نرى المؤرخين ينسبونه إلى مذهب أبي الحسن الأشعري (١) في الأصول (٢) ، أي في العقيدة بأصول الدين وقواعد الإيمان . فما علاقته ، وهو محدث ، بمذهب أهل الكلام ؟

---

(١) عن الكتاني في تاريخ دمشق ١ : ٤٠١ ، شهبة ١٣٨ ا ، سبكي ٣ : ١٢ وانظر حاتم ١٨٧ ا

(٢) كما نقله المالكي ٢٧ من خط الكتاني

### سبب انتمائه إلى الأشاعرة

يبدو لي أن أخذه بمذهب الأشعري كان نتيجة لانتسابه إلى مذهب الشافعي ، فالشافعية هم الذين انتصروا لمذهب الأشعري ونشروه . فقلما ترى شافعياً في عصر الخطيب ، إلا وهو أشعري . وفي تاريخ المدرسة النظامية ببغداد أكبر تأييد لما نقول ، فقد أنشئت لفقهاء الشافعية ونقش اسم الأشعري على بابها[1] .

والغالب إذن أن ما بلغ الخطيب من أذية الحنابلة كان بعد أن ظهر تمسكه بمذهب الشافعية ، وبما كانوا يتصفون به من رأي في أصول الدين والتوحيد ، لا ما ذكره ابن الجوزي . وتلك الأذية وذلك الاضطهاد أشعلا نار غضبه ، فزاد تقربه من الأشاعرة ، حتى وُصف بأنه أحدهم . وعده ابن عساكر من أعلامهم[2] . وهذا تفسير ما ذكره المؤتمن الساجي بقوله[3] : « تحاملت الحنابلة على الخطيب ، حتى مال إلى ما مال إليه » .

### قوله في الصفات

فصار يعتقدُ جهاراً برأي الأشاعرة في التوحيد ، فيذكر في

---

(١) انظر تاريخ الذهبي أحمدية حلب ١٢٢٠ ، ١٤٥٢

(٢) في كتاب كذب المفتري ص ٢٧١

(٣) شهبة ١٤٠١ ، تذكرة ٣ : ٣١٨ ، سبكي ٣ : ١٣

صفات الله مذهبهم ، ويلقنـه طلابه قال جواباً لما كتبه إليه بعض أهل دمشق [١] : « أما الكلام في الصفات ، فإن ما رُوي منها في السنن الصحاح مذهب السلف إثباتهـا وإجراؤها على ظواهرها ، ونفي الكيفية والتشبيه عنها ، وقد نفاها قوم ، فأبطلوا مـا أثبته الله سبحانه ، وحققها من المثبتين قوم ؛ فخرجوا في ذلك إلى ضرب من التشبيه والتكييف ، تعالى الله عن ذلك . والقصد إنما هو سلوك الطريقة المتوسطة بين الأمرين . ودين الله تعالى بين المغالي فيه والمقصر عنه . والأصل في هـذا أن الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات ، ويحتذى في ذلك حذوه ومثاله ؛ فإذا كان معلوماً أن إثبات رب العالمين ، إنما هو إثبـات وجود ، لا إثبات كيفية ؛ فكذلك إثبات صفاته إنما هو إثبات وجود ، لا إثبات تحديد وتكييف . فإذا قلنا : لله يد وسمع وبصر ، فإنما هي صفات أثبتها الله تعالى لنفسه ، ولا نقول إن معنى اليد القدرة ، ولا إن معنى السمع والبصر العلم . ولا نقول إنها جوارح ، ولا نشبهها بالأيدي والأسماع والأبصار التي هي جوارح وأدوات للفعل . ونقول إنما وجب إثباتها

---

(١) شهبة ١٤٠[٢] وتذكرة ٣ : ٣١٩ عن محمد بن مرزوق الزعفراني وقد أعتمدنا على النص الوارد في مجموع بالظاهرية رقم ١٦ ، ١٤٣[١] — ١٤٤[١] وفيه زيادات عن الأحاديث الواردة في الصفات لم ننقلها .

لأن التوقيف ورد بها ، ووجب نفي التشبيه عنها لقوله تعالى : ليس كمثله شيء وهو السميع البصير . وقوله عز وجل : ولم يكن له كفواً أحد » .

هذا مذهبه ، وصفات الله عنده هي ماجاءت عليه في كتاب الله ، وهو مذهب الأشعري ، ولو أن للأشعري مذهباً آخر في التأويل كما يقول السبكي[1] .

وبعدُ فإن كان لمذهب الشافعي ولأذى الحنابلة أثر في أخذ الخطيب بمذهب الأشعري ، فكيف يعلو هذا الأثر قوة طرائق المحدثين ، وعظم انطباعه بمذهبهم ؟

الأشعري يوافق كبار المحدثين

الجواب عن ذلك لا يخرج عن أنه لا يعتقد مخالفة مذهب الأشعري لعقيدة كبار المحدثين . ويأخذ السبكي بهذا الرأي ، فيقول حين يذكر مذهب الخطيب في صفات الله : « وهو مذهب المحدثين قديماً وحديثاً ، إلا من ابتدع ، فقال بالتشبيه ، أو من لم يدرِ مذهب الأشعري ، فرده بناء على ظنّ فيه ظنه . والفريقان من أصاغر المحدثين ، وأبعدهم من الفطنة[2] » ويأخذ به ابن عساكر ، ويضيف قائلاً :

---

(١) طبقات الشوافعة ٣ : ١٣

(٢) المصدر السابق

« فإن قيل إن الجم الغفير في سائر الأزمان وأكثر العامة في جميع البلدان لا يقتدون بالأشعري ، ولا يقلدونه ، ولا يرون مذهبه ، ولا يعتقدونه ، وهم السواد الأعظم وسبيلهم السبيل الأقوم ؛ قيل لا عبرة بكثرة العوام ، ولا التفات إلى الجهال الأغتام . وإنما الاعتبار بأرباب العلم والاقتداء بأصحاب البصيرة والفهم . وأولئك في أصحابه أكثر ممن سواهم ، ولهم الفضل والتقدم على من عداهم . على أن الله عزّ وجل قال : وما آمن معه إلا قليل » .

وانظر[1] وصف الخطيب لأبي الحسن الأشعري ، حيث قال عنه : إنه « المتكلم ، صاحب الكتب والتصانيف في الرد على الملحدة وغيرهم من المعتزلة والرافضية والجهمية والخوارج وسائر أصناف المبتدعة[2] » فوصفه بنضاله للمبتدعة ، وبرده على الإلحاد .

## الكلام المحمود

لئن كان كل ذلك واضحاً ، يبعد التناقض من موقف الرجل في مذهبه ورأيه ، فما تعليل ذمه الكلام وبغضه له ، ثم اعتناقه مذهب المتكلمين وأخذه بناصرهم ؟ تعليل ذلك نراه في أقوال ابن عساكر حين ردّ على من عاب مذهب الأشعري ، قال[3] :

---

(١) التبيين ٣٣١

(٢) تاريخ بغداد ١١ : ٣٤٦

(٣) التبيين ٣٣٩

« والكلام المذموم كلام أصحاب الأهوية ، ومايزخرفه أرباب البدع المروية ؛ فأما الكلام الموافق للكتاب والسنة ، الموضح لحقائق الأصول عند ظهور الفتنة ، فهو محمود عند العلماء ومن يعلمه . وقد كان الشافعي يحسنه ويفهمه ، وقد تكلم مع غير واحد ممن ابتدع ، وأقام الحجة عليه حتى انقطع . »

السلف والكلام

ولم يأخذ الخطيب بالكلام ، وتعرّف إلى طرائقه إلا أسوة بالسلف الصالح ، فقد جرى كما يقول ابن عساكر[1] « أئمتنا في قديم الدهر على الاستغناء عن الكلام فيه ، فإذا احتاجوا إليه ، أجابوا بما في كتاب الله عز وجل ، ثم في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدلالة على إثبات القدر لله عز وجل ، وأنه لا يجري في ملكوت السموات والأرض شيء إلا بحكم الله ... وكذلك في سائر مسائل الكلام ، اكتفوا بما فيهما من الدلالة على صحة قولهم ، حتى حدثت طائفة سموا ما في كتاب الله من الحجة عليهم متشابهاً ، وقالوا نترك القول بالأخبار أصلاً ، وزعموا أن الأخبار التي حملت عليهم لا تصح في عقولهم ، فقام جماعة من أئمتنا بهذا العلم ، وبينوا لمن وفق للصواب أن جميع ما ورد في تلك الأخبار صحيح في العقول » .

(١) التبيين ٣٤٤

السلف والتقليد

وليس في الكلام ، إن كان للرد على الملحدة ، أدنى ضير ، بل في الأخذ بالتقليد والوقوف عنده وعدم النظر والفكر مخالفة لما كان عليه السلف . قال ابن عساكر[1] :

« وكيف يظن بسلف الأمة أنهم لم يسلكوا سبيل النظر ، وأنهم اتصفوا بالتقليد ، حاشى لله أن يكون ذلك وصفهم . ولقد كان السلف من الصحابة مستقلين بما عرفوا من الحق ، وسمعوا من الرسول صلوات الله عليه من أوصاف المعبود ، وتأملوا من الأدلة المنصوصة في القرآن وأخبار الرسول في مسائل التوحيد ... فلما ظهر أهل الأهواء ، وكثر أهل البدع من الخوارج والجهمية والمعتزلة والقدرية ، وأوردوا الشبه ، انتدب أئمة أهل السنة لمخالفتهم . »

حسن كلام الأشعري

وقد عرف الخطيب ذلك ، فأخذ بمذهب الأشعري ، وما ذم كلامه بل كلام القدرية والمعتزلة الذين يفضلون العقل على الشرع . أما كلام الأشعري عنده فلا يجحده كما يقول ابن عساكر[2] : « إلا

(١) التبيين ٣٥٨
(٢) التبيين ٣٥٩

أحد رجلين : جاهل ركن إلى التقليد ، وشقّ عليه سلوكُ أهل التحقيق ، وخلا عن طرق أهل النظر ، والناس أعداء ما جهلوا . فلما انتهى عن التحقيق بهذا العلم ، نهى الناس ليضلّ كما ضلّ . أو رجل يعتقد مذاهب فاسدة ، فينطوي على بدع خفية ، يُلبّس على الناس عوار مذهبه ، ويعمّي عليه فضائح عقيدته ، ويعلم أن أهل التحصيل من أهل النظر ، هم الذين يهتكون الستر عن بدعهم ، ويظهرون للناس قبح مقالاتهم . »

وكذلك يبدو الخطيب حين دراسة مذاهبه ورأيه حكيماً ، يجمع بين الشرع والعقل ، يفضل الأول لأنه أضبط وأصحّ ، ويأخذ بالثاني لأن فيه النظر والفكر والتعمق والتأمل في حقيقة الأشياء . وذلك للمتدين خير مذهب .

## صفة الخطيب في علمه

### غاية البحث

لا نقصد بهذا العنوان أننا سنرسم صورة عن علم أبي بكر، تظهر فيها أجزاء معرفته، وتتبين أساليب تحققه، وتبدو منها وسائط استنباطه، فتلك فصول يتصل بعضها بثقافته، وبعضها الآخر بتصانيفه، وقد تقدم البحث عنها، أو سبقت الإشارة إلى مضمونها. إنما نروم أن نذكر نواحي القوة أو الضعف في علمه، والصفة التي اختص بها ذلك بأثر نزعاته وميوله وعقيدته ومذهبه. وهذا الفصل عزيز على المحدثين، يعلقون عليه أهمية في حكمهم على الرجال، ورأيهم في النقل عنهم، والأخذ بعلمهم. وهم مصيبون في اعتدادهم به، ولو أنهم لم يغرقوا في التفصيل فيه، والاستقصاء لأساليبه وأسبابه، وتدقيق وجوهه واختلافه

### الضعف في شخصه

ولعلنا نجد في هذا البحث تهماً وجهت إلى أبي بكر أكثر مما ألفينا في صدد الموضوعات السابقة. ولئن كان ما مر من التهم حتى الآن خاطئاً وباطلاً، فبعض ما سنراه يعلق بالخطيب، ويشوب من كماله. ولكن علينا إن قصدنا الحكم الحق أن لا نسترسل في سوء الظن،

أو أن نعن في الخصام ؛ بل علينا أن نذكر أن أبا بكر إنسان لا يستطيع أن يكون كاملاً ، وبشر يتأثر بالعقيدة ، وتغيظه الفتنة ، ويأخذ منه الغضب . وخير ما نفعل أن ننسبه إلى أمثاله ، فإن فضلوا بجموعهم عليه ، حقّ لنا أن نُسقط من قدره إلى ما يستحق ؛ وإن لم يفضلوا ، أو لم يفضل أكثرهم ، استبقينا له مكانته بعد الاعتراف بخطأ لعله زلق إليه وأيُّ الرجال المهذب ؟...

تصحيفه

مما يتهمونه به التصحيف ، قال الملك المعظم[1] :

«وقد كان الخطيب مصحفاً : أنبأنا شيخنا الإمام العلامة حجة العرب أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي مشافهةً ، قال أجاز لنا الإمام العلامة الحافظ أبو الفضل محمد بن ناصر السلامي ، قال : قال لنا الشيخ الحافظ أبو الغنائم بن النرسي ، سمعت الشيخ الحافظ أبا بكر الخطيب وهو يقرأ لنا كتاب المغازي عن الواقدي على أبي محمد الجوهري ، فبلغ إلى غزاة أحد ، وذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم : يا ليتني غودرتُ يوم أحدٍ مع أصحابي نحض الجبل بالضاد المعجمة ، فقال له أبو القاسم بن برهان النحوي : صحف أبو بكر

(١) الرد على أبي بكر له ص ١٧٧

الخطيب هذه الكلمة ، وإنما هو نحص بالصاد غير معجمة ، النحص أصل الجبل .»

وإذا لم نرَ في هذا الخبر علةً لصدوره عن محمد بن ناصر السلامي (٤٦٧ — ٥٥٠) الذي قال فيه أبو سعد السمعاني إنه « كان يحب أن يقع في الناس[١] » إذا لم نرَ فيه هذه العلة ، وقبلناه ، عجبنا كيف ينسب محدث إلى التصحيف ، لتصحيفه مرةً كلمةً واحدةً ، ولئن صحّ هذا الحكم ، كان جلّ العارفين بل كلهم مصحفين[٢] .

تحديثه عن الضعفاء

ومما نسب إلى أبي بكر تحديثه عن الضعفاء والمتروكين ، قال محمد ابن طاهر المقدسي[٣] : « سمعتُ الإمام أبا القاسم سعد بن علي ، عن أبي بكر الخطيب ، ورأيتُ على بعض أجزائه علامةً له ، فقلتُ له : كيف رأيته ؟ فقال : كان ههنا يفيد الناس من سُليم الرازي ويقرأ لهم عليه ، وكأنه لم يرَ به بأساً .»

---

(١) المنتظم ١٠ : ١٦٣ و ١٠ : ٢٢٥ وذيل ابن رجب ظاهرية تاريخ ٦١ ، ١٩٢

(٢) ذكر حمزة بن الحسن الأصفهاني في التنبيه على حدوث التصحيف تصحيفات كبار علماء اللغة فلم يسلم من التصحيف أحد .

(٣) الرد على ابي بكر ص ١٧٦

غير أن هذا الخبر لم يرد إلا عن ابن طاهر ، وروده عنه ، على ما عرفنا من تضعيف المحدثين له ، ومن تحامله على أبي بكر[١] — كاف في تقليل أهميته لا سيما ، وسليم الرازي ثقة[٢] .

من تتبعوا أوهامه

والحق أن أبا بكر الخطيب على جلالة علمه و كثرة تحقيقه يخطئ كغيره من العلماء . حتى قال أبو الحسن محمد بن مرزوق[٣] « إن ابن ما كولا أخذ عليه في كتابه المؤتنف ، وصنف في ذلك تصنيفاً » ولو أن ابن ما كولا أنكر ذلك تأدباً ، ولم يقرّ ، وأصرّ حين سأله شيخه الخطيب عن ذلك ، فقال : « هذا لم يخطر ببالي . وقيل إن التصنيف كان في كمه ، فلما مات الخطيب أظهره ، وهو الكتاب الملقب بمستمر الأوهام » .

وتتبع محمد بن عبدالغني بن نقطة الحنبلي (– ٦٢٩) أوهام الخطيب وغيره في مصنف أسماه « المنتقط فيما في كتب الخطيب وغيره من الوهم والغلط[٤] » ولا يضير أبا بكر أن يغلط في أشياء ، تؤخذ عليه ،

---

(١) انظر ص ٧٢ اعلاه .

(٢) ترجمته في شهبة ١٢٧[١] — ١٢٧[٢] وشذرات ٣ : ٢٧٥

(٣) تذكرة ٤ : ٤ وانظر إرشاد الأريب ١٥ : ١١٠ — ١١١

(٤) الوافي بالوفيات للصلاح الصفدي ، احمدية حلب ١٢١٦

وتصحح له ؛ فما زال العلماء يهنون ، وتلاميذهم يصححون ، والعلم في تقدم ، والفضل للسابق على اللاحق .

إعجابهم به

انظر ابن ما كولا وابن نقطة اللذين تتبعا أغلاطه تر هما أكثر الناس إعجاباً به ، فقد تقدم قول ابن نقطة : « كل من أنصف علم أن المحدثين عيال على كتب الخطيب [1] » . واسمع ابن ما كولا يصف علم أبي بكر ؛ فيكبت ما رأينا من أقوال الخصوم والمتهمين ، قال : « كان أبو بكر الخطيب آخر الأعيان ممن شاهدناه معرفة وحفظاً وإتقاناً وضبطاً لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتفنناً في علله وأسانيده ، وخبرة برواته وناقليه ، وعلماً بصحيحه وغريبه وفرده ومنكره وسقيمه ومطروحه [2] » . وذلك وصفٌ جامع مانع ، ترى فيه الخطيب قوياً في علمه ، عظيماً في تحقيقه وخبرته . وهو وصف صدر عن متين في الحديث ، عارف بالخطيب ، متتبع لسقطاته . ففيه الكفاية وعليه الاعتماد وهو يؤيد مرة أخرى وصف الخطيب بالإتقان ، والأخذ بأسباب الكمال .

---

(١) نخبة الفكر لابن حجر ص ١ وتدريب الراوي للسيوطي ص ٩ والرسالة المستطرفة ص ١٠٧

(٢) تاريخ دمشق ١ : ٣٩٩ ، التبيين ٢٦٨ ، شهبة ٢١٣٧ ، تذكرة ٣ : ٣١٤ ، سبكي ٣ : ١٣ ، الشذرات ٣ : ٣١٢ .

الناس في أمره فئتان

والعلماء المخلصون ، على أن الخطيب كما وصفه ابن ماكولا ، فقد أثنوا عليه جميعاً ، ونقلوا عنه ، وعدّوا تصانيفه عمدة يُرجع إليها ويقتبس منها . ذلك كان شأنهم في الاعتراف بعلمه ، والأخذ عنه . أما الاعتراف له بالإخلاص في العلم ، والبعد عن العصبية ، والاقتصار على نقل ما صحّ من الأحاديث ووثق من الأخبار ، فقد تفرّقوا في ذلك شيعتين : طائفة نسبته إلى أسوء ما يكون من ذلك ، وطائفة أخرى سكتت ، إما إهمالاً ، أو تعمداً ساقه الظن بأن ليس في ذلك ما تجدر الإشارة إليه . ومهما يكن من أمرهم جميعاً : غالوا أم قصروا ، فالضعف في شخصية الخطيب وعلمه إنما يتحقق هنا .

آثار حبه وكرهه

ويسوؤنا أن يتسرّب إليه الضعف ، وهو من نجله في علمه وشخصه . ولكن العقيدة إن استحكمت ، والحب للشيء إن اشتدّ ، والغيرة على الأليف إن تمكنت ، ولدت بمجموعها العصبية ، فدفعت خير الناس إلى التمسك بما يبطل الكمال ، ويقضي على التجرد .

وما نفدت سهام المطاعن بالخطيب إلا لشديد حبه للمذهب الذي أخذ به ، وهو الشافعي ، والعقيدة التي غلبت عليه ، وهي الأشعرية ،

ولكرهه للخارجين على طريق الصواب ، وهم عنده أهل الرأي والبدعة ، ولغضبه على من يتعرّض بسوء لمذهبه وعقيدته ، وهم الحنابلة .

ظهرت آثار ذلك الحب والكره والغضب في تصانيفه وأقواله ، فثار لها ثائر المخالفين ، فهبوا بقوة وحماسة يدفعون عنهم شرها أوّلاً ، ويضربون صاحبها ثانياً ضرباً موجعاً مدمياً ، لا شفقة فيه ولا رحمة .

تتبعات ابن الجوزي عليه

نصب نفسه لهذا الصراع أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي الحنبلي ، فقد ألف ثلاثة تصانيف في الرد على الخطيب وتتبع أقواله . أحدها : السهم المصيب في الردّ على الخطيب [1] ، ونجد منه منتخلات في كتابه المنتظم وفي كتب الردود الأخرى على الخطيب . والكتاب الثاني هو كتاب التحقيق في أحاديث التعليق [2] ، ومنه منتخلات في المنتظم أيضاً والكتاب الثالث هو كتاب الانتصار لشيخ السنة أبي عبد الله محمد بن بطة الحنبلي عما ذكره الخطيب البغدادي من التطفيف كعادته في حقّ الحنبلية بل والحنفية [3] . ولعله ألفه بعد المنتظم ،

(١) سمعه الملك المعظم بالبيت المقدس سنة ٦٢٢ ونقل عنه ( الرد على أبي بكر ، ١٧٨ )

(٢) ذكره في المنتظم ٨ : ٢٦٨ ومنه نسخة في دار الكتب الظاهرية

(٣) ذكر هذا الكتاب محمد بن محمد بن سليمان الرداني المغربي المالكي في كتاب صلة الخلف بموصول السلف ( نسخة دار الكتب البارزية رقم ٤٤٧٠ ) في مكانه من حروف المعجم .

فجمع ما قاله فيه ، وأضاف إليه جديداً . وقد تتبع ابن الجوزي في هذه الكتب مطاعن الخطيب على الحنابلة التي أوردها في تاريخ بغداد ، فردّ عليه بما وجده خاصماً لأقواله ؛ وذكر فيها ما قيل من سوء في الخطيب ، وعزّز ذلك بإظهار تعصبه لمذهبه بذكر الأحاديث الضعيفة ، يستشهد بها لتأييد نزعات ذلك المذهب . ولقد كان ابن الجوزي عنيفاً في خصامه ، قديراً في جداله ، متتبعاً لسقطات خصمه ، يرميه بالجهل وقلة الفهم .

تتبعات غيره

وتبع ابن الجوزي الملك المعظم في كتاب سماه الرد على أبي بكر الخطيب[1] ، يدفع فيه ما نقله في ترجمة أبي حنيفة من أقوال المحدّثين الطاعنة على هذا الإمام العظيم . وتلاه الأستاذ محمد زاهد الكوثري بكتاب آخر في المعنى نفسه ترجمه بـ « تأنيب الخطيب »[2] .

وما نورد هنا إلا خلاصة وجيزة عن مستنداتهم في الرد على

---

(١) طبع في مصر سنة ويخطئ بعضهم فيسميه السهم المصيب ( ذيل بروكلمن ١ : ٥٦٢ )

(٢) طبع في مصر ولعل السيوطي تعرض لما تعرضا إليه في كتابه المسمى « السهم المصيب في نحر الخطيب » : عقود الجواهر لجميل العظم بيروت ١٣٢٦ ، ص ٢٠٦ والكشف ٢ : ٣٨

الخطيب ، فلو قصدنا التطويل ، لطال الشرح ، وخرج بنا عن غاية كتابنا هذا .

احتجاجه بالموضوع

يعترض ابن الجوزي على أبي بكر لبعض ما ورد في « الجهر بالبسملة » و « القنوت » و « مسألة صوم الغيم » من أحاديث في تأييد أقوال الشافعي ، يدعي ابن الجوزي أن الخطيب « يعلم أنها ليست صحيحة[١] » ، ويدري أنها موضوعة ، ثم يحتج بها ، ولا يذكر عليها شيئاً[٢] ويقول « والعجب منه كيف يعارض بمثل هذه الأحاديث الأحاديث الصحاح[٣] » وقد صحّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من روى حديثاً يرى أنه كذب ، فهو أحد الكاذبين[٤] » ثم يلحق الخطيب في أهل البدع ، فيقول : « ولأهل البدع مألوف منه ، وقد بان لمن قبلنا[٥] »

والحق أنه لا يُستبعد أن يروي الخطيب أحاديث ضعيفة ، أو أن

---

(١) في الرد على أبي بكر ص ١٧٨
(٢) المنتظم ٨ : ٢٦٨
(٣) الرد ص ١٧٨
(٤) المنتظم ٨ : ٢٦٨
(٥) المصدر السابق

يدخل عليه حديث موضوع ، حين يقصد تثبيت رأيه أو الدفاع عن مذهبه ؛ فالنفس ميالة إلى تصديق ما يحابي هوى فيها ، وأقل ذلك إن الإنسان إن تجادل في أمر يعتقد به ، هوى بفأسه على ما يذكر في ضده ، وتعلل بواهي ما يؤيده ؛ ولو أعمل فأسه بالجهتين لكفى نفسه النقد والطعن ، ولكن ذلك على ما يظهر فوق طاقة البشر .

## قول ابن تيمية في استشهاد المحدثين بالموضوع والضعيف

هذا ابن تيمية يبين بمعرفته وصائب رأيه كيف شمل هذا الضعف أهل الحديث ، ممن يميلون إلى مذهب ، أو يتحزبون لطائفة قال[1] :

« وأبو نعيم يروي في الحلية في فضائل الصحابة وفي الزهد أحاديث غرائب ، يعلم أنها موضوعة ، وكذلك الخطيب وابن الجوزي وابن عساكر وابن ناصر وأمثالهم . والدارقطني صنف سننه ، يذكر فيها غرائب السنن ؛ وهو في الغالب يبين حال ما رواه ، وهو من أعلم الناس بذلك والبيهقي يعزو ما رواه إلى الصحيح في الغالب ، وهو من أقلهم استدلالاً بالموضوع ، لكن يروي في الجهة التي ينصرها من المراسيل والآثار ما يصلح للاعتضاد ، ولا يصلح للاعتماد ،

---

(١) تلخيص كتاب الاستغاثة المعروف بالرد على البكري ، مصر ١٣٤٦ ، ص ١٩

ويترك في الجهة التي يضعفها ما هو أقوى من ذلك الإسناد . وهم فيما يقولونه من أصدق الناس وأثبتهم » .

وعلى ذلك فالخطيب ليس شأنه في ذكر الأحاديث الواهية تأييداً لمذهبه شأن أهل البدع ، كما يدعي ابن الجوزي ، ولو كان كذلك لعدّ ابن الجوزي نفسه منهم ، وغيره معه كما يستخرج من قول ابن تيمية . ألا إن هذا الضعف عام يُنقص من قدر الخطيب ما ينقص من قدر غيره من أصحاب الحديث .

رواية الخطيب أخباراً ضعيفة في أبي حنيفة

إذا عرفنا ذلك ، هانَ عندنا نقد الخطيب في روايته أخباراً ضعيفة ، فيها طعن على خصومه ومخالفيه . وهو يفعل ذلك خاصةً في ترجمته لأبي حنيفة في تاريخ بغداد . وقد تتبع الملك المعظم أخباره عن هذا الإمام ، فضعفها في سندها ، وأكمل تتبعاته في ذلك الأستاذ محمد زاهد الكوثري ، فأظهر ضعف هذه الأخبار ، وشدة تحاملها على إمام زاهد ، يتفهم روح الشريعة ، فيردّ كل حديث روي في مخالفتها ، وينقض كل أثر خالف الرأي الصائب ، ولا يقرُّ إلا ما ثبت ثبوتاً لا مجال للشك فيه : اتخذ ذلك صراطاً يسير عليه ، ليهتدي إلى الحق من الشريعة ، ويبطل سخيف ما روي

من الأحكام ، يبرئ النبي صلى الله عليه وسلم من قولها ، لا يقصد في ذلك إلا خدمة الإسلام والمسلمين ، دون أن يحيد عن ذلك قيد شعرة . والذي يقرأ كتابيهما ، يخرج سيئ الظن في أبي بكر الخطيب ، بنسبه للتعرض لأئمة الدين ، والحط من شأن المتزهدين ، والنيل من كرامة المصلحين ، يسخط عليه ، ويغضب للاخلاص والصدق وحسن النية .

اعتذاره عن ذلك

ولكن مهلاً مهلاً ! وصبراً جميلاً ! إن الحق يتقاضانا إلى النظر فيما قال الخطيب ، حتى إذا رأيناه يبتكر ذلك ابتكاراً ، حكمنا عليه بما هو أهل له ، فلنستمع إلى ما يورده مقدمةً لكلامه في أبي حنيفة قال[1] :

وقد سقنا عن أيوب السختياني وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة وأبي بكر بن عياش وغيرهم من الأئمة أخباراً كثيرةً ، تتضمن تقريظ أبي حنيفة ، والمدح له والثناء عليه . والمحفوظ عند نقلة الحديث عن الأئمة المتقدمين ، وهؤلاء المذكورون منهم ، في أبي حنيفة خلاف ذلك ، وكلامهم فيه كثير لأمور شنيعة ،

(١) تاريخ بغداد ١٣ : ٣٦٩

حفظت عليه ، متعلق بعضها بأصول الديانات ، وبعضها بالفروع ، نحن ذاكروها بمشيئة الله ، ومعتذرون إلى من وقف عليها وكره سماعها بأن أبا حنيفة عندنا ، على جلالة قدره ، أسوة غيره من العلماء ، الذين دوّنا ذكرهم في هذا الكتاب . »

طعن المحدّثين على أبي حنيفة

ثم يتبع ذلك بذكر هذه الأخبار يروي معظمها عن مشايخ الحديث في عصره من أهل التقى والصلاح والعلم ، كالبرقاني وابن رزقويه وأبي نعيم الأصبهاني والعتيقي ، ممن لا يستطيع أن يكذب في نقله عنهم أو يزيد وينقص ؛ فتلامذتهم كثيرون يردون كذب الرواية عنهم ، وحاشاه أن يضع الأخبار ، وهو من عُرف بصدقه وحسن روايته ؛ والصحيح أن ما يرويه عن أئمة الحديث من سيّء الرأي في أبي حنيفة ، أو الطعن عليه شيء قالوا بعضه ، إن لم يقولوا كله . وهذا البخاري إمامهم ينقل في حقه قول سفيان فيه ، حينما نعي له قال : « الحمد لله كان ينقض الإسلام عروةً عروةً ؛ ما وُلد في الإسلام أشأم منه »[1] وهذا القول يفصح خير إفصاح عن سوء رأي المحدثين في الإمام أبي حنيفة . وهو رأي درجوا عليه ، ولقنه

---

(١) التاريخ الصغير ، مطبعة انوار احمدآباد ١٣٢٥ ، ص ١٧٤ وانظر ايضاً بعض ما رواه في الطعن عليه في ص ١٥٨

أكابرهم أصاغرهم . ويعلل لنا ابن عبد البر الأندلسي ( — ٤٦٣ ) ذلك فيقول[1] :

« كثير من أهل الحديث استجازوا الطعن على أبي حنيفة ، لردّه كثيراً من أخبار العدول ، لأنه كان يذهب في ذلك إلى عرضها على ما أجمع عليه من الأحاديث ومعاني القرآن ، فما شذّ عن ذلك ردّه وسماه شاذاً ، وكان مع ذلك يقول : الطاعات من الصلاة وغيرها لا تسمى إيماناً . وكل من قال من أهل السنة : الإيمان قول وعمل ، ينكرون قوله ويبدعونه بذلك . وكان مع ذلك محسوداً لفهمه وفطنته . »

الخطيب يجمع مطاعنهم

فالخطيب لا يبتدع الطعن على أبي حنيفة ابتداعاً ، بل يذكر ما لقن ، يثأر به للأحاديث التي ردّها أبو حنيفة ، ويشنع على رأيه الذي أخرجه — زعموا — عن جادة الصواب ، وجعله محطاً للطعن والنقد . على أن أحداً قبله لم يجسر على جمع كل ما قدح به أبو حنيفة .

(١) في حاشية تاريخ بغداد ١٣ : ٣٦٩ وقال في التمهيد ( مخطوطة الظاهرية حديث ٣٣٢ ، ٢٢٤ ) : لم يشتغل أهل الحديث من نقل مثالبه ورواية سقطاته بمثل ما اشتغلوا به من مثالب أبي حنيفة ، والعلة في ذلك ماذكرته لك لا غير ، وذلك ما وجدوا له من ترك السنن وردها برأيه أعني السنن المنقولة بأخبار العدول والاحاد الثقات .

ولعلّ بعضهم تورّع من ذلك ، أما هو فيستجيزه ويجرؤ عليه تمسكاً بمذهب أهل الحديث ، وتسقيطاً لأقوال معانديهم ، وحطاً من قدر أعدائهم . وكل ذلك يرمز إلى تحمسه لمذهبه وجرأته في خصومته ، فلا يحلم ولا يتروّى ، ولا يجلّ كل من أجلّ الناس . على أنه في ذلك حسن النية ، يعتقد أنه يدافع عن الحق وينحو نحوه .

أي تعصب في الاقتصاد بالمدح

هذا ما يقال فيما يرويه في أبي حنيفة ، أما موقفه من الحنابلة ، فينسب الناقدون إلى سوء تعصبه أقوالاً له في بعض مشايخهم ، يدّعون أن فيها تحاملاً لا يجيزه الحق ، ولا يرتضيه العدل ؛ فيقول ابن الجوزي إن الخطيب « رمز إلى ذمهم ، فصرح بقدر ما أمكنه[1] » من الطعن عليهم « وله دسائس في ذمهم عجيبة[2] » اسمع منها ما هو من قول الخطيب نفسه ، مما يرى فيه ابن الجوزي تعصباً . قال في وصف الإمام أحمد : هو سيد المحدثين[3] . وفي وصف الشافعي : هو تاج الفقهاء[4] . فلم يذكر أحمد بالفقه ، فرأى ابن الجوزي في ذلك

---

(١) المنتظم ٨ : ٢٦٧ — ٢٦٨ وعنه في الارشاد ٤ : ٢٥ — ٢٦

(٢) المصدران السابقان

(٣) الذي ذكره في تاريخ بغداد ٤ : ٤١٢ قوله : إمام المحدثين الناصر للدين والمناضل عن السنة والصابر في المحنة .

(٤) الذي ذكره في تاريخ بغداد ٢ : ٥٦ قوله : الإمام زين الفقهاء وتاج العلماء

دسيسة يحيكها الخطيب على صاحب المذهب المشهور . ولعمري أن القارىء يمرّ بهاتين الجملتين ، فلا يرى فيهما سوء ظنّ في الإمام أحمد ، بل يجد قائلهما أجاد وأصاب في وصف صاحب كتاب المسند بأنه إمام المحدثين ، وأظهر انتسابه إلى مذهب الشافعي وحسن إجلاله لا تعصبه له ، حين وصف صاحبه بأنه تاج الفقهاء . وأي دسيسة في المديح بحق يحب القائل أن يشهره ، وأي تعصب في السكوت عما لا يود التعرض له ، عقيدةً منه بأنه لا يوازيه في المكانة ما يجب أن يفرد بالذكر . ولو كان الأمر على خلاف ذلك ، لحقّ لمن يكبرون الشافعي أن يغضبوا لعدم وصف الخطيب له بالحديث ، وهو من يعتقدون أنه سيد في حلبته .

ألا إن ابن الجوزي وغيره لم يرووا من أقوال الخطيب نفسه ما ينسبه إلى سوء التعصب وذميم التحامل[1] ، إلا إذا عدّ الاقتصاد في المدح تعصباً ، وإغفال التوسع في ذكر المحامد تحاملاً .

---

(١) نعم روى له ابن الجوزي قدحه لأبي علي بن المذهب الحسن بن علي قال : إن سماعه لمسند أحمد كان صحيحاً إلا في أجزاء فانه ألحق اسمه فيها (تاريخ بغداد ٧ : ٣٩٠ ) فقال ابن الجوزي في الدفاع عنه : ومن أين له ( أي الخطيب ) أن ما كتب ( ابن المذهب ) لم يعارض به أصلاً فيه سماعه ( المنتظم ٨ : ١٥٥ و ٨:٢٦٨) والقول الفصل إن الخطيب وإن لم ينظر في كل وجوه الاحتمالات قبل قدحه ، يجد لتضعيفه لابن المذهب تأييداً في أقوال شجاع الذهلي والسلفي وما أخذ به الذهبي ( ميزان الاعتدال ١ : ٢٣٧ ) .

### رواياته في ذمّ بعض الحنابلة

أما عثورهم على روايات ينقلها الخطيب في ذمّ بعض الحنابلة ، فأمر لا شبهة فيه . هذه أولها وفيها سخرية بالإمام أحمد ابتدعها حسين الكرابيسي ، حيث قال : « إيش نعمل بهذا الصبي ( يريد أحمد ) إن قلنا لفظنا في القرآن مخلوق ، قال بدعة ، وإن قلنا غير مخلوق قال بدعة »[1] الخ . .

### رواياته في تضعيف بعض الحنابلة

أما غيرها من روايات الخطيب القادحة في حق بعض الحنابلة ، فقد عدّ ابن الجوزي أشدها في نظره فإذا هي تضعيف مهنأ بن يحيى من كبار أصحاب الإمام أحمد[2] ، وأبي الحسن التميمي عبد العزيز ابن الحارث ( — ٣٧١ )[3] ، وأبي عبد الله بن بطة عبد الله بن محمد ( — ٣٧٨ )[4] . وهي أقوال مروية في تضعيفهم ، عمن يرى ابن الجوزي عدم جواز قبول الرواية عنهم ، لأنه ذكر الطعن في

---

(١) المنتظم ٨ : ٢٦٦ — ٢٦٧ وعنه في الارشاد ٤ : ٢٥ — ٢٦ وأصلها في تاريخ بغداد ٨ : ٦٥

(٢) المنتظم ٨ : ٢٦٨ .

(٣) المنتظم ٧ : ١١٠ و ٨ : ٢٦٨

(٤) المنتظم ٧ : ١٩٤ و ٨ : ٢٦٨

حقهم ، وروى بعض هذا الطعن الخطيب نفسه ومعظمهم من المعتزلة أو الأشعرية . ثم يقول ابن الجوزي « هذا ينبئ عن عصبية أو قلة دين [١] » .

أسلوبه في الرواية

ولعمري إن ابن الجوزي مغالٍ فيما يراه ، لأن الخطيب إنما يروي ما أطلع عليه من أقوال المحدثين والعلماء ، حتى إذا ذكر رواياته ، لم يخلها من سيء ذكر له ، ومن حسن حُدّث به . وقد روى في حق من عددهم ابن الجوزي المحاسن إلى جانب المساوئ . ولو كان قليل الدين لأغفل محاسنهم ، واقتصر على مساوئهم . قال في مقدمته لتاريخ بغداد يصف لنا أسلوبه : هذا « ما انتهى إليّ من معرفة كناهم (أي كنى من ترجم لهم في تاريخه) وأنسابهم ، ومشهور مآثرهم وأحسابهم ، ومستحسن أخبارهم ، ومبلغ أعمارهم ، وتاريخ وفاتهم ، وبيان حالاتهم ، وما حفظ فيهم من الألفاظ عن أسلاف أئمتنا الحفاظ ، من ثناء ومدح ، وذم وقدح ، وقبول وطرح ، وتعديل وتجريح [٢] » .

أليس في ذلك اعتذار للمؤلف سابق عما قد يرد في الكتاب مما

(١) المنتظم ٨ : ٢٦٨

(٢) تاريخ بغداد ١ : ٢١٣

لا يستحسنه بعض الناس ، فهو قد أخذ نفسه بأن يذكر كل شيء مما يحفظه عن الأئمة الحفاظ . أمّا أن يكون روى عمن لا يستحسن ابن الجوزي التحدث عنه ، أو عمن ذكر هو نفسه رواية في الطعن عليه ، فذلك يشير إلى أنه لم يثبت عنده عدم جواز النقل عنه . ثم إن روايته للقدح لا توجب اعتقاده إياه وتثبيته له ؛ فهو لا يتقيد بما يرويه العلماء من المطاعن بعضهم على بعض . وإنما يتقيد برواية هذه المطاعن ليطلع عليها القارئ ، فيميز الخبيث من الطيب منها .

وذلك هو الأسلوب الذي أقره أصحاب الحديث ، ودرجوا عليه ، ولم يبتدع فيه الخطيب شيئاً اللهم إلا تسامحه في نقل الأقوال الشديدة .

مدحه للمتكلمين

وما نقوله في الدفاع عن الخطيب من حيث نقده في تحامله على أبي حنيفة والحنابلة يصح أن يقال ، حين نحاول أن ندفع عنه القول «بمدحه للمبتدعة وأصحاب الكلام (١)» بما ليس فيهم ، فهو بنفسه لم ينسب إلى الأشاعرة ، وهم المقصودون بالمديح ، شيئاً ردّه خصومهم . إنما روى من الأقوال ما يمتدحون به ، فقد رأيناه يذكر الأشعري

(١) عن ابن الجوزي في الرد على أبي بكر للمعظم ١٧٨

فلا يبالغ بوصفه ، بل لعله مقتصد بالوصف أكثر مما هو مسرف[١] .

ولم يمنع هذا بعضهم من سوء الظن بالخطيب لدرجة البغض . روى محمد بن طاهر المقدسي عن إسماعيل بن أبي الفضل القومسي أنه قال « ثلاثة من الحفاظ لا أحبهم لشدة تعصبهم وقلة إنصافهم : الحاكم أبو عبد الله وأبونعيم الأصفهاني وأبو بكر الخطيب »[٢] . ويفسر ابن الجوزي هذا القول فيضيف : « لقد صدق إسماعيل ... وقال الحق فإن الحاكم كان متشيعاً ظاهر التشيع ، والآخران كانا يتعصبان للمتكلمين والأشاعرة ، وما يليق هذا بأصحاب الحديث ، لأن الحديث جاء في ذم الكلام »[٣] .

أما نحن فنعجب من هذا القول ، لأنا لم نجد في أقوال الخطيب مانسب إليه . وأكثر ما ذكره لنا ابن الجوزي عن تعصبه للمتكلمين قوله « إذا ذكر المتكلمين من المبتدعة عظم القوم ، وذكر لهم ما يقارب الاستحالة ، فإنه ذكر عن ابن اللبان أنه قال : حفظت القرآن ولي خمس سنين[٤] . » ألا إنه في هذا وغيره يروي المديح رواية فلا يخرج عما اختطه لنفسه في ذكر ما يحفظ ويروي .

---

(١) انظر أعلاه ص ٢٢٤

(٢) المنتظم ٨ : ٢٦٩ وعنه في الارشاد ٤ : ٢٦

(٣) النص السابق وعنه في تفصيل أوسع في الرد على أبي بكر ص ١٧٩

(٤) المنتظم ٧ : ١١٠

رأي أهل الحديث يعرف مما يروونه

ويبدو واضحاً مما تقدم أن أهل الحديث من المؤرخين وغير المؤرخين ، يميلون إلى طائفة دون أن يصرحوا بانتمائهم إليها ، ويظهر ميلهم بكثرة روايتهم . فما يروونه من القول هو بالإجمال رأيهم وما ارتضوه ، وكذلك عدت روايات الخطيب في الجرح والتعديل رأيه الخاص فاتهموه بها . قال عبد الوهاب : إن شيخاً صالحاً من الحنابلة ، اسمه أبو بكر بن الفقير محمد بن أحمد ( — ٤٩٥ ) « كان يخرب قبر أبي بكر الخطيب ، ويقول : كان كثير التحامل على أصحابنا ، يعني الحنابلة ، إلى أن رأيته يوماً وأخذت الفأس من يده ، وقلت : هذا كان رجلاً حافظاً إماماً كبير الشأن متحرزاً ثقةً ، فتاب ولم يعد »(١) . ولعلّ رجلاً كهذا معذور لجهله ، ولكن ما قولك بابن تغري بردي يروي ما يلي ، ثم يعلق عليه قال : قال أحمد بن عبد الله النيسابوري : كنا عند أبي محمد بن أبي حاتم الرازي عبد الرحمن بن محمد ، وهو يقرأ علينا الجرح والتعديل الذي صنفه ، فدخل يوسف بن الحسين الرازي ، فقال أما استحييت من الله تعالى ، تذكر أقواماً قد حطوا رواحلهم في الجنة ... فبكى عبد الرحمن . قلت ( أي ابن تغري بردي ) : فلو رأى الشيخ يوسف كلام الخطيب

(١) المنتظم ٩ : ١٣٣

في تاريخ بغداد ، وهو يقع في حق العلماء الأعلام الزهاد ، بكلام يخرجهم من الإسلام ، بذلك اللسان الخبيث ، فما كان يفعل به[1] . »

ويدل هذا على أن ابن تغري بردي ينسب إلى الخطيب الأقوال التي يرويها ، ويصفه بلسان لم يعتمد عليه مع أنه إنما يروي كلام غيره ، قبيحاً كان هذا الكلام أم حسناً .

هل الجرح والتعديل وقوع في الناس

وقد يشعر كلام يوسف الرازي وابن تغري بردي وابن الجوزي أن المؤرخ الذي يذكر معايب الناس نقلاً أو من عنده يقوم من الأمر بالقبيح ، ويستحق النقد . وهذا قول من يؤثر السكوت على الكلام ، والسكون على الحركة ، والوقوف على العمل . انظر كيف يتغير موقف هؤلاء ، حين تتغير نظرتهم . فهذا ابن الجوزي نفسه يدافع عن أحد الحنابلة وهو محمد بن ناصر البغدادي فيقول « ذكره أبو سعد السمعاني ، فقال كان يحب أن يقع في الناس ، قال المصنف ( أي ابن الجوزي ) : وهذا قبيح من أبي سعد ؛ فإن صاحب الحديث ما زال يجرح ويعدل ، فإذا قال قائل إن هذا وقوع في الناس ،

---

(١) النجوم الزاهرة ٣ : ٢٦٥ وذكر ابن تغري بردي قدحاً آخر في الخطيب فادعى أنه يضع الاسناد ليقع في الأئمة ، انظر مورد اللطافة له (ظاهرية تاريخ ٣٠ ) ١٦٥

دلَّ على أنه ليس بمحدث، ولا يعرف الجرح من الغيبة[1]». فليقابل كلام ابن الجوزي هذا بما ذكره هو أو غيره عن الخطيب، وليضف إليه قول الخطيب نفسه حيث يقول: «ليس الأمر على ما ذُهب إليه... من أن إبانة العلماء لأحوال الرواة غيبة؛ بل هي نعمة، ولهم في إظهارها أعظم المثوبة، لكونها مما يجب عليهم كشفه، ولا يسعهم إخفاؤه وستره[2]».

ولعل فيما ذكرنا بياناً لأمر الخطيب فيما عُزي إليه، فهو يرى أن من المثوبة إظهار حال الرواة فيما نسب إليهم، ليعرف حالهم على الضبط. ولذلك كان ينقل كل ما قيل عنهم مما رواه.

تفسير الحملة عليه

على أن هذا القول بعيد عن تفسير شدة الحملة التي مني بها، فما شأنها؟ وهل يخترعها الناقدون نكايةً وتحاملاً.

إن الحق غير ذلك، فلئن كان الخطيب لا يتعمد التحامل على أحد، ولا يقول إلا ما يعتقد أنه مصيب فيه، لئن كان ذلك حقاً، فمن الحق أيضاً القول أنه بصفته أشعرياً كان يكثر من الرواية عن الأشاعرة خصوم الحنابلة، وهم كثيرون. واتفق أن مقرّ الحنابلة

---

(١) المنتظم ١٠ : ١٦٣ وعنه في ذيل ابن رجب ظاهرية تاريخ ٦١، ١٩٢

(٢) شرف أصحاب الحديث ٥٤

كان يبغداد ، جعلوها داراً لهم ، واتفق أن الخطيب أول من جمع تاريخ بغداد ، فكان ظهور تاريخه يوماً أسود على الحنابلة ، فهو قد جمع مساوئ ما قيل فيهم وما نقل عنهم من سخف ومغالاة[1] إن صدقاً وإن كذباً ، فكان أن عدوه عدواً لهم كبيراً ، وظنوه يتعمد الكيد لهم والطعن عليهم .

أما أنه فعل ذلك كيداً ونيلاً ، فأخلاقه وطيبة نفسه مانع له من ذلك ، إنما روى ما روى عن عقيدة بنصرة الحق ، واتباعاً لنهج اختطه لنفسه . واسمع الآن نصيحته لأبي الفرج غيث بن علي الصوري تزدد يقيناً بما ادعى ، قال : « احذر نفسك التي هي أعدى أعدائك أن تتابعها على هواك ، فذلك أعضل دائك ، واستشعر الخوف من الله بخلافها ، وكرر على قلبك ذكر نعوتها وأوصافها ، فإنها الأمارة بالسوء والفحشاء ، والموردة من أطاعها موارد العطب والبلاء . واعمدْ في جميع أمورك إلى تحري الصدق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، وقد ضمن الله تعالى لمن خالف هواه أن يجعل دار الخلد قراره ومأواه[2] . »

---

(١) ثار بشيء من ذلك ابن تيمية فنسب الخطيب إلى الكذب : انظر مجموعة الرسائل الكبرى ١ : ٤١٠

(٢) في تاريخ دمشق ٢ : ١٩٥

أثر ميوله في صفة علمه

وخلاصة القول في أثر ميول الخطيب في صفة علمه أنه كان رزيناً في علمه أكثر ما يمكنه أن يكونه ، فلم تنطبع أقواله الخاصة بأثر عاطفته ونزعاته ، بل كان يزنها بأعدل ميزان ، فلا يصف الناس إلا بما يستحقونه ، بل قد يصف من يحبهم منهم دون ما يستحقون . على أنه كان يتأثر بتلك الميول حين يروي أقوال غيره في المدح أو الطعن ، فيقبل منها شيئاً مما لا يصح أن يتخذ حكماً عادلاً أو خبراً مقبولاً ، يقبله خالصَ النية ، حسن الظن ، غيرَ متعمدٍ لنيلٍ أو كيد ، بل حريصاً على إظهار الحق الذي يعتقده ، والذي نصب نفسه للدفاع عنه .

وبعد فأيُّ طعن وأي ضعف يحدث في علم الخطيب من جراء هذه الروايات ؟ أجاب أعداؤه عن ذلك جواباً قاسياً ؛ فقال ابن الجوزي : « ومن تبالغ به العصبية إلى ما قد ذكرنا من تغطية الحق والتلبيس على الخلق ، لا ينبغي أن نقبل جرحه وتعديله ، لأن فعله وقوله ينبئ عن قلة دين[1] » .

قبل الحكم في ادعاء ابن الجوزي ، يجدر بنا أن نستمع إلى أقوال العلماء والمؤرخين والباحثين في حق الخطيب ، ليتبين لنا رأيهم فيه ، فنقابله بهذا الحكم ، فيظهر الصواب ويعلو الحق .

(١) في الرد على أبي بكر ص ١٧٩

# مكانة الخطيب عند الناقدين

## الثناء عليه

إذا تركنا خصوم الخطيب وشأنهم في التتبع لأقواله ورواياته ، والحط من قدر علمه وتحرياته ، وصدقه وتحرزه ، واستعرضنا أقوال المحققين ممن لم تأخذهم حمية في نصرة مذهب ، أو حماسة في الدفاع عن رأي ، وجدنا الكلمة متفقة في الثناء عليه ، والإعلاء من قدره ؛ ولم نلقَ أي تحفظ في المديح أو تحرز في الإجلال .

## توثيقه

ها هم أولاء يدفعون عنه كل انتقاد في صفة علمه ، فيقول ابن الأكفاني ( ـ ٥٢٤ ) : « كان ثقةً ضابطاً خلوصاً متقناً متيقظاً متحرزاً [1] » . ويتبعه السمعاني فيقول : « كان ثقةً صدوقاً متحرياً حجةً [2] » . ويقول عبد العزيز الكتاني قبلهما : « كان ثقةً حافظاً متقناً متيقظاً متحرزاً [3] » . وكأنهم يضربون بما قيل في تعصبه لمذهبه وتحامله على الناس عُرض الحائط .

---

(١) في ابن حاتم ، الأربعين ٨٧ أ

(٢) في الارشاد ٤ : ٣٠

(٣) في تاريخ دمشق ١ : ٤٠١ والتبيين ٢٧١ وتسمية ماورد به للمالكي ، ١٧

إجلال علمه

أما رأيهم في درجة علمه ، فجميل غاية الجمال. قال ابن ماكولا : « كان أبو بكر آخر الأعيان ممن شاهدناه معرفة وحفظاً وإتقاناً وضبطاً لحديث رسول الله [1] » وقال ابن خلكان : « كان من الحفاظ المتقنين والعلماء المتبحرين ... وفضله أشهر من أن يوصف [2]. »

تلقيبه بالحافظ

وقد أجمع الناس على حفظه وتبريزه ، على ما قال الذهبي [3] ونعته أهل عصره بالحافظ ، وجرى الأمر على ما أقروه ، والحافظ لقب عزيز يقتضي علوّ الشأن ، ولو أنهم لم يتفقوا على تحديده ، فقال بعضهم : « هو من حفظ أربعمائة ألف حديث ، وقال آخرون : هو من حفظ عشرة آلاف حديث ، وبه أخذ أحمد بن حنبل وجماعة كثيرون من المحدثين . وقال بعضهم : متى زاد على ألف حديث فهو حافظ . واختار بعضهم حفظ جملة عالية [4] دون تحديد .

---

(١) تاريخ دمشق ١ : ٣٩٩ ، التبين ٢٦٨ ، شهبة ١٣٧١ ، تذكرة ٣ : ٣١٤ ، سبكي ٣ : ١٣ ، شذرات ٣ : ٣١٢

(٢) وفيات ١ : ٢٧

(٣) في تذكرة الحفاظ وتبصرة الايقاظ لابن عبد الهادي ظاهرية عام ٣٥٤٣ ، ٢٤

(٤) انظر ما يقول في ذلك ابن عبد الهادي المصدر السابق ، ١٢ والذي يؤخذ من تراجم الألفاظ المجمع على حفظهم أن الحافظ من تقدم في علم —

واختلافهم هـذا جعل بعض المحدثين حفاظاً عند أناس ، وغير حفاظ عنـد آخرين ، إلا الخطيب ؛ فلم يخرج أحد على تلقيبه بالحافظ ، اللهم إلا هو نفسه ، فقد تقدم أنه لتواضعه كان يرى أن « الحفظ انتهى إلى الدارقطني[1] » ، ووقف عنده .

## إمام عصره

على أن نعته بهذا اللقب قليل بجانب ما أفاض عليه العلماء من الأوصاف ؛ فهو عند السمعاني علامة العصر[2] ، وقال ابن النجار : « انتهى إليـه علم الحديث وحفظه في وقته[3] » . وتابعه في ذلك ابن شافع فقال « انتهى إليه الحفظ والإتقان والقيام بعلوم الحديث[4] » . وكرر السمعاني إعجابه به وتحمسه له ، فقال : « كان إمام عصره بلا مدافعة ، وحافظ وقته بلا منازعة[5] » .

---

ــ الحديث حتى أصبح عمدةً فيه وكثر جمعه له وروايته لمختلف طرقه ولشتى كتبه المشهورة وأشار الناس إليه بالاتقان والمعرفة فهو بمختصر العبارة المتفرد بالحديث العمدة فيه .

(١) شهبة ١٣٩٢ وتذكرة ٣ : ٣١٧

(٢) في الارشاد ٤ : ٣٠

(٣) في الوفيات ١ : ٢٧

(٤) في شهبة ١٣٨٢ تذكرة ٣ : ٣١٥ وابن نقطة ، ١٥

(٥) الأنساب ٢٠٣٢

وانطلق المؤرخون من بعدهم ينقلون أقوالهم ، وقد يصبغونها صبغةً جديدةً ، فيقول أبو الفداء كان « إمام الدنيا في زمانه[١] » .
وقد يغرقون في المديح ، ويسرفون في الإجلال ، فيقول السبكي دون تقيد : « ما طاف سور بغداد على نظيره يروي عن أفصح من نطق بالضاد ، ولا أحاطت جوانبها بمثله ، وإن طفح ماء دجلتها وروى عن كل صاد[٢] » .

### تفضيله على عظماء عصره

ونرى أهل عصره ، وقد عرفوا علوّ كعبه ، يزنونه بغيره من عظماء المحدثين المعاصرين ، فلا يجدون من يفضل عليه ، فيسأل ابن ما كولا أبا عبد الله الصوري عن الخطيب وعن أبي نصر السجزي أيهما أحفظ ، فيفضل الخطيب تفضيلاً مبيناً[٣] . ويسأل السلفي أبا الغنائم النرسي عنه وعن ابن ما كولا ، فيقول « ومن يسوي بينهما : الخطيب قد صنف وخرّج على الحفاظ ، وانتهت إليه السنن ، واحتيج إليه ، ولعمري إن ابن ما كولا كان فاضلاً ، إلا أنه شاب[٤] » .

---

(١) تاريخ أبي الفداء ٢ : ١٨٧

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٣ : ١٣

(٣) شبية ١٣٧ ٢ وتذكرة ٣ : ٣١٤

(٤) الأربعين لابن حاتم ٢٩٤

لم يروا مثله

ويكثر القائلون بأنهم لم يروا من يعادل الخطيب ، فيقول أبو علي البرداني « أما حافظ وقته أبو بكر الخطيب ، فما رأيت مثله ، ولا أظنه رأى مثل نفسه [(١)] » ويقول السلفي : « سألت أبا غالب شجاعاً الذهلي عن الخطيب ، فقال : إمام مصنف حافظ لم ندرك مثله [(٢)] » . ويقول أبو العينان الرواسي « كان الخطيب إمام هذه الصنعة ما رأيت مثله [(٣)] » ويقول الحميدي إنه ما رأى أحفظ منه [(٤)] .

دارقطني زمانه

ثم يوازنونه بمن قبله من علماء بغداد ، فيضعونه بدرجة الدارقطني ، فيقول ابن ما كولا : « لم يكن للبغداديين بعد أبي الحسن الدارقطني من يجري مجراه ، ولا قام بعده بهذا الشأن سواه [(٥)] » . ويقول المؤتمن الساجي : « ما أخرجت بغداد بعد الدارقطني أحفظ من أبي بكر

---

(١) تاريخ دمشق ١ : ٣٩٩—٤٠٠ ، شهبة ١٣٩[٢] سبكي ٣ : ١٤ ، تذكرة ٣ : ٣١٧

(٢) شهبة ١٣٩[٢] ، تذكرة ٣ : ٣١٧

(٣) شهبة ١٣٨[١] ، سبكي ٣ : ١٣

(٤) فهرس الفهارس لعبد الحي الكتاني ، المطبعة الجديدة ١٣٤٦ ، ٢٣٨ عن السخاوي .

(٥) تاريخ دمشق ١ : ٣٩٩ ، التبيين ٢٦٨ ، شهبة ١٣٧[٢] ، تذكرة ٣ : ٣١٤ ، سبكي ٣ : ١٣ ، شذرات ٣ : ٣١٢

الخطيب[١] » . ويقول أبو إسحاق الشيرازي مرةً : « أبو بكر الخطيب يشبه بالدارقطني ونظرائه في معرفة الحديث وحفظه[٢] » ، ويقول مرةً أخرى يشير إلى الخطيب — وهو حاضر — : « هو ذا دارقطني عصرنا[٣] » .

هو من طبقة الكبار

وإذا أرادوا أن يوازنوه بمن مضى من أئمة الحديث ، أدرجوه في طَبقة الكبار ، منهم الذين وضعوا العلم ، ونقدوا الرجال ، فيقول السمعاني عنه إنه في درجة القدماء من الحفاظ ، والأئمة الكبار ، كيحيى بن معين وعلي بن المديني وأحمد بن أبي خيثمة وطبقتهم[٤] .

خُتم به الحديث

وهم لا يرون بعده من يوازنه ويناظره . فيقول ابن عساكر : « إنه خُتم به ديوان المحدثين »[٥] ، ويقول السمعاني : « انتهى

(١) تاريخ دمشق ١ : ٣٩٩ ابن حاتم ٦٨٢ ، إرشاد ٤ : ١٨ ، شهبة ١٣٧٢ تذكرة ٣ : ٣١٤ ، سبكي ٣ : ١٣ و ٣ : ١٤

(٢) تاريخ دمشق ١ : ٤٠٠ ، حاتم ٨٦٢ ، شهبة ١٣٧٢ ، تذكرة ٣ : ٣١٤ سبكي ٣ : ١٣

(٣) شهبة ١٣٩٢ ، سبكي ٣ : ١٤

(٤) إرشاد ٤ : ٣٠

(٥) تاريخ دمشق ١ : ٣٩٨ وإرشاد ٤ : ١٥

إليه معرفة علم الحديث وحفظه ، وخُتم بـه الحفاظ[1] » . ويقول أبو الحسن الهمذاني : « ومات علم الحديث بوفاته[2] » .

وبالجملة فقد كالوا له المديح كيلاً غادقاً ، فذكروا صدقه ومعرفته ، وفضلوه على كبار عصره ، وعدوه إمام الدنيا ، ومـا رأوْا مثله ، ثم وضعوه في درجة الدارقطني وكبار الأئمة ، وجعلوه آخر الحفاظ المجيدين .

ولعلّ الجملة التي تلخص أقوالهم وتشرحها رأي الذهبي ، حيث يقول : « خُتم به إتقان هذا الشأن[3] » أي شأن الحديث . فهو قد أخرج منه أتقن ما أخرج ، وعرف منه أتقن ما عُرف . و « اكتسى به هذا الشأن غضارةً وبهجةً ونضارةً[4] » .

---

(١) إرشاد ٤ : ٣٠ وانظر شهبة ١٣٨¹ وتذكرة ٣ : ٣١٤ ، سبكي ٣ : ١٣ شذرات ٣ : ٣١٢

(٢) شهبة ١٣٩² ، تذكرة ٣ : ٣٠٧

(٣) شهبة ١٣٦² ، ومثله قول ابن شافع من أنه « انتهى إليـــه الحفظ والاتقان » في شهبة ١٣٨² ، تذكرة ٣ : ٣١٥

(٤) عن السمعاني في إرشاد ٤ : ٣٠ . ويجمع كل ما قيل في مدح الخطيب ويزيد عليه ابن الأثير فيقول عنه : « إمام وقته وفريد عصره وواحد دهره في علم الحديث ومعرفة الرجال والتواريخ والجرح والتعديل والفقه والمعرفة والدين والورع والزهد والعبادة ( جامع الأصول ، ظاهرية حديث ٢٠١ ، ٢٥٠² ) .

حقه من المديح

وبعدُ فإن كان الخطيب أحد من خدموا الحديث وعلومه ، فقد استطاع أن يرفع من شأنه إلى الإتقان ، وبذلك استحق أن يعترف بقدره ومكانته ، وألا يُنسى نصيبه من المديح والثناء . وكان ذلك ، فدلّ على أنه أخلص للعلم إخلاصاً لا شك فيه ، مما يغتفر له سوء ما وصم به وأخذ عليه ، وهو قليل إلى كثير غزير يخالفه .



## خاتمة المطاف

تقدّم في أول الكتاب أن العصر الذي عاش فيه أبو بكر الخطيب شهد صراع السياسة والعلم والمذاهب والنحل في سبيل توجيه الإسلام وجهته الأخيرة . وكان كلٌّ يدفع بالإسلام إلى حيث يستقرُّ قراره . وأرى أبا بكر قد أدرك هذا الأمر ، وشعر بأن تعدد الفروق بين المسلمين ، وكثرة التشتت بينهم ، وتكاثر الشعب ، أفضت إلى حدها الأقصى ، وأنها آيلة إلى التوقف ، بل إلى التحجر والتبلوُر ؛ أدرك هذا فوجد الواجب يقضي بوضع الصيغ الأخيرة لعلم الحديث وما يلحق به من العلوم ، ويحض على تثبيت مذهب أهل الحديث ، على خير مثال وُضع لهم .

ولئن كنا لا نجد لهذا الرأي مستنداً تاريخياً في أقوال الباحثين ، فآثار الخطيب تدفع إليه ، وتقوّي أمره . فهو قد أفرغ جهده في وضع الأصول الأخيرة للعلم الذي كان يحمله ، أعني الحديث وتاريخه ، بأسلوب يدفع إلى هذا العلم راية العلوم لتخفق بين يديه ، ويجعله يستوي على عرش الحكم فيها .

أما رأيته أولاً يدوّن ما تشتت من أخبار رجال بغداد ، عاصمة

الإسلام ، ومكان التقاء نزعاته ، في تاريخ لها ، كتب فيه أوسع الصفحات من أخبار الإسلام وتراجم عظمائه ، على نهج يوافق ميوله التي دفع نفسه إليها ، بعد التتبع وإعمال الرأي وإنفاذ الفكر ، أعني مذهب الأشعري موفقاً مع مذهب أهل الحديث ، كتبها يلوم هذا ويمدح سواه ، يعدّل ذاك ويجرح غيره ، يدعو إلى خير من يذكر إحسانه ، ويدفع عن شرّ من يذكر مساوئه . تشعُّ نفسه ، بما يدافع عنه أو يحض عليه ، خلال ما يورد من الأخبار ، وإن كان لا يذكر من عنده وبقوله لوماً ولا مديحاً .

أوَما رأيته ثانياً يضع كتباً في جمع شتات الأسماء والنسب ، وإظهار مختلفها ، والإشارة إلى ملتبسها ؛ فيأتي في ذلك ، أو يحاول أن يأتي ، على الاضطراب الذي تناول أسانيد الحديث وعلم الرجال .

أوَلم تره ثالثاً يضع أصول النقل والرواية في علم الحديث ، ويرفع تناقض الآراء في هذا العلم ، ويحرره بقواعده الأخيرة .

أما رأيته ثُمَّ يحاول أن يبدد الشك الذي سرى إلى بعض فروع المذهب الذي انتمى إليه ، وهو الشافعي ، بأحاديث تؤيد ذلك المذهب بصحتها وثبوتها وكثرتها .

ألا إن خلاصة أمره وسعيه واضحة في السبيل الذي ذكرناه ، فهو كان يعمل على تقوية أصحابه في آرائهم وأعمالهم ، كما كان يعمل على لمّ تشعيث الحديث بدفع السوء عنه ، وبوضع أصول روايته .

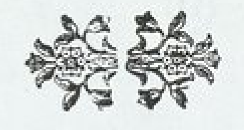
وحريٌّ بنا إذن أن نقول : إن الخطيب قام حقَّ القيام بقسط أهل الحديث والتاريخ في تثبيت مذهب الأشاعرة والشافعية .

وبعدُ ، فما هي الصفات التي امتاز بها أبو بكر ، فقوي على توطيد الأثر وتخليد الذكر ؟ إنها ترجع في نظري إلى نواحٍ ثلاث : نفسية وعقلية وعلمية . فقد كان في نفسه حبُّ العلم والإخلاص له ، نذرَ حياته على خدمته ، فلم يحنث بالنذر ، لم يلتمس من ذلك جاهاً أو مالاً ، بل قصد العلم نفسه ولنفسه . ثم كان في عقله نيراً ، واضح الذهن ، ميالاً إلى متوسط الأمر ، يحسن الانتخاب ، ولا يحيد عن المرمى ، ينتسب إلى من يتخذون الاعتدال في الرأي مذهباً ، ويتجنب من يتحاشون الفكر ، ولا يعملون العقل . أمّا في علومه فإن جمعه بين الفقه والحديث ، قوّى استنباطه ، ووثّق علمه ، وأبعدَ في مدى نظره .

من هذه النواحي الثلاث كان عماد نجاحه . ولا ريب أنها أفادت من أمرٍ كان سرّها ودليلها ، ألا وهو الاتزان ؛ فقد كان الرجل

على حدٍ كبيرٍ من التثبت والاعتدال والاتئاد ، لا يتهوّر ولا يبالغ ، اللهم إلا عن قصدٍ قصده . كان مالكاً قياد نفسه ، عارفاً قدرها ، مستفيداً من مزاياها ، يسيِّرها فيما يراه نافعاً لها .

وهل يهمك بعد ذلك أن يكون عبقرياً ، نادرةً ، فريداً . أليس في أثره وقوة نفسه وحسن نظره ما قد يفوق آثار العباقرة وأعمالهم وآرائهم ، إنْ لم يحسنوا التصرف ، وقليلاً ما يحسنون .



# مصادر الكتاب[1]

## على الحروف

« الأربعين المرتبة على طبقات الأربعين » لابن أبي حاتم المقدسي — مخطوطة الظاهرية ، حديث ١٦٨

إرشاد الأريب في معرفة الأديب لياقوت — مطبوعات دار المأمون .

الاستدراك لابن نقطة الحنبلي — مخطوطة الظاهرية ، حديث ٤٢٣

الأسنوي — انظر طبقات الشافعية .

الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر — مصر ، مطبعة السعادة سنة ١٣٢٣

الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للسخاوي ـ دمشق مطبعة الترقي ١٣٤٩

اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي — مخطوطة الظاهرية ، أدب ٢٥٧

الأنساب للسمعاني — الجزء العشرون من مجموعة جيب ، سنة ١٩١٢

بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد — دار الكتب العربية الكبرى سنة ١٣١٥

البداية والنهاية لابن كثير ـ مصر ، مطبعة السعادة والسلفية ، سنة ١٣٤٨

بروكلمن : تاريخ الآداب العربية باللغة الألمانية — الأصل بفيمار ١٨٩٨ وما بعدها ، والذيل بليدن ١٩٣٧ وما بعدها .

بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي — مصر ، مطبعة السعادة سنة ١٣٢٦

تاريخ أبي الفداء — انظر المختصر في أخبار البشر .

تاريخ الاسلام للذهبي — مخطوطة أحمدية حلب ، ١٢٢٠

---

(١) أغفلنا في هذا التعداد بعض ما لم تكثر الاستفادة منه .

تاريخ بغداد للخطيب البغدادي — مصر ، مكتبة الخانجي سنة ١٣٤٩ هـ و ١٩٣١ م وما بعدها .

تاريخ دمشق لابن عساكر — تهذيب عبد القادر بدران .

تاريخ دمشق لابن عساكر — مخطوطة الظاهرية تاريخ ١ — ٢

التاريخ الصغير للبخاري — مطبعة أنوار أحمد أباد ١٣٢٥

تأنيب الخطيب — لمحمد زاهد الكوثري .

تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الامام أبي الحسن الأشعري لابن عساكر — دمشق ، مطبعة التوفيق ، سنة ١٣٤٧

تدريب الراوي شرح تقريب النواوي للسيوطي — مصر ، المطبعة الخيرية سنة ١٣٠٧

تذكرة الحفاظ للذهبي — حيدر أباد .

تذكرة الحفاظ وتبصرة الايقاظ لابن عبد الهادي — مخطوطة الظاهرية ، رقم عام ٤٥٤٣

تسمية ماورد به الخطيب دمشق من روايته من الأجزاء المسموعة والكبار المصنفة وما جرى مجراها سوى الفوائد والأمالي والمنثور — لمحمد بن أحمد ابن محمد المالكي الأندلسي — مخطوطة الظاهرية مجموع ١٨ (١٢٦)

التطفيل وحكايات الطفيليين للخطيب البغدادي — طبعة حسام الدين القدسي — دمشق ، مطبعة التوفيق ، سنة ١٣٤٦

تلخيص كتاب الاستغاثة المعروف بالرد على البكري لابن تيمية — مصر ، سنة ١٣٤٦

تهذيب الأسماء واللغات للنووي — مصر ، إدارة الطباعة المنيرية

الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع — مخطوطة الظاهرية : مجموع ٥٥ (١٤٨)

جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير — مخطوطة الظاهرية ، حديث ٢٠١

ابن الجوزي — انظر المنتظم .

ابن حاتم — انظر الأربعين .

حجي خليفة — انظر كشف الظنون .

ابن خير — انظر فهرسة ما رواه أبو بكر بن خير .

ذكر كبار الحفاظ لابن الجوزي — نسخة الظاهرية ، رقم مجموع ١٠٠ ( ١٣٥ )

ذهبي — انظر تذكرة الحفاظ .

ذيل ابن رجب على طبقات الحنابلة للفرا — مخطوطة الظاهرية ، تاريخ ٦٠

ذيل تاريخ بغداد لابن النجار — مخطوطة الظاهرية ، تاريخ ٤٢

ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي — نشر امدورس ، بيروت ، مطبعة اليسوعيين ١٩٠٨

الرد على أبي بكر الخطيب للملك المعظم — مكتبة الخانجي .

الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة لمحمد بن جعفر الكتاني — بيروت ١٣٣٢

روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات لمحمد باقر الموسوي — طبع حجر ١٣٠٧

سبكي — انظر طبقات الشافعية .

سمعاني — انظر الأنساب .

سيرة ابن هشام — مصر ١٣٤٦

شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي — مصر ، مكتبة القدسي ١٣٥٠

شرف أصحاب الحديث للخطيب — مخطوطة الظاهرية مجموع ١١٧

شهبة — انظر مناقب الشافعي .

صبح الأعشى للقلقشندي — طبعة دار الكتب الخديوية ، مصر ، المطبعة الأميرية ١٣٣١ وما بعدها .

صلة الخلف بموصول السلف — مخطوطة دار الكتب الوطنية بباريس ٤٤٧٠

صورة إجازة ابن عربي للملك المظفر ابن العادل — مخطوطة الظاهرية رقم عام ٤٦٧٩

طبقات الشافعية للأسنوي — مخطوطة الظاهرية تاريخ ٤٦

طبقات الشافعية الكبرى للسبكي — مصر ، المطبعة الحسينية ، ١٣٢٤

عساكر — انظر تاريخ دمشق .

عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان — مخطوطة دار الكتب المصرية تاريخ ٧١ م ، القسم الثاني من الجزء الخامس عشر .

عقود الجوهر لجميل العظم — بيروت ١٣٢٦

غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري — باعتناء برجشتراسر — مصر ، مطبعة السعادة ١٩٣٣

فهرس الفهارس لعبد الحي الكتاني — المطبعة الجديدة ١٣٤٦

الفهرست لابن النديم — طبعة فلوغيل .

فهرسة مارواه عن شيوخه أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموي الاشبيلي — سرقسطه ، مطبع قومش ١٨٩٣

ابن القلانسي — انظر ذيل تاريخ دمشق .

ابن كثير — انظر البداية والنهاية .

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحجي خليفة — درسعادت ، سنة ١٣١٠

الكفاية للخطيب — مخطوطة الظاهرية حديث ٣٩٣
الكمال لعبد الغني المقدسي — مخطوطة الظاهرية حديث ٣٦٦ — ٣٦٧
كنز الفوائد لأبي الفتح محمد بن علي الكراجكي — طبع حجر .
لسان الميزان لابن حجر العسقلاني — حيدر آباد ، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية ، سنة ١٣٢٩ وما بعدها .
مالكي — انظر تسمية ما ورد به الخطيب دمشق .
مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية — مصر ، المطبعة العامرة الشرفية ، سنة ١٣٢٣ هـ
مختصر تاريخ الاسلام لابن حجر — مخطوطة أحمدية حلب ، ١٢٢٠
المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء — مصر المطبعة الحسينية ، ١٣٢٥
مدينة السلام للأمير شكيب أرسلان — مجلة الثقافة الدمشقية الجزء الأول ، السنة الأولى ص ٤ — ١٤
مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي — مخطوطة دار الكتب الوطنية بباريس ١٥٠٦
معجم البلدان لياقوت — طبعة وستنفلد
معجم المطبوعات لسركيس — مصر ، مطبعة سركيس ١٣٤٦ / ١٩٢٨
مقدمة ابن خلدون — مصر ، المطبعة الأزهرية ، ١٣٤٩
مقدمة ابن الصلاح — حلب ، المطبعة العلمية ، ١٣٥٠ هـ . و ١٩٣٦ م
المكثرون من التأليف والمجوّدون فيه لأستاذنا محمد بك كرد علي — مجلة المجمع العلمي العربي ، ١٧ : ٦٣ — ٧٧
مناقب الشافعي وطبقات أصحابه انتخله ابن قاضي شهبة من تاريخ الاسلام للذهبي — مخطوطة الظاهرية ، تاريخ ٥٧
المنتظم لابن الجوزي — دائرة المعارف العثمانية .
مورد اللطافة لابن تغري بردي — مخطوطة الظاهرية ، تاريخ ٣٠

ميزان الاعتدال للذهبي — مطبعة السعادة ١٣٢٥
النجوم الزاهرة لابن تغري بردي — مصر ، مطبعة دار الكتب المصرية
نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر لابن حجر — كلكته ، الجمعية الأسيوية سنة ١٨٦٢ م
نقطة — انظر الاستدراك .
الوافي بالوفيات للصفدي — الجزء الأول باعتناء ريتر استانبول ١٩٣١
الوافي بالوفيات للصفدي — مخطوطة أحمدية حلب ١٢١٦
وفيات الأعيان لابن خلكان — مصر ، المطبعة الميمنية سنة ١٣١٠
وفيات تاريخ الاسلام للذهبي — مخطوطة أحمدية حلب .

Brockelmann — G. A. L. et Sup.
Marçais [ W. ] — al-Khatîb al-Baghdâdi in Encyclopédie de l'Islam II. 981

---

أقدّم خالص شكري لأستاذيّ صاحبي المعالي محمد بك كرد علي وخليل بك مردم بك على ماتفضلا به من قراءة بعض فصول الكتاب ومن نصائح قيمة أسدياها لتقويم ما رأياه من اعوجاج فيها . وأشكر السادة عبيد إخوان أصحاب المكتبة العربية لإخراجهم الكتاب في وقتٍ صعبت فيه الأشياء . ثم شكراً لمطبعة الترقي التي عهدت إلى السيد محمد أسعد لطف بالعناية في صف تجارب الطبع ، فبذل قصارى جهده واستحقّ الشكر .

# فهرسة أبواب الكتاب وفصوله

**الآخذون عن الخطيب**
**وخاتمة القول في أثره**



**مذهب الخطيب ونزعاته**

**صفة الخطيب في علمه**



**مكانة الخطيب عند الناقدين**









